الهيئة العامة السورية للكتاب
The Syrian General Organization of Books

وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

الإسلام وأوربا المسيحية

من القرن الحادي عشر
إلى نهاية القرن السادس عشر

الحرب والسياسة، التجارة والثقافة

شمس الدين الكيلاني

شمس الدين الكيلاني

كاتب وباحث سوري معروف، نشر العديد من الدراسات والبحوث في الصحافة والدوريات العربية والمحلية في مواضيع الثقافة العربية - الإسلامية، والديموقراطية، والحركات الإسلامية، والإسلام السياسي.

صدر له عدد من الكتب، أشهرها **«صورة أوروبا عند العرب في العصر الوسيط»** (دمشق - وزارة الثقافة ٢٠٠٤)، و**«المثقف العربي والتحول إلى الديمقراطية»**، **«مفاهيم حقوق الإنسان والدولة في الإسلام»** (دمشق - دار السوسن ٢٠٠٤)، و**«رمزية القدس الروحية - قداسة المكان»** (دمشق - اتحاد الكتاب العرب ٢٠٠٥).

إهداء ٢٠٠٨

الإسلام وأوربا المسيحية

من القرن الحادي عشر
إلى نهاية القرن السادس عشر

شمس الدين الكيلاني

الإسلام وأوربا المسيحية

من القرن الحادي عشر
إلى نهاية القرن السادس عشر

الحرب والسياسة ، التجارة والثقافة

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة — دمشق ٢٠٠٧

الإســـلام وأوربـــا المسيحية : من القرن الحادي عشر إلى نهاية القرن السـادس عشر: الحرب والسياسة، التجارة والثقافة/شمس الدين الكيلاني.- دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب ، ٢٠٠٧.- ٢٨٨ ص ؛ ٢٤ سم .

١- ٩٥٦ ك ي ل   إ   ٢- ٣٢٧,٥٦٠٤ ك ي ل   إ
٣- العنوان   ٤- الكيلاني

استهلال

يندرج هذا البحث في سياق المراجعة الجدية - من وجهة نظر أخرى - لطبيعة العلاقات التي ربطت العالم العربي - الإسلامي بأوربا المسيحية وأشكالها ومداخلها، بما تتضمنه من تنافس وصراع وتثاقف وبما تعكسه من جوانب التفوق في المجالات المختلفة لهذا الطرف أو ذاك، بحثاً عن البذور التي ارتبط بها التفوق الأوربي فيما بعد، وتحديداً في القرن الثامن عشر مع اكتشاف قوة البخار وإدخالها في الاستخدام الصناعي، وذلك عبر تفحص الحقبة التاريخية التي شهدت مخاض هذا التحول التاريخي الكبير، وخاض فيها الطرفان (على حافتي المتوسط) سباقاً تنافسياً مهولاً للاستحواذ على مصادر القوة والمدنية في سياق الغلبة للسيطرة على العالم، أو على الأقل على المجالات الحضارية المحيطة بهما، وتمتد هذه الحقبة من القرن الحادي عشر حتى بدايات القرن السابع عشر، التي عرفت في الحوليات الأوربية بـــ "عصر النهضة، والإصلاح الديني، والتنوير" وفي الحوليات العربية بـــ "حقبة حروب الفرنجة، والغزوات المغولية، وعصر المماليك، وحقبة العثمانيين في مرحلتها الأولى الصاعدة (أي قبل أن تصاب دولتهم بالركود)".

وقد طمح هذا البحث، عبر تتبعه التاريخي لمراحل الاحتكاك الصعب بين الطرفين، التعرف على جوانب القوة والضعف عند كليهما، لمقاربة مجالات تقدمهما في مظاهر المدنية، من خلال تتبع مناحي الاقتباس بينهما،

وميزان تبادلهما التجاري، والمكانة المقارنة لبنائهما السياسي، ومستوى امتلاكهما لمصادر القوة العسكرية المحضة أو لمصادر الطاقة والتقنية والثقافة، إلى محاولة الكشف عن مدى تعرّف أي منهما للآخر، ودراسة الصور التي كوَّنها الجانبان عن بعض قبل زمن ولادة "الاستشراق" الذي أسس لبروز شعور أوربي خصوصاً وغربي عموماً بـــ "التفوق" الكاسح حينما تحوّل العالم العربي – الإسلامي (من وجهة نظر أوربا) إلى موضوع للدراسة والسيطرة معاً، وعندما تحولت أوربا إلى موضوع للإلهام والاقتباس بالنسبة للعرب والمسلمين، ومصدراً للشعور بالتضاؤل والغبن، فاختلط "الإغواء" مع "الخوف" في شعورهم تجاه أوربا.

لن نتوقف حين معاينتنا للتاريخ عند الأفكار السائدة عن هذه الحقبة بمحطاتها المختلفة، ولا عند الأوهام الإيديولوجية التي صاحبت قراءاتنا السابقة لها، إن كان في توهمنا للتفوق الأوربي المبكر أو لتاريخ (انحطاطنا) الأكثر قدماً، بل سنترك لحوادث التاريخ وحولياته التي غيبت لفترة طويلة أن تجيب عن بعض الأسئلة الحضارية الكبرى التي لا يزال العرب يطرحونها على أنفسهم منذ أن اكتشفوا تقهقر وضعهم الحضاري ومكانتهم في العالم.

الفصل الأول

حقبة الحروب الصليبية
والوضع على طرفي المجابهة التاريخية

لعل الحروب الصليبية، التي سمّاها مؤرخونا العرب حروب الفرنجة، لم تكن سوى رد الغرب على الفتح العربي – الإسلامي في القرن الثامن الميلادي الذي اخترق قلب أوربا وتمت السيطرة به على شواطئ المتوسط، وهي بالمساحة التي أخذتها من التاريخ فتحت المجال واسعاً للمجابهات التاريخية، والتبادلات والتأثيرات الكبرى بين الشرق والغرب.

فالحضارات، كما يذهب بروديل، إنما تقوم على مزيج من عدم الثقة والكراهية، مع التضحية والإشعاع، وتكديس للثروات الثقافية، وميراث للذكاء "فإذا كان البحر المتوسط مديناً بحروبه لهذه الحضارات، فإنه مدين لها أيضاً بمبادلاته العديدة: تقنياته وأفكاره وحتى معتقداته"(١).

لعل الحقبة التي يُؤرَّخ لها رسمياً بقرنين، تبدأ بسيطرة الفرنجة على القدس عام/١٠٩٩/ وتنتهي باسترجاع عكا، آخر معقل للفرنجة عام١٢٩١م، تكشف من واقع نتائجها النهائية عن اختلال لموازين القوى لصالح العرب على الصعيد العسكري، بالإضافة للمستويات الأخرى للحضارة. إلا أن التطور اللاحق على جرفي المتوسط سيذهب بميول التطور باتجاهات أخرى غير متوقعة. إذ ستتبلور منذ القرن الثالث عشر بذور النهضة في الغرب، إن كان على المستوى الثقافي، أو مستوى بناء الدولة، بينما سيستمر العرب راقدين في ظل العسكرتارية المملوكية. وعندما يرث العثمانيون سلطتهم فلن يستطيع هؤلاء، على الرغم من تفوقهم العسكري، أن يبلوروا سلطة، ومؤسسات سياسية، وقانونية، وشكلاً مناسباً للمشاركة الشعبية، أو أن يخلقوا إطاراً للتقدم الذهني والتقني ليجاروا ماكان يجري

ببطء ولكنه مستمر على الجهة الأوربية، وسيظهر التباين الحضاري لصالح الغرب جلياً في نهاية القرن الثامن عشر، مما سيقودنا إلى التمزق والاستتباع حيث مآله النهائي احتلال الأرض العربية، وكأننا أمام دورة جديدة من هجوم الفرنجة.

١ ــ أوضاعنا وأوضاعهم عشية الحملة الصليبية:

بدأ الضعف والتدهور يصيب الدولة العباسية بعد المعتصم الذي دشن عادة استبعاد العرب من "ديوان الجند"، إن كان فيما يخص بناء الدولة الداخلي: كاستبعاد العرب من الجيش، الركود، أو ما أصابها من تفكك، وتقلص رقعة سيطرتها، يصاحبها في ذلك ركود فكري وثقافي مما أدى بالنهاية إلى وقوع الخلافة العباسية نفسها تحت الوصاية البويهية (٩٤٥ ــ ١٠٥٥م). واستقل الإخشيديون في مصر والجزء الأكبر من بلاد الشام حتى طرابلس (٩٣٥ ــ ٩٦٩). واستقل الحمدانيون في شمال الشام والموصل، وتنازعوا وهم العرب مع البويهيين والإخشيديين والروم. ومع السيطرة الفاطمية على مصر وقسم من بلاد الشام، على حساب الإخشيديين، انقسم العالم الإسلامي طوال قرنين (٩٦٩ ــ ١١٧١) بين خلافتين ومذهبين. إذ ما لبث الفاطميون أن بسطوا سطوتهم حتى دمشق وأزاحوا (افتكين) المغامر التركي الذي ألحق نفسه بالبيزنطيين. ثم سيطروا على حلب (١٠١٥) إلى أن استردها (صالح بن مرداس) الذي ظل ورثته يحكمونها من سنة ١٠٢٣م لغاية ١٠٧٩م(٢).

بعد أن أهّلت ظروف القرن العاشر الميلادي البيزنطيين لأن يكونوا في موقع الهجوم بالنسبة للعالم العربي – الإسلامي الممزق، ظهرت قوى الأتراك السلاجقة في الشرق فغيروا الوضع لصالح الشرق الإسلامي إلى حين.

لقد استطاع السلاجقة وراثة الغزنويين، واستولوا بقيادة طغرل بك على نيسابور عام (١٠٣٨) وعلى أصبهان عام (١٠٥٠)، ثم وانتهم الفرصة، عندما استنجد بهم الخليفة العباسي، لإنقاذه من الوصاية البويهية، فتحقق بتلبيتهم هذا النداء وحدة المسلمين في إيران والعراق تحت ظل الخلافة العباسية، والسلطنة السلجوقية "التي تجاهر برغبتها في أن تعيد إلى الإسلام تالد مجده(٣)".

وتبدل الموقف للمسلمين - كما يقول رنسيمان - في الوقت الذي بدأ فيه الضعف والركود يعتري بيزنطة في القرن الحادي عشر. فأوغل السلاجقة في الأراضي البيزنطية حتى ملاذكر (مانزكرت) التي تعتبر معركة فاصلة في التاريخ حيث انهزم البيزنطيون أمام ألب أرسلان (١٠٧٠م) وهي "أشد ماوقع في التاريخ البيزنطي من كوارث حاسمة "(٤). ولم تقم للروم مذاك قائمة، وبعدها لم ينفك أباطرة بيزنطة يوفدون البعثات إلى الغرب يروجون الدعوة للحروب المقدسة.

ويبدو أن ملك شاه (١٠٧٢ ــ ١٠٩٢) الذي خلف ألب أرسلان واتته فكرة إقامة خلافة عباسية تستند على العنصر التركي، فزوّج ابنته للخليفة المقتدر فأنجب هذا الزواج طفلاً (جعفر) يحمل الدم العربي والتركي، إلا أن اغتيال الوزير الكبير (نظام الملك) الذي يحمل الفكرة نفسها، ثم موت ملكشاه عام (١٠٩٢)(٥) قضى على هذا المشروع، بل دفع إلى انهيار وتفكك الدولة - الامبراطورية السلجوقية.

فلم تحل سنة ١٠٩٦ عشية الحملة الصليبية الأولى إلا وكانت دولة السلاجقة قد انقسمت إلى خمس ممالك متنافسة، سلطة بركياروق على أصبهان وبغداد، وأبو الحرث سنجر على خراسان وماوراء النهر، ومملكة حلب عليها رضوان بن تتش (١٠٩٥ ــ ١١١٣) ودمشق وعليها أخيه دقاق

بن تتش (١٠٩٥ ــ ١١٠٤) وأخيراً سلطنة سلاجقة الروم وعليها قلج أرسلان بن سليمان بن قطلمش بالإضافة إلى ذلك فإن دانشمند التركماني حقّق استقلالاً ذاتياً لهم، والتركي (ياغي سبان) على انطاكية، وعلى الموصل الأتابك كربوغا. بل وصل التمزق والشقاق إلى الحد الذي عرض فيه الفاطميون على الفرنجة، عشية الحروب الصليبية أن يغنم الفرنجة شمال الشام، على أن يأخذوا هم فلسطين (٧).

وهكذا، فحينما كان البابا أوربان الثاني يدعو إلى الحملة الصليبية كان الخطر الإسلامي في آسيا، شأنه شأن الخطر الإسلامي في إيطاليا وإسبانيا من قبل ــ كما يشير إلى ذلك كاهن ــ كان في طريقه إلى الزوال (٨).

لذا يصح ما قاله ابن الأثير "اختلف السلاطين فتمكن الفرنج من البلاد".

إلا أن هذا التمزق السياسي في حدوده القصوى، لم يخف الطابع المتحضر للمجتمع الأهلي في بلاد الشام ومابين النهرين ومصر. فالحياة المدينية لاتزال عامرة رغم ما أصابها، والحياة الزراعية مزدهرة، والحياة الثقافية غنية رغم هذا التشتت المبين وانقياد المجتمعات العربية من قبل عساكر غرباء، وانتشار الإقطاع العسكري، والرق المنزلي والحرفي، وزيادة دور البداوة. في ذلك الوقت (القرن الحادي عشر)" لاتزال أوربا منطقة جغرافية لم تتشكل بعد على المستوى السياسي، كما أنها كانت مجرد منطقة ريفية متخلفة بالقياس إلى كل من العالم البيزنطي والعالم العربي "(٩).

حتى قبل أن تسقط روما في القرن الخامس الميلادي في يد البرابرة، فإن الغرب بكامله، إذا وضعنا خارجاً شمال أوربا الذي لم تصله المدنية بعد، رزح تحت ركود شامل نال من حياته الروحية والمادية، ولم يستطع إدراك هذا التأخر، على الرغم من جهود الأباطرة الميروفنجيين (٤٨١ ــ ٧١٦ م)

الذين أعلنوا ولاءهم لبيزنطة، والجهود اللاحقة للامبراطورية الكارولنجية، الذي توج البابا ليو الثالث زعيمهم الأكبر شارلمان (٨٠٠م) امبراطوراً (للامبراطورية الرومانية المقدسة)، محيياً بذلك ذكرى الامبراطورية القديمة، مدخلاً بذلك فرنسا،وقسماً من إسبانيا، وإيطاليا في دائرة السلطة الامبراطورية مع السلطة الروحية لكنيسة روما. ولكن، ومع موت شارلمان سيغدو التاج الامبراطوري بلا معنى بتقاسم أولاده الثلاثة السلطة، وعلى أجزائها الثلاثة ستقوم الممالك الأوربية الحديثة، فيما بعد (١٠).

وسرعان ما انتزع العرب ــ المسلمون غرب المتوسط بكامله، واندفع النورمانديون من الشمال، والمجريون من الشرق، فضلاً عن شعوب الصقالبة على التخوم الشرقية.

إن ظهور الهنغاريين، والاضطراب في ألمانيا، وإيطاليا واللورين وبورغونيا والشمبانيا، واستقرار النورمانديين في فرنسا (٩١١م) وانكلترا، قبل دخولهم إيطاليا الجنوبية على حساب المسلمين، يضاف إليها آلام الحروب الأهلية، والسلالية سيدفع بالغرب نحو التدهور. فإن كان أوتو الأكبر (٩٣٦م) وريث الامبراطورية الرومانية المقدسة قد خفّف من هذه الفوضى الهائلة في ألمانيا، ففي فرنسا وإيطاليا ظل الخطر والخوف يلف الطرقات الكبرى. إذ تقلصت الحياة إلى الحدود الداخلية للإقطاعية الريفية، وتمركزت حول مسكن الأمير والدير(١١)، وزالت التجارة عندما أصبح الاستهلاك والإنتاج محلياً والذي بالكاد ارتفع فوق مستوى الهمجية. وتوسعت الأراضي البور حتى غطت الغابات ثلثي غاليا، وعلى كل ألمانيا الوسطى، وعلى السهول المنخفضة. ومن الطبيعي أن يترافق هذا البؤس الشامل مع انتشار الأوبئة القاتلة، والاضطرابات، ناهيك عن انخفاض الحياة الأخلاقية والدينية التي

جنحت نحو الخرافة. وفي وضع كهذا يصبح الحديث عن الحياة الفكرية ضرب من الخيال، والتي ستقتصر على ثقافة الأديرة.

إن ظهور بعض المدن التجارية المزدهرة، في القرن الحادي عشر الميلادي، على مشارف المتوسط مثل البندقية وبيزا وجنوه وأمالفي، لايخل بالصورة العامة لأوربا العاجزة المتخلفة.

إلا أن أوربا التي كانت في حالة بؤس حضاري شامل، بالمقارنة مع الشرق المسلم، وجدت مايجمعها في القرن الحادي عشر الميلادي حول هدف واحد: غزو الشرق والقضاء على دور العرب المسلمين فيه، واحتلال القدس الشريف. واستطاعت أن تؤلّف بين مصالحها المتنابذة إلى حد كبير في ظل معركتها الكبرى تلك.

لم يمنع الجفاء بين الامبراطور هنري الرابع والبابا من مساهمة ألمانيا، وكان هناك رينانيون وإنجليز وإيطاليون، وإن كانت الغلبة فيهم للفرنسيين، وقاد النورمانديين بوهمند الترانتي تحدوهم الأحلام الغابرة التي لم تكن لها بالقدس ـ كما يقول الكاهن ـ إلاّ صلة واهية. أما بالنسبة للبندقية وجنوه وبيزا، التي ماكانت الحرب لتنجح لولا مساهمتهما البحرية، فقد كان يتنازعهما الطمع للحصول على كنوز الشرق، وعلى موانئ الشرق اللازمة لتجارتها البحرية (١٢) وأهم ماكان يشغل بال بيزنطة هو استرجاع مافقدته عند السلاجقة، وعندما اختلفت خططهم مع الفرنجة حول انطاكية، توقفوا عن المشاركة المباشرة (١٣). ودخلت الجماهير البائسة تحت راية الصليب لنيل الجنة السماوية والغفران، وتخلصاً من بؤسهم الأرضي وطلباً للجنة الأرضية الموعودة من خيرات الشرق الخرافية التي حلموا بها.

ربط ابن الأثير بنباهة بين الحملات الصليبية في المشرق، وحملاتهم على الأندلس، وكأن مايجري في الأندلس ماهو سوى مدخل لحروبهم في الشرق. فسقوط طليطلة (١٠٨٥م) ماكان يفصله سوى عشر سنوات عن إعلان البابا أوربان الثاني رسمياً بدء الحروب الصليبية.

وقد أسهم الصليبيون الوافدون من انكلترة وألمانيا في فتح لشبونة (١٤) فغدا ميدان المعركة يشمل المغرب والمشرق العربي. فأصبح الصراع شاملاً بين حضارتين (١٥).

لعل فكرة حرب صليبية شاملة تبدأ من الأندلس وصقلية وتنتهي بالقدس نضجت كفكرة منذ البابا غريغوري السابع،وتسلم البابا أوربان الثاني(١٠٨٨م) من بعده، زمام المبادرة. فذهب باتجاه تنفيذ مخطط شامل للانقضاض على الشرق العربي تصبح فيه " مسألة إنشاء دولة لاتينية في سورية وفلسطين... من شأنها تأسيس قاعدة نفوذ لاتينية رومانية في المشرق.. وماكان قد بدأ إنجازه في صقلية وإسبانيا لزم أن يشمل فلسطين " (١٦).

وقد واتت الفرصة متنفذي الغرب، وفي مقدمتهم البابا بعد خسارة بيزنطة في معركة (مانزكرت) التاريخية، ليرفعوا شعار نجدة بيزنطة والاستيلاء على بيت المقدس آملين السيطرة على المشرق العربي، وإرجاع بيزنطة وكنيستها إلى حاضرة روما وهي التي انفصلت عنها كنسياً عام ١٠٥٤ م.

٢ ــ الحرب والسلاح:

تقدمت الجيوش الإقطاعية الأوربية الضخمة باتجاه القسطنطينية١٠٩٦م في أربع جيوش، وبعد عبورها البوسفور استولت مع البيزنطيين على (نيقية) عاصمة السلاجقة، وأعادت إلى بيزنطة شواطئ آسيا الصغرى، ثم اخترقت الطريق إلى (قونية) وانطاكية التي استولت عليها بعد حصار مديد ومقاومة بطولية.

بعد المذبحة المروعة التي أقامتها في انطاكِية، أكملت مشوارها الدامي نفسه في (الرها)، وختمته في القدس (١٠٩٩).

لم يحترموا قداسة المدينة، ولأنهم لم يملكوا سمو روح عمر بن الخطاب وأريحيته وإنسانيته عند دخوله تلك المدينة المقدسة " فقد احتفلوا بانتصارهم بارتكاب مجزرة تعز على الوصف ثم ضربوا بوحشية المدينة التي يزعمون إجلالها " (١٧) وطردوا منها جميع كهنة الطقس الشرقي، بعد أن أخضعوهم للتعذيب للحصول على صليب المسيح. وبعد أشهر من الحصار، دخلوا طرابلس (١١٠٩م)، خاب خلالها أمل المدينة الباسلة من نجدة الأشقاء، فخرب الغزاة مدينة المصوغات والمكتبات والبحارة البواسل والقضاة والمثقفين وأتلفوا مئة ألف مجلد كانت في دار العلم، ومعظم الأهالي بيعوا أو أبيدوا. وأعقبوها بمذبحة لبيروت وصيدا على سبيل العبرة(١٨).

وانتصر الغرب لوحدته العسكرية ــ السياسية، في المرحلة الأولى على الرغم من تخلفه الحضاري على " الشرق بمدنه التجارية الكبيرة والمتطورة في الميدان الاقتصادي أكثر من الغرب، القروي أساساً " (١٩).

لن يستقر الصليبيون كثيراً في المستعمرات الأربع التي تقاسموها فيما بينهم: الرها، انطاكية، طرابلس، بيت المقدس. سرعان مايستفيق العرب من هول الكارثة، عندها ستصبح صرخة قاضيي دمشق وحلب بمثابة صوت الأمة، وستغدو راية الجهاد مشروعاً سياسياً لها يقوده السلاجقة والأيوبيون والمماليك.

سيتصدر الأتابك عماد الدين الزنكي طريق الجهاد والوحدة، على الرغم من دوره في إفساد خطط الخليفة (المسترشد بن المستظهر) في تجديد الخلافة وتحسين دور العرب في إدارتها. وانطلاقاً من (١١٤٠م) تقريباً سيعطي الزنكي السلطة الوزارية لقادة عسكريين عرب وأكراد، وبعد ضمه حلب عام (١١٢٨م) إلى

الموصل وتوحيده شمال سوريا سيقود العرب إلى الاستيلاء على الرها (١١٤٤م) تلك المدينة التي تتحكم بعقدة مواصلات حلب - الموصل - بغداد - سلاجقة الروم، وسيحفظ للأرمن والسريان كنائسهم في حين سيدمر كنائس الصليبيين الكاثوليك (٢٠) وتوافقاً مع هذه الفترة نفسها يبادر الموحدون إلى توحيد المغرب العربي لمواجهة المخاطر التي تحيق بالأندلس، ولصد تجاوزات النورمانديين مما جعل الوضع بكامله يتحول بمساره العام لصالح العرب.

ولن يجني الغرب من حملته الثانية بقيادة (لويس السابع وكونراد الثالث) الذين حاولوا الرد بها على هزيمة الرها، سوى الفشل على أبواب دمشق، بل ستسرّع هذه الحملة في إنجاز وحدة سورية بانضمام دمشق لها (١١٥٤م) في عهد نور الدين بن الزنكي وخليفته.

ستتركز جهود نور الدين الزنكي بعد ذلك على ضم (مصر) للجهود العربية الإسلامية لاقتلاع العدوان (الصليبي) واسترجاع بيت المقدس. وقد واتته الفرصة مع انتشار الفوضى الشاملة وانتشار الخلافات في قمة السلطة الفاطمية إلى الدرجة التي يطلب فيها الوزير شاور المساعدة من الفرنجة ــ وهي على كل حال لم تكن المرة الأولى ــ وسيطلب الخليفة الفاطمي بدوره النجدة من نور الدين الذي سيسارع من فوره إلى إرسال شركوه وابن أخيه صلاح الدين إلى مصر. سيتم القضاء على شاور، وعلى الخطر الفرنجي، وتعاد مصر رسمياً إلى طاعة الخلافة العباسية عام ١١٧١، ومن تلك اللحظة التي دخلت فيها مصر قلب الجبهة المشتركة للحرب المقدسة ضد الفرنجة يكون الباب قد فتح لتحرير القدس.

صلاح الدين الذي خلف عمه شركوه في مصر سيضم الشام إلى مصر بعد أن آل الأمر إليه بوفاة قائده نور الدين (١١٧٤م) وصار الخطر شاملاً ضد

الفرنجة. فبعد انتصاره في حطين خاض معركته الحاسمة لتحرير القدس، التي دخلها (١١٨٧م) مقتدياً بنبل وأخلاقية عمر في تعامله مع المستسلمين الفرنجة. بعدها انحصر الوجود الفرنجي في شريط ساحلي ضيق، لن تفلح الحملات الصليبية المتتالية في تغيير المآل النهائي للاحتلال، الذي سينتهي بالكامل مع تحرير (عكا) آخر معقل للفرنجة (١١٩٢م) في عهد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون. وسيخلف ذلك العدوان وراءه في الوجدان العربي ذكرى قاتمة مريرة.

بعد أن كانت (الأمة الإسلامية) كلها نظرياً تحت السلاح، تبدلت القاعدة تلك في القرن التاسع الميلادي مع ظهور الإقطاع العسكري، لتصبح نواة الجيش تلك القوة المؤلفة أساساً من العبيد والتابعة للقادة والأمراء (٢١). وفي مقابل احتفاظه بإيرادات إقليمه المقتطع، يلتزم الإقطاعي السلجوقي بالخدمة العسكرية عند الحاجة (٢٢) وعلى خلاف النظام الإقطاعي الغربي الذي حمله الصليبيون معهم حيث كانت الوظيفة العسكرية وراثية، فإنه كان عندنا يتحاشى توريث الخدمة إلى الأبناء، حرصاً على عدم الاندماج بالسكان وللإبقاء على التمايز العرقي للجيش الذي سيتجدد باستمرار من المرتزقة أو العبيد (٢٣).

لكن في غمرة الحرب المقدسة، وفي ذروة الإحساس بالخطر أو بنشوة النصر، سيتولد تقارب مع السكان العرب المحليين وسيُفتح لهم باب التجنيد، مع الحرص على إبقائهم ضمن فرق خاصة للمتطوعين، موازية للفرق النظامية المحترفة، وبدون رواتب منتظمة (٢٤).

بالمقابل سينشئ الغرب ميليشيتين كهنوتيتين: الداوية،والاسبتارية لرفد الفرنجة الغزاة، سيقوى نفوذهما داخل المستعمرات فأصبحتا بمثابة دولة داخل دولة.

اعتاد المسلمون والفرنجة على إعطاء الأولوية للخيالة. إلاّ أن ما يتميز به الفارس الغربي هو ثقل السلاح الذي يحمله بالمقارنة مع الفارس المسلم.

فالأول يحمل درعاً ثقيلاً ويمتشق سيفه الثقيل ذا الحدين والرمح الثقيل وقلنسوة فولاذية وترساً وهذا مما يؤثر على حركته، بينما اعتاد الخيال المسلم على الكر والفر تساعده في ذلك خفّته. وما يميز حرب السلاجقة هو تكتيكات الرماة والفرسان السريعة والمرونة والمراوغة وسرعة عدو خيولهم ورشاقة وخفة أسلحتهم: الترس والرمح والسيف والهراوة مما يجعلهم يتمتعون بسرعة المباغتة أكثر من الصليبيين (٢٥).

اختراع وإتقان السرج والشكيمة والركاب، في العصور الوسطى، جعل للفروسية تكلفتها التي ستصبح بها حكراً على الارستقراطية. لهذا، سيعزو لها (كلود كاهن) دوراً في ظهور نظام الإقطاع في الغرب، وإن لم تعط النتائج نفسها في الشرق.

ولم تتغير التقنيات العسكرية لدى الجانبين: الفرنجة، والمسلمين طوال حقبة النزاع المرير. وإذا كان الاختراع الوحيد للفرنجة المنجنيق فالعرب سيصلون إلى اختراعه في المقابل، وكلا الطرفين سيعرف استعمال النار الإغريقية البترولية. وسيقتبس الغرب من العرب استعمال الحمام الزاجل في الاتصالات.

وكانت أهم ركائز النظام الدفاعي للمستوطنات الصليبية، وهم الذين يشعرون بالخطر الدائم ضمن رقعتهم الضيقة، التحصينات والقلاع والأبراج(٢٦).

ربما في ظل هذه الأوضاع من توازن التقنية العسكرية ستصبح الروح الكفاحية وكثافة الحشد والمستوى الحضاري هي العامل الحاسم.

٣ ــ بحر وتجارة:

يعتقد بروديل بحق، انه خلال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، سيطر الإسلام في عز ألق حضارته على البحر المتوسط، وكانت المسيحية على حد تعبيره " لاتكاد أن تعوِّم له فيه قطعة خشب " (٢٧). ويلاحظ تبدل الأحوال

منذ القرن الحادي عشر الميلادي، إذ غدت المراكب الإيطالية سيدة البحر المتوسط.. وأصبحت إيطاليا.. المنطقة الأكثر نشاطاً والأكثر ثراء (٢٨).

يُرجع البعض اختفاء البحرية الإسلامية إلى نقص التموين بالخشب إلا أن كلود كاهن يُعيد الأمر إلى الانشقاق الحاصل بين مصر الفاطمية والمغاربة وبين المغاربة أنفسهم، بالإضافة إلى ماصاحب ذلك من ازدهار للأساطيل الإيطالية إلى الدرجة التي أضحت فيه العلاقات بين الدول الإسلامية تعتمد عليها (٢٩). وقد وصل الأمر بالمدن البحرية الإيطالية في القرن الثاني عشر الميلادي إلى السيطرة على تجارة الشرق والغرب، واضطر مسلمو الغرب لاستعارة مراكبها للرحلة إلى الشرق. وإن كنا نجد في بداية القرن الثالث عشر الميلادي بعض عناصر الأسطول الإسلامي على امتداد سواحل المغرب العربي.

وسيؤسس صلاح الدين الأيوبي وبعده المماليك أساطيل بحرية (٣٠) بعد ذلك، في القرن السادس عشر، تنامي دور الأساطيل العثمانية.

اعتقد البعض مثل بيرين و د.حاطوم أن سيطرة العرب على المتوسط قطع من سريان التبادلات التجارية بين الشرق والغرب المسيحي، مما دفع إلى إضعاف الحياة المدينية في أوربا(٣١). بالمقابل فكلود كاهن يذهب إلى أن الاتصالات، وإن لم تتم بين العالمين بشكل مباشر حتى القرن العاشر ميلادي، فهذا لم يمنع من أن يلعب اليهود والمسلمون المنتمون إلى غرب المتوسط دوراً تجارياً، وإن ظلت سبل الاتصالات محصورة، إلى حين في مناطق معينة، مثل البندقية وشمال أفريقيا، وإسبانيا وما يجاورها. وبيزنطة وجوارها (٣٢).

تغيّر الوضع منذ القرن الحادي عشر الميلادي، ونهاية القرن العاشر. توقفت حينها الغارات والفوضى من الجانب الأوربي، وأصبح بإمكان الناس استئناف حياتهم الطبيعية. وصارت السفن التجارية البيزنطية والإيطالية تبحر

بحرّية بين مرافئ بيزنطة وإيطاليا عند السلطات الإسلامية(٣٣) ومن الجانب الإسلامي، وبعد استيلاء الفاطميين على (مصر)، لم يكن بمقدورهم الاعتماد على خشب وحديد المشرق الشامي، ولاعلى الوساطة التجارية المغاربية. فمدوا اليد للبيوتات التجارية الإيطالية واجتنبوها نحو الشرق. "فكان الأمالفيون يربحون أموالاً طائلة من الإتجار في المواد التي في إمكانهم جلبها من مصر" (٣٤) وكانت أهم السلع التي يصدرها البنادقة في السنوات الأولى من القرن العاشر هي الرقيق.. كما تعتبر المعادن والأخشاب أهم السلع التي يصدرها الغرب " (٣٥) وعندما فقدت أوربا تجارة العبيد لاعتناق الشعوب السلافية المسيحية " لم يكن في إمكان أوربا أن تعوضه اقتصادياً، إلا بتصديرها سلعاً غذائية " (٣٦) والوثائق تتحدث ــ كما يقول كاهن "عن الخشب والحديد بالنسبة للاستيراد، وأحجار الشب، والمواد الاستهلاكية المتنوعة للتصدير " (٣٧). وكان هناك معبران للتجارة الآسيوية ــ الأوربية عبر فلسطين ثم بغداد فالخليج العربي ثم آسيا، وطريق أخرى تمر بالإسكندرية نحو البحر الأحمر ثم بحر العرب فالمحيط الهندي إلى آسيا. فكان التجار الإيطاليون " يحملون معظم متاجر بلدان البحر المتوسط وسلعها، مثل المنسوجات الصوفية من إيطاليا، والشب من مصر، والذهب والفضة من شمال إفريقيا، والسجاد من فارس، فضلاً عن متاجر الشرق الأقصى، كالحرير الصيني، والتوابل الهندية. واشتروا من أسواق شامبيني الأقمشة والمنسوجات الفرنسية والفلمنكية والصادرات الرئيسية للغرب الأوربي إلى بلدان شرق البحر المتوسط " (٣٨). فالخلافات السياسية والعقائدية لم تحل دون تدفق السلع بين طرفي المتوسط. فالنورمانديون حرصوا، بعد استيلائهم على صقلية في القرن الحادي عشر الميلادي، على استمرار صلاتهم التجارية مع مصر. ولم تكن سياسة التوسع التجاري التي اتبعتها (أمالفي) مع الشرق المسلم سوى امتداد لسياستها السابقة مع

صقلية المسلمة. وسنجد الكثير من تجار جنوه في مصر عشية الحملة الصليبية الأولى (٣٩).

وإذا أردنا تحديد اتجاه الميزان التجاري فإننا نقول مع الدكتور قاسم عبده قاسم "انه حتى بداية الحروب الصليبية، كانت التجارة بين الشرق وأوربا تسير في اتجاه واحد تقريباً لصالح الشرق"(٤٠).

إن مجرد إقامة الصليبيين بالمشرق العربي لم يكن قادراً على قلب الأوضاع التجارية تلك. وكان التفاوض بشأن البضائع التي تهم التجار الغربيين في الشرق يتم دائماً في مصر بصورة رئيسية(٤١).

فإن علمنا ــ كما يخبرنا (رنسيمان) ــ أن رخاء المدن الإيطالية: البندقية، بيزا، جنوه، أمالفي، بأكمله، يتوقف على العلاقات الطيبة مع المسلمين، نستطيع، حينئذ أن نتصور كيف أن تلك المدن مع مساهمتها في الحملة الصليبية حرصت ومعها الفاطميون، على استمرار تدفق التجارة بينها. فتجارة الشرق الأقصى التي تمر بمصر تحتاج إلى الطليان لنقلها إلى الغرب، كما أن هذه المواد نفسها، والاستقرار والاطمئنان الذي يجده الطليان في مصر الفاطمية كل هذا موات لتجارتهم. ولعل التجارة مع أقاصي الشرق (الآفاوية) والتي وجدت قبل الحروب الصليبية، وتتجه نحو اليمن والبحر الأحمر، غدت بعدها مرتبطة بمقدار الأمان المتوفر لميناء (عيذاب) في جنوب مصر (٤١) ولقد ساهم تدهور خط التجارة المار بالخليج العربي، نتيجة الاحتلال (الصليبي) لموانئ بلاد الشام في البداية، وتوقف عمليات التموين المباشرة للقسطنطينية من المنتجات الآسيوية للسيطرة التركية على آسيا الصغرى، ساهم هذان الحدثان في تقوية الاعتماد على الخط التجاري المار بالبحر الأحمر عبر مصر إلى الغرب " فظلت تجارة الشرق الأقصى تنقلها حتى وقتذاك السفن التي تجتاز طريق البحر الأحمر، ثم تصل

المتوسط عن طريق الموانئ المصرية... بالإضافة لذلك فقد اشتهرت القاهرة والاسكندرية بأنهما من المراكز الكبيرة في إنتاج الزجاج والفخار والأواني المعدنية، فضلاً عن المنسوجات الكتانية، والمزركش.. والقمح.. وقصب السكر. كما تسيطر مصر على تجارة السودان من الذهب والصمغ وريش النعام والعاج " (٤٢).

أما المشرق الشامي فقد تأثرت علاقاته التجارية بالغرب، المارة أساساً عبر الشريط الساحلي الذي أصبح تحت سيطرة المستوطنات الفرنجية. ولاتلبث الأيام أن تترك فسحة للحياة التجارية بين الأطراف المتنازعة، لذا "ليس من المستغرب أن تزدهر التجارة الداخلية في عصر الحروب الصليبية، لحرص كل من المسلمين والصليبيين على المواد التي توفرها لهم عائدات التجارة " (٤٣) وسيندهش (ابن جبير) في رحلته الشامية ١١٨٣ م لرؤيته القوافل تذهب وتجيء بيسر بين مصر، ودمشق عبر بلاد الفرنج.. وإن للنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم..وتجار النصارى أيضاً يؤدون في بلاد المسلمين عن سلعهم.. وأهل الحرب مشتغلون بحربهم (٤٤) لقد حصل تجار جنوه وبيزا والبندقية على جملة من الامتيازات التجارية في الموانئ التي يسيطر عليها (الصليبيون) الذين أدركوا بدورهم أهمية وضع صيغة للتعايش السلمي والانتفاع من جباية المكوس (٤٥).

صدَّر (الصليبيون) من مستوطناتهم، ولو بكميات قليلة، السكر بعد أن تعلموا استخراجه من قصب السكر، فصار معظم ما كان يستهلك من السكر في أوربا الغربية في القرن الثاني عشر والثالث عشر من المستعمرات الصليبية. وصدروا الأقمشة: الحرير، والكتان من نابلس، والزجاج من انطاكية حيث كان ينافس الزجاج المصري (٤٦).

وقد لعب التجار المسلمون والمسيحيون الشاميون والمصريون، دوراً في نقل البضائع إلى الطليان ومنهم إلى أوربا، وفي المدن الصليبية كانت هناك علاقات طيبة بين التجار المسلمين والمسيحيين.

ونقل التجار الطليان عبر المدن الصليبية، تجارة الشرق الأقصى: "توابل الهند بأنواعها، مثل القرفة، والفلفل، والزنجبيل والهال، وجوز الطيب، كذلك الحرير والخزف من الصين، والأحجار الكريمة مثل اللؤلؤ والياقوت والماس من جزيرة سيلان، والسجاجيد من فارس وآسيا الصغرى، والنيلة والموسلين من العراق " (٤٧).

عرف الجانب الإيطالي، في خضم الصراع، كيف يطوع تشدده الديني لمصالحه الاقتصادية، ففي نهاية القرن الثاني عشر، قدمت البندقية يد العون للصليبيين ضد صلاح الدين، ونقلت السلع، حتى الأسلحة إلى المسلمين في مصر والشام (٤٨). وبيزا التي قدمت للفاطميين والفرنجة المساعدة ضد صلاح الدين، لن تجد حرجاً في تقديم اليد نفسها للأيوبيين بعد انتصارهم، مثلما جرى مع البندقية (٤٩).

من هنا لم تتوقف التجارة بين الغرب والعرب عبر المدن الإيطالية ولابين الغرب والشرق الأقصى عبر الأرض العربية. " فمن البندقية وجنوه، وبيزا، ومرسيليا، ومونبلييه، ومن سواحل بريطانية المضيئة ــ كما يقول زابوروف ــ وبرشلونة المشمسة كانت الأساطيل تنطلق إلى الشرق حاملةً خشب البناء والمعادن والجلود والجوخ من فرنسا، والخيول والعبيد.. وينقلون إلى أوربا البضائع المشتراة من مدن الشرق البحرية... وكانوا ينقلون الأقمشة الحريرية، والفضة من صنع الحرفيين السوريين، والفواكه.. وجوز الطيب، وقصب السكر. والقطن والمسك من التبت، والزجاج المصري. والمصوغات الزجاجية والأصباغ والتوابل من الهند. والصمغ والبخور والعنبر من الجزيرة العربية، واللؤلؤ والحجارة الكريمة، والعاج من بلدان إفريقيا لتصريفه في أوربا " (٥٠).

طوال هذه الحقبة، كان الميزان التجاري يميل دائماً لصالح الشرق العربي ــ الإسلامي. فالشرق كان يبيع بضائع غالية بينما لايجد الغرب البضائع التي توازيها في القيمة. وإن كان التجار الطليان، على أية حال، بإمكانهم الحصول داخل الغرب نفسه على مايعوض خسائرهم (٥١).

العملة الذهبية البيزنطية (النوميسما) حققت تفوقاً فيما بين القرن الخامس والسابع الميلاديين وفرضت نفسها على عالم المتوسط(٥٢) قبل أن تؤكد العملة الذهبية العربية–الإسلامية نفسها في بداية العصر الوسيط، مستخدمة الذهب السوداني، دون أن يتجاهل المسلمون، مع ذلك، استعمال الفضة في نقدهم، في المقابل، سيفقد الغرب قدرته على سك العملة الذهبية في القرن الثامن، وهذا "يتفق مع خراب تجارة البحر المتوسط، ولأن الشرق سحب ذهب (غاليا)، دون مقابل، إذ لم يكن لديها بضاعة تبيعها له.. لذا صارت العملة الفضية العملة الوحيدة التي تدخل في الحسابات حتى حكم القديس لويس"(٥٣).

لكن، كما يلاحظ كاهن، انه منذ القرن الحادي عشر " أخذت العملة الفضية تندر في كل مكان إلى درجة الاختفاء التام في بعض المناطق حوالي القرن الحادي عشر.. على الأقل بالعالم الإسلامي والبيزنطي " (٥٤) ويُرجع كاهن هذه الندرة إلى زيادة الطلب نتيجة تطور شروط الحياة والعلاقات الخارجية.

وتوافقاً مع الحروب الصليبية، يشير كاهن، لم تعد هناك دولة إسلامية تسك عملة ذهبية أو فضية، إذ كانوا يكتفون بالعملة النحاسية (٥٥) ربما يكمن السبب في انتقال كمية هائلة من الذهب الإسلامي إلى الديار المسيحية، كما يعتقد (رنسْيمان)(٥٦). فالذهب كاد يختفي من مصر في نهاية العهد الفاطمي،

ربما نتيجة النفقات العسكرية الباهظة. إلا انه من المعلوم أن الذهب السوداني، منذ نهاية القرن الحادي عشر، كان يُجلب من السودان بكميات كبيرة إلى المغرب والأندلس، وبطريقة غير مباشرة إلى الغرب المسيحي بواسطة المرابطين ومن بعدهم الموحدين في القرن الثاني عشر (٥٧).

ويخبرنا (كلود كاهن) انه كان بمقدور نور الدين الزنكي صك العملة الذهبية والفضية(٥٨) وأن الذهب في آسيا الأيوبية حافظ على مكانة كبيرة ربما تم تصحيح وضعه في مصر ذاتها في عهد الكامل. وحينما بدأت الحروب الصليبية لم يكن يُضرب في أوربا نقد ذهبي إلاَّ في صقلية وإسبانيا حسب رأي (رنسيمان)(٥٩).

وتوافقاً مع تعاظم دورها في المتوسط، بدأت المدن الإيطالية في القرن الثالث عشر بإصدار عملاتها الذهبية، جنوه أولها، وتلتها فلورنسا، ثم البندقية (٦٠) كما قامت المستعمرات الصليبية بدورها بالسك المتواصل للعملة الذهبية التي يسمونها (البيزنط) كما سموا العملة العربية (البيزنط العربي). وستكون تلك البيزنطيات متداولة في أسواق سوريا المسلمة(٦١) وفي قلب الاختلاطات الواسعة التي فرضها الغزو (الصليبي) صارت النقود المتداولة في بلاد الشام " تتنوع وتتباين تبايناً شديداً لايقل عن تنوع الأجناس والعناصر التي اجتمعت في تلك البلاد.. وظلت النقود العربية والنقود البيزنطية متداولة أيضاً في بلاد الشام طوال العهد الصليبي " (٦٢).

٤ ــ تبادل الصور والتأثيرات:

آ ــ صورة العرب، تأثيرات العرب:

ظل الجهل والتحيز قروناً يحيطان معرفة بيزنطة والغرب بالإسلام وبالعالم العربي. فالبيزنطيون الذين تصارعوا مع المسلمين لثلاثة قرون كان لديهم أدبهم

شعبي الذي يصور المسلمين يعبدون ثلاثين إلهاً أكبرهم (مهومد) كما يورد ذلك الدكتور رضوان السيد ويستغرب ريتشارد سوذرن فظاعة الأساطير المنتشرة عن الإسلام في الغرب خلال القرن التاسع إلى الثاني عشر (٦٣). وعلى الرغم من التعايش عن قرب مع المسلمين لعدة قرون في إسبانيا، مما يفترض معرفة أفضل، إلا أن واقع الحال يذهب باتجاه مغاير، إلى درجة أن كلود كاهن لم يجد سوى نص واحد عن الإسلام جدير بالذكر، هو نص (أولوج) الذي بدوره لايعتمد على أي نص إسلامي، إنما على مخطوط مجهول يذكر فيه: " إن النبي محمد شارك في اجتماعات.. بدا للأجلاف العرب بمظهر العالم.. تمثلت له روح الظلال في شكل نسر فصيح اللسان ادعى أنه جبريل، بشر بأشياء معقولة ظاهرياً: التخلي عن عبادة الأوثان.. ثم أشهر الحرب على الكفار.. وألف حكاية عن بقرة حمراء، وضفدعة، وعنكبوت، وهدهد، وعن يوسف نفسه وزكريا، ومريم العذراء.. تكهن بانبعاثه بعد موته.. أكل الكلاب جسده، فأمر المسلمون قتلها جميعاً " (٦٤).

يصبح الأمر طبيعياً، في ظل هذا القلب المريع للوقائع، أن يكون الكُتاب الأوائل لأناشيد المآثر على اقتناع بأن المسلمين يعبدون الثالوث: أبولون وماهون ونيرفاجان (٦٤). وخلاصة الأمر، فإن معلومات الغرب عن الإسلام حتى الحروب الصليبية لاتتعدى الإشاعات الشفوية، فلاغرابة بعد ذلك إن وجدنا شخصاً بمنزلة (جربير التوجنتي) لايتمكن من معرفة أي شيء عن النبي محمد (ص) بواسطة ماهو مكتوب. فليس هناك سوى بعض التصورات عن الأنساب، وعن ثياب الرسول وزواجه، وعن معارفه التي أمكنه اكتسابها ــ كما يدَّعون ــ من اتصاله باليهود والمسيحيين، أو أنه مصاب بالصرع، أو أن اليهود شجعوا دعوته بدافع الكراهية للمسيحية، أو انه يتوجه بالعبادة للآلهة فينوس (٦٥).

إذا كان هذا حال أوربا التي هي على تماس مع العالم العربي ــ الإسلامي، وتمتلك قدراً لابأس به من الحضارة، فيحق لنا أن نقول مع كاهن "إن العالم الإسلامي، بصفة عامة، لم يكن له وجود واقعي في أذهان الناس في أوربا الشمالية التي ستخرج منها الحرب الصليبية"(٦٦).

لم تقع أي من الحواضر العربية الكبرى في قبضة الصليبيين الغزاة، وهم حتى عندما احتلوا مدينة طرابلس لم يترددوا في إتلاف مكتبتها العامرة بمئة ألف كتاب. ومع هذا، فالزمن ومايحمله من احتكاك مباشر وغير مباشر، في أتون المجابهات الدموية، وفي مسارات المبادلات التجارية، وماتفرضه قوة الحياة من اقتباس، والرغبة في معرفة العدو كلها ستدفع باتجاه التعرف أكثر بعالم المسلمين، والاقتباس من المظاهر المختلفة للحضارة العربية ــ الإسلامية التي ستفرض نفسها كحضارة أرقى على رجال الغرب الذين ميزوا بين السلوك وأساليب الحياة الحضارية الإسلامية، والعلوم، والتقنية، والذهنيات والتفلسف، العربي الإسلامي، وبين الإسلام كعقيدة ودين، أخذوا في التقليد، والاقتباس من الأول، وظلوا على جهلهم وعدائهم للدين والعقيدة. فحينما بدأت الحروب الصليبية، التي يعتبرها (رنسيمان) بحق من أهم مراحل التاريخ المؤثرة في المدنية الغربية " لم تكن أوربا قد خرجت بعد من مرحلة غارات المتبربرين الطويلة الأمد التي يطلق عليها العصور المظلمة، فلما انتهت كانت براعم مانطلق عليه النهضة الأوربية تأخذ في البزوغ " (٦٧).

في القرن الثاني عشر، قام (بيير ألفونس) بالتعريف ببعض عناصر الإسلام باللغة اللاتينية، وسيناصر بطرس المبجل ترجمة القرآن الكريم، وسيقوم جوفروا الفيتري بإيطاليا بترجمة روايات مختصرة من السيرة النبوية (٦٨).

ونما في هذه الحقبة الاهتمام بالفلسفة والعلم العربي ـ الإسلامي وكان من الطبيعي ـ كما يقول كلود كاهن ـ أن تتعود أوربا على معرفة الفكر العربي-الإسلامي وفقاً للسمات التي اتخذها، هذا الفكر، في الأندلس.

وعلى الرغم من أن المشاغل الفلسفية كانت في البدء من اهتمام المثقفين إلاّ انه كان لابد لتلك المؤلفات الفلسفية من أن تؤدي " في القرون اللاحقة إلى تأثيرات عميقة وعلى نطاق واسع داخل الأوساط التعليمية الجامعية " (٦٩).

لقد أقبل الغرب على المدرسة العربية ـ الإسلامية سواء في الشام أم إسبانيا أو صقلية، وتراث الحضارة الإغريقية نقله العرب مطوَّراً إلى الغرب " وفي الطب والفلك والكيمياء والجغرافية والرياضيات والعمارة استقى الفرنج معارفهم من الكتب العربية التي هضموها وحاكموها وتجاوزوها" (٧٠).

واتسعت معرفتهم بما في العالم العربي من جغرافيا بشرية، وتاريخ، وعلوم مما خلق عندهم نهضة في دراسة القانون والطب والمنطق. وبدؤوا بتكوين نقابات من المدرسين. أسسوا عليها فكرة الجامعة. وهكذا نشأت الجامعات من جامعة باريس إلى أكسفورد وكمبردج بدءاً من القرن الثاني عشر الميلادي.

واتسعت خبرة الصليبيين وثروتهم، ووقفوا على فنون الشرق وصناعته ومافيها من رونق وفن ودقة، والراجح أن المستوى العام للمعيشة في الغرب ـ كما يشير إلى ذلك رنسيمان ـ لم يرتفع إلا بفضل رغبة العساكر والحجاج العائدين، " في أن يلجؤوا في أوطانهم إلى محاكاة ما اشتهر به الشرق من مظاهر الحياة الوادعة " (٧١).

فالتعرف على الحياة العربية قاد إلى إحداث تغير في نمط حياة الأسياد في الغرب. فالفارس الصليبي ـ بعد عودته ـ تستحوذ عليه عادات جديدة ـ كما

يلاحظ ذلك زابوروف ــ فبدل اللباس الخشن المغزول باليد يرتدي الألبسة الشرقية الناعمة الجميلة، ويزين جدران بيته بالسجاجيد، وبدل المرآة البرونزية والفولانية يستعمل مرآة الزجاج، وبدل المائدة القروية يستعمل المطبخ الشرقي بتوابله، مع سلة فاكهة من وراء البحار. واقتبسوا من الشرق العربي الطاحونة الهوائية، وزراعة الرز والبطيخ والمشمش، والليمون، والورد الدمشقي، وقصب السكر، وارتداء العمائم، والحمامات، والألبسة التحتانية والفوقانية. كما نقلوا سمات الأسلوب الشرقي في الهندسة المعمارية. وقد كان جامع الخليفة عمر في القدس النموذج والمثال الأول للهياكل ذات القباب (٧٢). واقتبسوا صناعة الورق والاشتغال بالجلود والنسيج وتقطير الكحول، واستخراج السكر.

ولعل ماصاحب الحقبة الصليبية من حركة سكانية هائلة قد ساهم في تقدم المدينة الأوربية، فعشرات الألوف من البشر تركت قرى ودساكر الغرب، ثم عادت بالمغانم والعادات والسلوكيات الجديدة إلى الغرب، مما خلق حراكاً سكانياً أثر على المدينة والريف، وساهم في تخفيف القيود الإقطاعية، ووسع دائرة الحرفة، وإطار التبادل التجاري، مما قاد إلى نهضة المدينة والحريات البلدية(٧٣).

كل تلك الآثار المجتمعة أطلقت شرارة التقدم في أوربا، مما سيدفع لاحقاً بتلك المجتمعات تدريجياً، ولكن بإصرار، نحو ما هم عليه حالياً.

ب ــ صورة الغرب، تأثيرات الغرب:

إن الإسلام بتسليمه بوجود أهل الكتاب ــ كما يقول الدكتور السيد ــ خطا خطوة واسعة باتجاه اللقاء مع الآخر، وهو مالم تفعله الكنيسة الرومانية حتى مؤتمر الفاتيكان الثاني عام ١٩٦٣(٧٤).

لقد تعايشت الدولة الإسلامية مع مواطنيها المسيحيين من واقع الاعتراف بهم كحملة كتاب توحيدي، تترتب لهم حقوق وعليهم واجبات، وتم

التمييز، في الغالب، بين هؤلاء (المواطنين) وبين الفرنجة والبيزنطيين في وعي جمهرة المثقفين، وفي الوعي الشعبي.

وقد كانت صورة الغرب، الفرنجي والبيزنطي، لدى العرب ـ المسلمين، على الرغم من معلوماتهم الضئيلة، أكثر تفهماً وأقل جهالة عما يملكه الطرف الآخر عن العرب والمسلمين، من هنا يأتي قول كلود كاهن: كان جهل الشرقيين بالغرب، أقل خطورة. وظلت معلوماتهم قبل الحروب الصليبية ضئيلة. فباستثناء بعض التقاليد الاسطورية عن روما، وبعض المعطيات عن شبه الجزيرة الإيطالية، فإن المؤلفات الجغرافية والتاريخية عن الغرب.. لاتتضمن شيئاً آخر غير مانقله القدماء (بطليموس) أو ماكان مصدره رحالة إسباني عربي.. وحتى في عنفوان الحروب الصليبية فإن الكتابين العربيين الوحيدين اللذين يمكن للمهتمين أن ينهلوا منهما معارف عن الغرب هما للإدريسي الذي عاش في ظل النورمانديين بصقلية القرن الثاني عشر، وابن صاعد الأندلسي. وإذا استثنينا ما أورده المسعودي في مختصره (٩٥٠م) فإن أول مؤلف مسلم اهتم بتاريخ الفرنجة هو رشيد الدين وذلك حوالي (١٣٠٠ م) (٧٥).

إن الطابع الإجرامي الدامي لدخول الفرنجة الأرض العربية، والمذابح التي اقترفوها سوف تساهم وحدها في حفر أخدود عميق بين العرب وبينهم لن تفي السنون في ردمه. لذا سيحمل العرب انطباعاً رئيساً عنهم فيه" مزيج من الخشية والاحتقار" وهو حكم له مايسوغ صدوره عن أمة عربية متفوقة جداً بثقافتها وإن كانت فاقدة روحها القتالية في حينه، على حد تعبير (معلوف).

والأمير العربي أسامة بن منقذ، الذي احتكّ مع الصليبيين واختبرهم عن قرب يقول عنهم في كتابه (الاعتبار) " إنهم مثال على جفاء الأخلاق إلا أن منهم قوم تبلدوا (= تكيفوا) وعاشروا المسلمين فهم أصلح من القريبي العهد ببلادهم " (٧٦).

ويطلعنا عن ألعابهم الخشنة البدائية، وعن وحشية محاكماتهم وطرق تحكيمهم الاعتباطية (يحسم المتخاصمون قضاياهم بالقتال، أو الاحتكام بتعذيب الماء) مما يثير استنكاره، ويعلق معلوف قائلاً: " ليس ماهو طبيعي أكثر من هذا الاستنكار الصادر عن الأمير العربي، لأن العدالة أمر خطير في نظر المسلمين في القرن الثاني عشر الميلادي. والقضاة أشخاص محترمون أسمى الاحترام، وهم مضطرون قبل إصدار حكمهم، أن يتبعوا إجراء محدداً ينص عليه القرآن: تحقيق دفاع بينات " (٧٧).

وابن منقذ يختصر حكمه عليهم بالقول: " ان ليس فيهم شيء من النخوة والغيرة وفيهم الشجاعة عظيمة " فهو لايقدر فيهم سوى صفاتهم القتالية، ويدين سلوكياتهم الأخرى.

أما بالنسبة للروايات الشعبية المروية، فيلاحظ كاهن: " إن الروايات التي كانت شائعة بين الناس إبان الحروب الصليبية كانت تستبدل إسم عدو بيزنطي باسم آخر فرنجي.. وستكشف حكايات ألف ليلة وليلة عن شعور معاد للفرنجة كما يستخدمون ملحمة بيبرس للتعبير عن كفاحهم ضد الفرنجة " (٧٨).

ربما لعبت الحروب الصليبية أدواراً مختلفة، تبعاً لموقع كل من طرفي هذه الحرب، فإذا كانت قد أطلقت شرارة التقدم في المدنية الغربية، فهي قد ساهمت عند العرب ــ المسلمين ــ حيث كانت تخاض على ظهرانيهم مترافقة مع الغزو المغولي، في إنهاك جسد الأمة وتدهورها. فقد صارت بمثابة الجرح النازف الذي سيعطل دفق الحياة في جسم الأمة. لم يتورع خلالها الغزاة عن ارتكاب أشنع الجرائم التي ستلطخ جبين الإنسانية الغربية إلى الأبد. فتركوا ذكريات مرة ستلون العلاقة بين الغرب والعرب إلى الآن. وأعاقوا العرب عن أن يردوا بالوقت المناسب على الغزو المغولي المرعب. ففقدوا القدرة على التوازن السياسي والثقافي.

وعندما وضعت الحرب العرب أمام أسوأ الاحتمالات الممكنة كان لابد للأمة أن تنظم نفسها بكل طاقاتها لخدمة هدف واحد يتوقف عليه مصيرها: الجهاد. مما سيدفع إلى تقوية الميول العسكرية التي كانت قائمة سابقاً بالفعل، ومن تقوية دور الجند، وتجديد وتقوية الإقطاع العسكري. فتمت صياغة الدولة والاقتصاد بما يتناسب وفكرة أن الحرب حقيقة دائمة.

لذا سار عماد الدين الزنكي، ومن بعده ابنه نور الدين أبعد في بناء جيوشهم على أساس النظام العسكري، وربط الإقطاع بالخدمة العسكرية، وربط صلاح الدين بين جميع خيوط العلاقات الإقطاعية في شخص السلطان الذي سيصبح بمثابة الإقطاعي على الجميع(٧٩). وماكانت دولة المماليك سوى الاستمرار للدولة الأيوبية في بنائها، ووظيفتها العسكرية وأساسها الاقتصادي، ودورها الجهادي ضد الغزو.

لكن، على الرغم من تبدل الظروف، التي أفرزت الدولة العسكرية مع تصفية العدوان الصليبي، فإنه لم يجر بالمقابل تغير في نمط بناء هذه الدولة، ولامن أسلوب تعاملها مع البلاد والعباد. ففقدت سندها الشرعي بانتفاء الذرائع التي قامت عليها. فتحولت أمام التاريخ والناس إلى قوة غاشمة مفروضة على الجميع بقوة السلاح، حتى إذا صرنا في نهاية القرن الخامس عشر ستكون المدينة العربية الثرية الزاهية قد أُفقرت، فطغى الريف على المدينة، والبداوة على الريف. ولن يشعر العرب حينها بالخسارة عندما يتسلم الأتراك العثمانيون مقاليد أمورهم.

عندما يُوضع وجود الأمة ومصيرها قيد التساؤل التاريخي، تصبح الكلمة العليا حينئذ عند الأمة هي قضية الاحتفاظ بوجودها المادي، وعلى هويتها الثقافية، تلك الهوية الثقافية ستصبح كحبل السرة الوحيد الذي يربطها بالوجود، وكعلامة وحيدة على البقاء. من هنا سيتمركز اهتمام الأمة، ليس على الإبداع والخلق، بل

على كل ما يذكّر بهذه الهوية الثقافية ويكون شاهداً عليها، وسيتركز التأليف العربي على التفسير والتأويل، والشرح على المتون، والتأليف الموسوعي عن تاريخ الأمة للحفاظ على ذاكرتها حية، وسيكون كتاب (الكامل في التاريخ) لإبن الأثير الشاهد الباهر على ذلك. عندها تصبح مسألة معرفة الآخر مسألة ثانوية نافلة، يدعم ذلك شعور بالخصومة الأكيدة ضد هذا الآخر، مضافاً إليه الشعور بالتفوق الحضاري، وهو شعور يعكس الحقيقة الواقعة حينذاك. فالشرقيون كما يقول كاهن: "تمسكوا بفكرة أن أوربا بلد " بربري" لايمكن أن يُقتبس منه أي شيء، وهي فكرة صحيحة.. ومن ثم لانرى ما إذا كان استطاع المسلمون في العصور الوسطى، أن يأخذوا من أوربا باستثناء الجانب العسكري، ويبدو أن رد الفعل كان انطواء دفاعياً على الذات " (٨٠). ونحو التعصب تجاه الغير وتجاه التنوع الداخلي. لكن إذا كان لهذا الشعور مايبرره في حينه، إلاّ إنه مع تقادم الأيام، ودخول الغرب في مراقي التقدم، سيصبح بمثابة قيد على تقدم العرب وعلى معرفتهم لنفسهم وللعالم.

إذا أردنا النظر إلى الحصيلة النهائية للتأثيرات المتبادلة للحروب الصليبية، فإننا نجد الغرب الخاسر عسكرياً من حيث النتائج النهائية، سيكون، بعد عملية الاقتباس من الحضارة العربية، هو الرابح على الأصعدة الأخرى، فلقد كان "العالم العربي في مهد الحروب الصليبية من إسبانيا إلى العراق لايزال فكرياً ومادياً خازن أرقى حضارة على وجه الأرض. ولسوف ينتقل مركز العالم بعدها بعزم وتصميم إلى الغرب " (٨١).

هوامش الحقبة الصليبية:

١ ـ فرناند بروديل، البحر المتوسط، المجال والتاريخ، يوسف شلب الشام، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٩٠ ص١٣١.

٢ ـ راجع: د.سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية. الجزء الأول، طبعة أولى، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٣ ص ٦٣ لغاية ص ٧٠.

٣ ـ أمين معلوف، الحروب الصليبية كما رآها العرب. ترجمة د. عفيف دمشقية، الفارابي، بيروت طبعة ثانية ١٩٩٣، ص ٢٧.

٤ ـ ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية. الدكتور السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، بدون تاريخ. الجزء الأول ص١٠٠.

٥ ـ راجع: د.سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، مرجع سابق، ص١٠٩.

٦ ـ راجع عن الخلاف بين رضوان ودقاق عند الدكتور سهيل زكار، مدخل إلى الحروب الصليبية، دار الأمانة، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٧٢، ص٢٣٣ ـ ٢٣٤. وراجع أمين معلوف، الحروب الصليبية ص٤٣، مصدر سابق.

٧ ـ راجع، ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، مصدر سابق ص١٠٠.

٨ ـ راجع كلود كاهن، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة أحمد الشيخ، سينا للنشر، القاهرة، طبعة أولى، ١٩٩٥ ص٨٦.

٩ ـ د. قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، سلسلة عالم المعرفة، الكويت عدد ١٤٩، ١٩٩٠ ص٥٨.

١٠ ـ هـ. أ. ل. فشر، تاريخ أوربا العصور الوسطى، محمد مصطفى زياده، السيد الباز العريني، دار المعارف بمصر، طبعة رابعة، ١٩٦٦ ص٩٥.

١١ ـ راجع د. نور الدين حاطوم، تاريخ العصور الوسطى، دار الفكر الحديث، لبنان، الجزء الأول، طبعة أولى ١٩٦٧ ص ٨٥٨/٨٥٩.

١٢ ـ راجع. كلود كاهن، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، مصدر سابق، ص٩٤/٩٥.

١٣ ـ يقول جوزيف نسيم يوسف "أما البيزنطيون فلم يكونوا يهدفون إلى غزو أورشليم وتخليص كنيسة القيامة، بقدر ما يهدفون إلى استرداد الأملاك التي اقتطعها من دولتهم السلاجقة،

وخصوصاً انطاكية" انظر: العرب والروم اللاتين في الحرب الصليبية الأولى، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، الطبعة الثانية، بدون تاريخ، ص٧٥.

١٤ ــ د. سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، مصدر سابق، ص٧٥.

١٥ ــ فقد تراءى لأوربا، كما يقول رنسيمان "إن الإمارات الصليبية بالشام لم تقم، فيما يبدو، إلا لتؤلف الجناح الأيسر لحملة صليبية لقتال المسلمين على امتداد البحر المتوسط، أما الجناح الأيمن فكان إسبانيا" انظر: تاريخ الحروب الصليبية، الجزء الثاني، مصدر سابق ص٦٨. راجع أيضاً مخائيل زباروف، الصليبيون في الشرق، ترجمة الياس شاهين، دار التقدم موسكو ١٩٨٦ ص٢٦، حيث يقول: " كانت حروب الفرسان الفرنسيين في إسبانيا حروب صليبية قبل الحروب الصليبية من حيث الشعارات ومن حيث الألبسة والرايات ومن حيث المضمون ".

١٦ ــ كلود كاهن، الشرق والغرب.. مصدر سابق ص٨٢.

١٧ ــ أمين معلوف، الحروب الصليبية.. مصدر سابق ص٧٨.

١٨ ــ المصدر السابق ص١١٢ / ١١٣. راجع أيضاً كلود كاهن ص١١٢.

١٩ ــ مخائيل زابوروف، الصليبيون في الشرق، مصدر سابق ص٣٨. راجع أيضاً عن تفوق العرب الحضاري، ل.ا.ابواللغد. النظام العالمي في القرن الثالث عشر، الاجتهاد. العدد السادس والعشرين والسابع والعشرين السنة الرابعة، بيروت ص٢٢٤.

٢٠ ــ د. سعيد عبد الفتاح عاشور،الحركة الصليبية، جزء ثاني، طبعة أولى، ١٩٦٣. ص٦٠٧.

٢١ ــ راجع للدكتور علي السيد علي محمود، ملامح الجانب العربي الإسلامي في المواجهة ضد الغزو الصليبي، المستقبل العربي عدد ١٠٢، السنة العاشرة، الشهر الثامن ١٩٨٧، ص٤٢.

٢٢ ــ راجع: د. أحمد رمضان أحمد محمد، الصراع المسلح الإسلامي في العصور الوسطى، المصدر السابق، ص٦٧.

٢٣ ــ كلود كاهن، الشرق والغرب... مصدر سابق، ص٢٠٥.

٢٤ ــ المصدر السابق ص١٢١.

٢٥ ــ د. أحمد رمضان أحمد محمد، حول مسائل الصراع المسلح... مصدر سابق ص٧١.

٢٦ ـــ د. قاسم عبده قاسم، الحروب الصليبية في الأدبيات العربية والأوربية واليهودية، المستقبل العربي، المصدر السابق ص١١.

٢٧ ـــ فرناند بروديل، البحر المتوسط، المجال والتاريخ، مصدر سابق ص١٣٤.

٢٨ ـــ المصدر السابق ص١٣٤.

٢٩ ـــ كلود كاهن، الشرق والغرب.. المصدر السابق، ص١٧٦.

٣٠ ـــ المصدر السابق ص١٧٦.

٣١ ـــ د. نور الدين حاطوم، تاريخ العصور الوسطى.. مصدر سابق ص٣٦.

٣٢ ـــ كلود كاهن، الشرق والغرب... مصدر سابق ص٥٩.

٣٣ ـــ ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية... مصدر سابق ص٧١.

٣٤ ـــ كلود كاهن، الشرق والغرب، مصدر سابق ص٦٠. وراجع أيضاً د. عادل زيتون، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب.. مصدر سابق ص١٨٩، حيث يرجع العلاقة بين مصر والبندقية إلى القرن التاسع.

٣٥ ـــ ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، الجزء الثالث، مصدر سابق ص٦٠٨.

٣٦ ـــ كلود كاهن، الشرق والغرب، مصدر سابق ص٦١.

٣٧ ـــ المصدر السابق ص١٧٠.

٣٨ ـــ د. عادل زيتون، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب، مصدر سابق ص٤٣/٤٤.
راجع أيضاً كلود كاهن، الشرق والغرب، مصدر سابق ص٦١/٦٢.

٣٩ ـــ كلود كاهن، الشرق والغرب.. مصدر سابق ص٦٣.

٤٠ ـــ د. قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية... مصدر سابق، ص٢١٦.

٤١ ـــ كلود كاهن، الشرق والغرب.. مصدر سابق ص١٤١.

٤٢ ـــ ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جزء أول، مصدر سابق ص٢٩.

٤٣ ـــ د. قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية / مصدر سابق ص٢١٨.

٤٤ ـــ أمين معلوف، الحروب الصليبية.. مصدر سابق ص٢٣٣.

٤٥ ـــ كلود كاهن، الشرق والغرب، مصدر سابق ص١٤١.

٤٦ ـــ ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، الجزء الثالث، مصدر سابق ص٦٠٢ / ٦٠٦.

٤٧ ــ د. عادل زيتون، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب.. مصدر سابق ص١٧٧.

٤٨ ــ د. عادل زيتون، المصدر السابق ص١٩٠.

٤٩ ــ كلود كاهن، الشرق والغرب... مصدر سابق ص١٨٩.

٥٠ ــ مخائيل زابوروف، الصليبيون في الشرق.. مصدر سابق، ص١٤٩.

٥١ ــ كلود كاهن، الشرق والغرب.. مصدر سابق، ص١٧١.

٥٢ ــ د. عادل زيتون، العلاقات الاقتصادية.. مصدر سابق، ص٤٧.

٥٣ ــ د. نور الدين حاطوم، تاريخ العصور الوسطى، مصدر سابق، ص١٠٨. وراجع كلود كاهن حيث يقول: "كانت أوربا بما فيها إسبانيا المسلمة قبل القرن العاشر لاتعرف من السك المحلي للنقود إلا الفضة" الشرق والغرب، مصدر سابق، ص١٧٨.

٥٤ ــ كلود كاهن، مصدر سابق، ص١٧٨.

٥٥ ــ د. عادل زيتون، العلاقات الاقتصادية.. مصدر سابق، ص١٨٠.

٥٦ ــ ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، الجزء الثالث، مصدر سابق، ص٦١٩.

٥٧ ــ كلود كاهن، الشرق والغرب.. مصدر سابق، ص١٨٠.

٥٨ ــ كلود كاهن، المصدر السابق ص١٨٠.

٥٩ ــ ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، الجزء الثالث، مصدر سابق، ص٦١٨.

٦٠ ــ د. عادل زيتون، العلاقات الاقتصادية.. مصدر سابق، ص٤٨.

٦١ ــ كلود كاهن، الشرق والغرب.. مصدر سابق، ص١٨٠.

٦٢ ــ د. سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، الجزء الأول، مصدر سابق، ص٤٩٠.

٦٣ ــ د.رضوان السيد، الإسلام المعاصر نظرات في الحاضر والمستقبل، دار العلوم العربية، بيروت ١٩٨٦، ص١٠١.

٦٤ ــ راجع كلود كاهن، الشرق والغرب... مصدر سابق ص٩٦.

٦٥ ــ كلود كاهن، المصدر السابق ص٦٦/٦٧.

٦٦ ــ المصدر السابق ص٧٠.

٦٧ ــ ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جزء ثالث، مصدر سابق، ص٧٨٢.

٦٨ ــ كلود كاهن، الشرق والغرب.. مصدر سابق، ص١٤٩.

٦٩ ــ المصدر السابق ١٤٨.

٧٠ ــ أمين معلوف، الحروب الصليبية، مصدر سابق، ص٢٦٠.

٧١ ــ ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جزء ثالث، مصدر سابق ص٧٨٣.

٧٢ ــ مخائيل زابوروف، الصليبيون في الشرق، مصدر سابق، ص٣٣١.

٧٣ ــ هــ. أ. ل. فشر، تاريخ أوربا العصور الوسطى، مصدر سابق، ص٢٢٢.

٧٤ ــ د. رضوان السيد، الإسلام المعاصر.. مصدر سابق ص١٠١.

٧٥ ــ كلود كاهن، الشرق والغرب.. مصدر سابق، ص٧١.

٧٦ ــ أمين معلوف، الحروب الصليبية.. مصدر سابق، ص١٦٨.

٧٧ ــ المصدر السابق، ص١٧٠.

٧٨ ــ كلود كاهن، الشرق والغرب.. مصدر سابق، ص١٥٠.

٧٩ ــ د. قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، مصدر سابق، ص١٩٦.

٨٠ ــ كلود كاهن، الشرق والغرب.. مصدر سابق، ص٦٥.

٨١ ــ أمين معلوف، الحروب الصليبية.. مصدر سابق، ص٣٢٣.

الفصل الثاني

الإسلام والغرب
على عتبات العصر الحديث
القرن (١٣ ـ ١٥)
سياسة القوة

١ ــ من امتصاص الضربة الصليبية ــ المغولية إلى الحدث العثماني:

لم يرم أي من الطرفين سلاحه،فبعد خروج آخر صليبي من عكا (١٢٩١)، ظل كل شيء يُنذر بأن حقبة جديدة من الصراع تطلّ في الأفق، فالعالم لايزال، مثلما هو اليوم بعيداً، عن أن تقيم فيه الحضارات والأديان علاقاتها مثل أشخاص مهذبين على مركب واحد.

نعم، لقد خسر الفرنجة معركتهم الكبرى على حافة المتوسط الشرقية، وخسروا معها مراهناتهم على تحالف مسيحي ــ مغولي؛ لكنهم لم يتوقفوا عن التقدم في صقلية، أو في شبه الجزيرة الأيبيرية، وبالمقابل، فالمعارك على خطوط تماس الأناضول، وقد أسس عثمان بن أرطغرل إمارته في (١٢٩٩)، ستلتهب بنيران لا تهدأ لقرون.

على الرغم من الخراب المدمّر، الذي لامثيل له والذي أورثه الغزو المغولي: حملات (جنكيز خان) في دولة خوارزمشاه (١٢٢٠ ــ ١٢٢١)، حملات (باتو) في الغرب (١٢٣١ــ ١٢٤١)،و(هولاكو) على بغداد (١٢٥٨)، إلاّ إن الإسلام، بالنهاية، امتص الضربة وأسر الغالب. حاول المسيحيون جذب المغول، ثم التحالف معهم، ضد الإسلام، في النهاية أخفقوا. ممثل البابا (أنوسنت الرابع) الفرنسيسكاني (جوفاني دي كاربيني) زار (قراقورم) عاصمة المغول عام (١٢٤٥ ــ ١٢٤٧)، أيضاً زارها عام (١٢٥٣ ــ ١٢٥٥) ممثل لويس التاسع ملك فرنسا و"كانت الفكرة من هاتين البعثتين احتمال قيام تحالف مغولي ــ أوربي مع إمكان اعتناق المغول المسيحية، لكن لم يكن لهذه المحاولات نتائج في أي من القضيتين، وفي النهاية اعتنق المغول

الإسلام"(١) ولم تُثمر أيضاً رحلة (ماركو بولو) الأكثر شهرة عام (١٢٧٥ ـ ١٢٩٢) عند (قوبلاي خان) (٢).

غمرت الموجة المغولية بلاد الإسلام، في القرن الثالث عشر، وما انحسرت إلاّ وتركت وراءها الدمار والخواء في كل مكان، مزيلة معالم المدنية الإسلامية، ومدنها الزاخرة، وزادت الظواهر والميول التي أبرزها الغزو الصليبي قوة: تراجع الحياة المدنية، واتساع البداوة على حساب الحضر، والتفكك (٣). وستدفع باتجاه اختلاطات سكانية هائلة: من أطراف (الصين) حتى غرب (الأناضول) والبحر الأسود، إلى شمال العراق، وإيران، وبحر الخزر، وخوارزم والهند، مع إبراز دور العنصر التركي ـ المغولي في أحداث التاريخ الإسلامي. وستتأكد، منذ ذلك الحين، تدريجياً التنوعات اللغوية والأثنية للأمم الإسلامية " وكانت إحدى نتائج الهجرات التركية، وغزوات المغول أن توضّح انقسام الأقطار الإسلامية إلى مناطق لغوية عربية وفارسية وتركية منفصلة، يقتصر الاتصال الأدبي فيها على دوائر محدودة من المثقفين" (٤) وإن بقيت اللغة العربية لغة الثقافة للمسلمين عامة.

على الرغم من كل النتائج السلبية لغزوات المغول، إلاّ إنه يمكن القول، إذا أخذنا الأمر من زاوية أخرى، فإن مجيء المغول ـ تماشياً مع رأي توينبي ـ يعتبر عنصر تقوية وليس عنصر إضعاف للقوى السياسية والعسكرية للإسلام، وإن لعب على صعيد الثقافة والمدنية دور إضعاف.

أحفاد جنكيز خان في الدول الثلاث التي تفرعت عن بيته الملكي اعتنقوا الإسلام: القبيلة الذهبية في النصف الغربي من السهوب الأوراسية عام ١٣١٣، والإيلخانيون في إيران والعراق عام ١٢٩٥، و(التشاغانيون) فيما وراء النهر عام ١٣٢٦(٥).

امتص العالم العربي ـ الإسلامي الصدمة، وانقشعت محنة الحصار بين المغول والصليبيين التي واجهها في بداية القرن الثالث عشر " فما أن دنا

آخر القرن حتى تغير الحال وأصبح عزيز الجانب"(٦) بعد نصف قرن من الدمار المروع الذي أحدثوه في بغداد، سيكرس خلفاء هولاكو وقتهم لإحياء معالم الثقافة الإسلامية.

كان اعتلاء (غازان) العرش في (١٢٩٥) في (تبريز) نقطة فاصلة في تاريخ الدولة المغولية (الإيلخانية)، لأنه حالما اعتلى العرش أعلن اعتناقه للديانة الإسلامية رسمياً " واختار أهل السنة وهذا هو المذهب الذي يعتنقه جميع أفراد الشعب تقريباً، ومع ذلك فقد عامل الشيعة بتسامح"(٧) إلاَّ أن هذا لم يخفف حدة صراع الهيمنة مع المماليك، وقد يكون هذا وراء تشيّع أخيه "أولجاتيو"، الذي انقلب إلى المذهب الشيعي بعد تتويجه خلفاً لأخيه (١٣١٠)، فازداد عدد الشيعة في (إيران)، ومن حينها " لم تعد مابين النهرين العربية والخاضعة لمغول إيران سوى منطقة عازلة أصابها الدمار.. وتم استقطاب العالم الإسلامي في المشرق حول بعض الحواجز في شمال غرب إيران من جهة وحول سوريا ثم القاهرة من جهة ثانية " (٨).

وبالإضافة إلى ماتم إنجازه منذ العهد الأموي، من تحويل حوض السند الأدنى، والملتان إلى الإسلام، ومد السلطان (محمود الغزنوي) للحدود حتى (لاهور) التي أصبحت في عهد الغزنويين قاعدة أمامية للثقافة الإسلامية في الهند،ثم أن ضم الجزء الإسلامي في حوض السند والملتان؛ سيجعل الغوريون من هذا مقدمة لفتح ماتبقى من شمال الهند، وسيؤسسون في القرن الثالث عشر، أثناء الاضطرابات في المشرق العربي، سلطة دلهي (١٢٠٦ ــ ١٥٥٥) وستؤول الهند كلها لأول مرة لقبول الحكم الإسلامي إلى حد ما (٩).

سيضع الغزو المغولي، بقيادة (باتو) حداً للتوسع الروسي جنوباً أو في الاتجاه الجنوبي ــ الشرقي، ذلك التوسع الذي بدأه الروس منذ القرنين الحادي

عشر والثاني عشر، فتحولت بذلك حركة التوسع باتجاه آخر، إلى الشمال والشمال الشرقي. وقد فرض المغول سلطتهم على الإمارات الروسية، فأظهر أمراء (موسكو) من الطاعة والولاء إلى الدرجة التي اعتمدهم فيها خانات الفولغا كجباة للضرائب والجزية بين إمارات (روسيا).

وطوّر هؤلاء (الخانات) علاقاتهم مع مصر، فأمدوا المماليك من قاعدة الفولغا وسواحل البحر الأسود بالعبيد / الجنود، ومن (مصر) كانت ترد إليهم البضائع: المنسوجات الناعمة الجميلة، والفواكه المختارة، والعطور النادرة، والحيوانات الغريبة، وأيضاً الصُنّاع الحرفيين، وعلماء الدين الذين كان لنشاطهم آثارٌ هامة في تطور مغول روسيا، فتوطدت هيمنة الثقافة الإسلامية على الشعوب المغولية على ضفاف الفولغا وتحولت (بركا) والمغول إلى الإسلام بطريقة سلمية (١٠).

وظل الإسلام يتقدم عن طريق الاتصالات السلمية: التجارة وتأثير الطرق الصوفية، ويذكر (الفضل شلق) بحق: إن العرب رغم خسارتهم السلطة السياسية ظلوا " ينشرون الإسلام في آسيا: أندونيسيا وسنغافورا وغيرها، وفي إفريقيا السوداء حصيلة التجارة، وأصحاب الطرق الصوفية، والدعاية الدينية " (١١).

فقط، على جبهة الأندلس، ومنذ القرن الثالث عشر، بدأ يتآكل الوجود العربي تدريجياً. أما في قلب العالم الإسلامي، في مصر والشام والحجاز، فسيرث المماليك سلطة الأيوبيين نحو مئتين وسبعين سنة من ١٢٥٠ لغاية ١٥١٧. ومع أنهم كانوا أقل ثقافة، إلاّ أنهم تركوا المجتمع الأهلي يعبر عن نفسه ثقافياً، استمراراً لجدل العلاقة بين الجماعة والسلطان التي تميّز التجربة العربية – الإسلامية.

احتفظ العرب بمكانتهم في مجال علم الفلك، والرياضيات ومنها علم المثلثات، وعلوم الطب ولاسيما طب العيون، يشهد على ذلك انتشار (البيمارستانات) التي بناها (قلاوون) في مصر والشام. وإنجاز أبي الحسن علي ابن النفيس وما قدمه من صورة واضحة عن الدورة الدموية الصغرى قبل سرفيتس البرتغالي بثلاثة قرون، ومثله أبو بكر بن المنذر البيطار في البيطرة (١٢). ولابد من ذكر أحمد بن تيمية (١٢٦٣ ــ ١٣٢٨) الدمشقي في علم الفقه، وابن خلكان (١٢١١ ــ ١٢٨٢) في موضوع السِيَر، وسيستمر نشاط المصنفات التاريخية الموسوعية، أبو الفداء، وابن تغري بردي، والمقريزي، وسيشهد هذا العصر مأثرة ابن خلدون الخالدة (المقدمة)، التي لا تضاهيها سوى (ألف ليلة وليلة) في المجال الإبداعي، التي تعتبر أجمل أثر أدبي ابتكره الخيال البشري، وهي تقف مع مقدمة ابن خلدون في ذرا الأعمال الفكرية لهذه الحقبة. وشهد هذا العصر انتشار سيرة عنترة، والظاهر بيبرس، بالإضافة إلى مقامات الحريري.

وسيكرس المماليك عنايتهم بالفن والعمارة، وربما كان نشاطهم الأكثر إثارة وأصالة ــ كما يقول كاهن ــ إنما كان في ميدان الفنون: الأضرحة والمساجد والمدارس والقصور (١٣) فجعلوا من القاهرة إلى اليوم ــ كما يقول حتي ــ أجمل البقاع في العالم الإسلامي.

ولأن الظاهر بيبرس، أول المماليك العظام، كان حريصاً على اكتساب الشرعية المرجوة، فإنه أعاد تجديد بناء الخلافة العباسية التي ضاعت بدمار بغداد. فاستقدم عم المستعصم، آخر خلفاء بني العباس وابن الخليفة الظاهر، ونصبه خليفة في القاهرة متخذاً له لقب المستنصر. الذي " سيتسلم وثائق التسليم من حكام الهند والسلطان بايزيد سلطان العثمانيين " (١٤).

حمى المماليك أرض الشام ومصر من الغزو المغولي، وهزموهم في (عين جالوت)، وردوا غزوة (تيمورلنك) البربرية في فاتحة القرن الخامس عشر، إلاّ أنهم لاحقاً، وخاصة على الصعيد السياسي ــ العسكري، وفي إدارة الدولة، سينكشف عجزهم في القرن الخامس عشر في حقبة (المماليك البرجية) في ضبط وحماية الداخل، وفي ردع الخارج، مما سيترك فراغاً في السلطة والقوة والشرعية سيملؤه العثمانيون لاحقاً.

ورغم ذلك، فقد كانوا حتى نهاية القرن الرابع عشر قوة هيابة رادعة بالنسبة للغرب. فإذا كانت (أبو لغد) قد اعتبرت الفترة (١٢٥٠ ــ ١٣٥٠) بمثابة " لحظة مثلت توازناً دقيقاً بين الشرق والغرب، وكانت احتمالات اختلاله لصالح أحد القطبين متعادلة " (١٥) فإن (هــ.جــ.ويلز) لايتردد في القول: " إذا حكمنا استنتاجاً من الخريطة قلنا: إن القرون الثلاثة منذ بداية القرن الثالث عشر حتى نهاية القرن الخامس عشر كانت عصر تراجع بالنسبة للمسيحية" (١٦).

إذا نظرنا إلى الأمر من زاوية تطور الثقافة الإسلامية، فإننا سنجد شواهد حية على استمرار ازدهار هذه الثقافة، رغم انحطاط الحياة المدنية ــ والسياسية، إذ إن الاستقلال النسبي للجماعة الإسلامية، وبالتالي ثقافة المجتمع الأهلي عن السلطان هو القانون الذي حكم الجدل بينهما (١٧).

إن أردنا تتبع المسبقات التاريخية قليلاً، فإننا نجد، ومنذ عصر (المأمون) على الخصوص، بروز نوع من التقليد الاجتماعي ــ التاريخي واضح المعالم، عندما فشل (المأمون)، اعتماداً على قوة (الدولة ــ الخلافة) التي يترأسها، في تحويل مبدأ (المعتزلة)، الذي جعله (مذهباً للدولة-الخلافة) إلى دين للجماعة. انتهى الصراع بانتصار الجماعة ــ السنة. تلك النتيجة " كانت برهاناً قاطعاً على استقلال النظام الديني الإسلامي عن الخلافة، وغيرها

من المؤسسات السياسية، وعلى أن الحكام السياسيين لايستطيعون الإشراف على مصادر سلطان الدين، لأنها ملك الجماعة، ولاعلاقة لأحد بها. وإن الخلافة ذاتها نابعة من ذلك السلطان وإنها رمز سياسي له "(١٨).

سيظهر الانقسام بين النظام الديني والنظام السياسي، حيث تُرِك النظام الثاني حراً في تطوره دون أن يكون للنظام الديني سوى سيطرة ضئيلة نسبياً عليه (١٩). وإن هذه الحقيقة ستجعل، التطور التلقائي النسبي يحكم الحياة الثقافية بجوانبها الدينية والأدبية والفكرية.

في مرحلة سيادة (السلطنة) البويهية ـــ الشيعية، سيزداد التأكيد في الوعي والممارسة، على هذا الاستقلال النسبي للسير الثقافي ـــ الديني وسيقوى التأكيد على حياة الجماعة مقابل حياة الدولة ـــ السلطان، وتصبح الخلافة رمزاً للجماعة بعد أن فقدت فعلها السياسي. أو كما يعبر عن ذلك (شلق): " صارت رمزاً دينياً عندما فقدت سلطتها الفعلية "(٢٠).

الشافعيون، ومنذ السنوات الأولى للقرن الحادي عشر، نظموا المدارس السنية محاكاة منهم لمراكز الدعوة التي أسسها الفاطميون. ولتحرير الخلافة من سيطرة الشيعة جرى التحالف مع السلاجقة، بمباركة من الخليفة رسمياً، فتوثقت من جديد الروابط بين الهيئة الحاكمة والنظام الديني ـــ الثقافي.

الوزير السلجوقي العظيم (نظام الملك) أسس (المدرسة) إلى جانب المسجد، كحاضنة لتعميم العلم والثقافة وتقنينهما، بعد أن كان المسجد إلى عهده يقوم بهذا الدور لوحده. (المدرسة) أصبحت مركزاً لتوحيد التعليم العالي ولتنظيمه، ولتدريب فئات جديدة من رجال الإدارة والموظفين. ستنتشر المدرسة (النظامية) في كل مكان ومعها العلم والثقافة (٢١) وبالإضافة إلى هذا، أعاد (نظام الملك) ترتيب نوع من النظام الإقطاعي حقق فيه دمج المؤسسة العسكرية وهيئة الموظفين

بطبقة الملاك، محاولاً، بكلا الإجرائين السابقين، ربط النظام الديني بالدولة عن طريق تخريج النخب الجديدة من المدرسة (النظامية)، وتوثيق صلة الجند بالأرض عن طريق الإقطاع العسكري. وعن طريق هذا الربط، يستطيع النظام الديني أن يكسب الهيئة الحاكمة، وهو يسعى لإعادة الوحدة، إذ علينا أن لاننسى ـــ كما يذكّرنا جب ـــ إن تجربة الانبعاث السني: النظام الديني والثقافي، كانت حركة عامدة محكمة ضد تجربة الفصل بين النظام الديني والهيئة الحاكمة خلال فترة الدولة الشيعية (٢٢). إلاّ أن هذا الفصل سيأخذ شكله الجديد، ويتمفصل بشكل أوضح لإبعاد التناحر بين السلطة والشريعة بتحديد مجال مناسب لكل منهما لاينفصمان فيه نهائياً ولايستغرقان في بعضهما أو يندمجان بشكل قسري، وذلك بتأسيس (السلطنة) لتكون أداة للإدارة السياسية والعسكرية، تقوم إلى جانب الخلافة. وإن كانت السلطنة من الناحية النظرية تخضع للخلافة التي تقوم على رأس النظام الديني. وتأكيد هذه الثنائية ربما كان الغرض منه هو حفظ الاستقلال للنظام الديني ـــ الثقافي في وجه الأمراء، ثم الإبقاء في الوقت نفسه على وحدة الجماعة فيجد كل طرف من مصلحته تأييد الآخر " فالملك والدين توءمان" (٢٣) وكان من آثار هذه المدرسة ومن هذه النهضة الثقافية التي رعتها تلك المدرسة، أن ظلت فعاليتها مستمرة في دار الإسلام لعدة قرون.

ورث نور الدين الزنكي هذا النظام: المدرسة كحاضن للثقافة والعلم، والإقطاع العسكري كنظام لإدارة الأرض الزراعية، في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) وحافظ عليه صلاح الدين الأيوبي وخلفاؤه في مصر والشام، إبان فترة المواجهة مع الفرنجة. بنى (نور الدين) مدارس للشافعية والحنفية في دمشق وحلب، وغيرها. ثم عني، من بعده (صلاح الدين) عناية خاصة ببناء المدارس الأيوبية مثل الناصرية، والقمحية، والسيفية ...(٢٤).

الحالة الثقافية نفسها سيُعايشها المغرب العربي، حيث شكلت هذه الحقبة بالنسبة للمغرب " ذروة ثقافية، ذلك أن جميع أجزائه شاركت فيها لأول مرة.. فبفعل الدعاية السنية المضادة التي عكست نفسها ضد الفاطميين.. تمت بادئ ذي بدء في بلاد السلاجقة ثم تبناها المرينيون فكانت لفاس وتلمسان وتونس مدارسها العظيمة، ومازال بعضها موجوداً حتى الآن.. ستتوَّج في القرن الثالث عشر والرابع عشر بتفتح ثقافي " (٢٥) على الرغم من الضعف السياسي.

ستترافق ظاهرة الانبعاث الثقافي، التي بدأت بشكل لافت منذ القرن الحادي عشر، مع اندياح القبائل البدوية في الإتجاهات المختلفة. القبائل التركية غمرت شرق فارس وامتدت إلى العراق والشام (شمال سوريا)، وقبائل عربية اجتازت الشام ومصر وشمال إفريقيا، يصاحبها تدهور سياسي واقتصادي، وانحسار تدريجي للحياة المدنية وحياة الحضر، مما يهدد منابع الثقافة. "هكذا ففي الوقت الذي نجح فيه النظام السني في تنسيق ثقافة الإسلام المدينية تحت لوائه، كانت هذه الثقافة تنكمش بسبب توسع البدو.. في هذه الأثناء بدأ زعماء السنة يدركون ما لدعوة الانبعاث الديني، التي يتزعمها الصوفية، من قيمة بين عامة أهل المدن وفي الأرياف"(٢٦).

الظروف القاهرة أدت إلى التساهل، والإمام الغزالي سيوفق بين الشريعة والتصوف، بتركه حيّزاً مشروعاً للتجربة الصوفية المنضبطة بأحكام الشريعة. والمدارس الصوفية ستتكاثر، تخرج المريدين، وستصبح مراكز جديدة للفقه، وللتأثير الروحي على العامة. وأخذ شيوخهم يجوبون العالم الإسلامي يحملون بذور التبادل الثقافي والديني. الطرق الصوفية الكبرى: الشاذلية، القادرية، السهروردية، ستسهم في الحفاظ على الوحدة الثقافية للمسلمين، أثناء مصائبهم الكبرى السياسية والمدينية. استطاع المسلمون

التوفيق، أو التعايش بين الانحطاط السياسي، واستمرار حيويتهم الثقافية، بين عملية التشظي السياسي، وحالة الازدهار الثقافي(٢٧).

بعد أن هدأ ضجيج الخراب المغولي ـ الصليبي، في القرن الثالث عشر، وهي الفترة التي تشهد تمزق ديار الإسلام والعرب، وإفقارهم المدني، " لم تحافظ هذه الحضارة على تماسكها الداخلي فحسب، بل حققت تقدماً أيضاً على نطاق عالمي، على نحو أكثر إثارة حتى من الفتوحات العربية التي تمت في القرنين السابع والثامن الميلادي.. العلماء والأولياء والقديسون والمتصوفون الذين طوروا بدءاً من القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) مجموعة كاملة من الشعائر والتعاليم، والنظم القانونية، والأعراف الاجتماعية، والتقاليد الروحية، وأشكال الطاعة، والحساسية الجمالية، وأساليب الدراسة، ومدارس الفلسفة، التي ركزت وبنت لبَّ وجوهر الحضارة الإسلامية.

ونظراً لأهمية وحيوية هذا الجوهر كانت الحضارة الإسلامية قادرة على البقاء، وحتى التوسع وسط مختلف التقادير السياسية " (٢٨).

وكانت علاقة العلماء (القضاة، المفسرين، رواة الحديث، أئمة المساجد، الوعاظ...) والصوفية بالجماعة وجمهور العامة، أقوى من علاقة الحكام بهم. وكان من أهم تطورات القرن الثالث عشر انتشار العديد من الطرق الصوفية كتعبير عن الإسلام والهوية الاجتماعية، كما يقول لابيدوس (٢٩).

ومن الملفت للنظر، كما يقول ريتشارد دايتون: " إن المذاهب والنماذج الصوفية الشهيرة ظهرت في القرن الثالث عشر والرابع عشر، أي في الفترة التي كانت قد تحطمت فيها الوحدة السياسية للمجتمع " (٣٠).

غدت (ديار الإسلام) بحق، نظاماً عالمياً يرتوي من ثقافة واحدة، يتكلم مثقفوها بلغة واحدة: لغة القرآن، فابن بطوطة المغربي رجل العالمية

الإسلامية، الذي قضى في رحلاته ثلاثين عاماً في النصف الثاني للقرن الرابع عشر، عبر قارتي آسيا وإفريقيا: " في كل مكان يرحل إليه كان يجد تجاراً مثقفين، علماء، وصوفية، وأمراء، يتحدث إليهم بالعربية في موضوعات تمتد من التصوف إلى الفقه.. وتغصّ فصول كتابه كله بتقارير بلهجة واثقة، تشي بالوحدة الثقافية لدار الإسلام من إسبانيا إلى الصين، ويستطيع التوقع في أن يجد منصباً ضمن الجماعة الإسلامية " (٣١).

في فارس والأناضول، بعد انهيار الحكم المغولي، وانهيار السلطات الحاكمة واجتياح البدو، كان من الطبيعي أن يكون التصوف قاعدة التضامن لمواجهة ظلم الطغاة، وتحولت تلك التضامنات في ظروف الخطر الخارجي إلى عصبة مجاهدة في " سبيل الله ".. فكنت تجد أهل الحرف في مدن الأناضول ينتظمون في نقابات من النوع " الآخي "، ومعظم الإمارات الصغيرة بمثابة " دول مجاهدة " نذرت نفسها لمحاربة " *ديار الكفر*". في هذه الحال، يصبح من الطبيعي ومن غير المستغرب، أن نجد " أن واحدة من الامبراطوريتين اللتين ظلتا تقتسمان غرب آسيا فيما بينهما حتى القرن العشرين، أعني الامبراطورية العثمانية كانت في الابتداء "دولة مجاهدين" وأن شيوخ من فروع الطريقة السهروردية هم الذين أوجدوا الامبراطورية الأخرى المنافسة للعثمانية وهي الدولة الصفوية في فارس " (٣٢). هاتان الدولتان ستلعبان دوريّ اللاعب الأول، مع اختلاف مضمون دور كل منهما، في " مغامرة الإسلام الكبرى " في القرون اللاحقة.

٢ ـــ ظهور الحدث العثماني:

وحدهم العثمانيون في ظل أوضاع التمزق والتراجع السياسيين، وفي قلب المجابهة الكبرى حول مصير الإسلام، سيقلبون نهج التراجع التكتيكي،

أو نهج الدفاع الاستراتيجي الذي انتهجه المسلمون إلى سياسة الهجوم الاستراتيجي الشامل، ناقلين بذلك المعركة إلى قلب أوربا.

سيكون ابن خلدون أول كاتب عربي أشار إلى إمارة بني عثمان، وأدرك إمكاناتها "كانت إمارة متحفزة للدفاع والهجوم، إمارة غزاة كونت لنفسها سجلاً حافلاً من روايات البطولة، واجتذبت إليها أعداداً من المتحمسين لنصرة الدين والجهاد"(٣٣).

هنا في الأناضول، على الحدود الفاصلة بين (دار الإسلام)، وأوربا المسيحية ستأتي الأفعال كأجوبة على الأسئلة المصيرية التي طرحتها أوضاع القرن الثالث عشر والرابع عشر، والتي يمكن اختزالها بسؤال واحد: لمن الغلبة؟

لقد نهضت إمارة آل عثمان في حقبة من الزمان، هي أشدّ الحقب سوءاً على العرب والمسلمين. في الشرق تهاوت الرؤوس، والمدن والعروش، وفي أقصى غرب العالم العربي ــ الإسلامي: في الأندلس هزيمة " وقعة العقاب" وما سيترتب عليها من تقهقر وانحسار دائمين للوجود العربي في شبه الجزيرة الإيبيرية. وسادت في العالم الإسلامي، في هذه الفترة، أنظمة للحكم سيطر عليها المماليك، وهم جماعة من العسكريين الدخلاء، أكثرهم من أصل تركي، جعلوا من أنفسهم أسياداً على شعوب غريبة عنهم (٣٤)، والإقطاع العسكري السلجوقي الذي قام بوظيفة ربط الأرض بالدولة والذي تحول في زمن نور الدين الزنكي، وصلاح الدين، وبداية العصر المملوكي إلى نوع من الفروسية العربية ــ الإسلامية تمنحه ملكية الأرض قاعدة مادية مضمونة؛ سيتحول ذلك الإقطاع إلى أداة مرعبة لضبط وإرهاب المجتمع، ووسيلة مناسبة لنهب الداخل وإفقاره في الوقت الذي ضعف فيه عن مواجهة الخارج (٣٥).

لذا، لما خرج العثمانيون على سطح أحداث التاريخ تعلقت بهم آمال المسلمين جميعاً، هؤلاء العثمانيون الذين بدؤوا دولتهم "كولاية لمحاربي تخوم، بحيث جذبت المتطوعين، وهي الأكثر قرباً إلى بيزنطة، فكان فيها أفضل الفرص للحروب المقدسة"(٣٦).

منذ دخول (أرطغرل) آسيا الصغرى هرباً، تحت دفع أمواج القطعان المغولية سيقطعه السلطان السلجوقي علاء الدين إمارة على حدود بيزنطة، عربوناً لنصرته له، وسيحول ابنه عثمان مؤسس الإمبراطورية العثمانية، الذي أخضع حكمه لمشورة الفقهاء، سيحول تلك الإمارة إلى نقطة ارتكاز للتوسع على حساب بيزنطة (٣٧) أكسبهم موقعهم قبالة المدن اليونانية الثلاث بروصه، وبيكوميديا (ازميت)، نيقيه (ارنك) موقفاً هجومياً. احتلوا بروصة ١٣٢٦، نيقيه ١٣٣١، وازميت ١٣٣٧، ولما استولوا على موطيء قدم لهم على الشاطئ الأوربي (غليبولي) ١٣٥٣ تحكموا بعقدة المواصلات البحرية بين الأناضول وتراقيه، فكان الظهور العثماني بمثاية الحدث الأعظم في الشرق المتوسطي خلال القرن الرابع عشر.

يرجع أول هجوم جدي على القسطنطينية إلى عام ١٣٣٧ بعد الاستيلاء على بروصه ١٣٢٦، أما وقد فشلت هذه المحاولة فإن الأتراك سيبدأون بحركة التفاف واسعة النطاق حولها، داخل أوربا براً، تشبه من وجوه مختلفة حركة التفاف البرتغاليين حول إفريقيا إلى بحر العرب نحو الهند بعد أكثر من قرن ونصف، لتطويق ديار العرب والمسلمين. حركة الالتفاف العثمانية هذه دفعت (البابا) أن يرسل النداء تلو النداء لملوك الغرب للقيام بحملة صليبية جديدة؛ وحدهم الايبيريون: الإسبان، والبرتغاليون سيستجيبون لتلك النداءات فعلياً، لكنهم بدلاً من الذهاب لملاقاة المسلمين بعيداً شرقاً فضلوا، في البداية،

الهجوم على مواقعهم في الأندلس القريبة، وحيث لم يعد المرينيون من عام ١٣٤٠ يستطيعون التدخل عسكرياً في إسبانيا (٣٨).

تابع أخلاف عثمان (١٢٩٩ ــ ١٣٢٦) غاراتهم على شرق أوربا، فاستولوا على أدرنة، وجعلوها حاضرتهم في أوربا عام (١٣٦١) قاطعين بذلك الطريق بين القسطنطينية وماخلّف أدرنة من بلاد البلقان، وعازلينها عن الأمم السلافية ــ الأرثوذكسية التي قد تجد فيها السند والحليف (٣٩).

تحت قيادة السلطان مراد الأول (١٣٥٩ ــ ١٣٨٩) سيتغلبون عام ١٣٨٩ على تحالف دول البلقان في معركة (قوصوه) الشهيرة محتلين بلغاريا وقسم من صربيا والبوسنة وقسم من هنغاريا، وعندما تداعت الجيوش الغربية، تلبية لنداء البابا وإنجاداً لــ(سيجسموند) ملك المجر، سيهزمهم بايزيد الأول (١٣٨٩ ــ ١٤٠٢) في (نيقوبولس) عام ١٣٩٦، وسيرسل الوفود والهدايا والعبيد الأسرى المسيحيين إلى القاهرة، وبغداد، وتبريز، ومكة، وسينال من الخليفة المتوكل لقب سلطان الروم(٤٠) وساعد العثمانيين، في ذلك النصر، تقديمُ أنفسهم كحماة للحرية الدينية للأرثوذكس المضطهدين من قبل سادتهم الكاثوليك (٤١).

النكسة أمام (تيمورلنك) المغولي في أنقرة ١٤٠٢، لن توقف طويلاً تقدمهم، بعد حين سيعيد السلطان محمد شلبي (١٤٠٣ - ١٤١٣) القوة والمكانة، بما اتخذه من تدابير. وسيأخذون عن أوربا في هذه الفترة، استعمال الأسلحة النارية ١٤٢٠، وفي عام ١٤٤٤ سيستطيع مراد الثاني أن ينتزع النصر في معركة (وارنه) على التجمع الصليبي (٤٢).

محمد الفاتح سيجعل من عام ١٤٥٣ حداً زمنياً فاصلاً في تاريخ البشرية باستيلائه على القسطنطينية، رمز العالم القديم واتخاذها عاصمة له.

تلك المدينة التي كانت الهدف الدائم للجيوش الإسلامية منذ عهد الخليفة الثالث، مروراً بالحملتين اللتين قادهما الأمويون، وبحملات هارون الرشيد، وقبله الهادي (٤٣) وكما يقول (ديورانت): "لقد سقط الحصن الذي طالما حمى أوربا من آسيا أكثر من ألف عام، واصبحت طرق التجارة التي كانت مفتوحة في يوم من الأيام للسفن الغربية في أيد أجنبية، تفرض عليها المكوس أثناء السلم، أو تسدها بالمدافع في وقت الحرب " (٤٤).

وأعلن محمد الثاني (الفاتح)، الذي قال عنه بروكلمان " كان يجمع في شخصه جميع مظاهر عصره الفكرية والثقافية " (٤٥)، إنه لايمانع في إقامة شعائر الديانة للمسيحيين، ويضمن لهم الحرية الدينية، وأعطاهم نصف الكنائس، وجعل نصفها الباقي جوامع، واحتفل بتثبيت رئيس طائفة الروم الأرثوذكس بنفس الأبهة التي كان يُعامل بها البطارقة أيام ملوك بيزنطة، ومنحهم حق الحكم في القضايا الدينية والجنائية بشؤون طوائفهم (٤٦)، وفرض عليهم مقابل ذلك دفع الخراج مستثنياً أئمة الدين فقط.. وقد تم فتح الصرب نهائياً في عهده (١٤٦٠) واليونان وكورنثة ١٤٥٨ وأجبر (البندقية) على التنازل عن اشقودره.

ساند محمد الفاتح تتار القرم المسلمين، في صراعهم مع الجنويين، وقد كان لهؤلاء الجنويين ممتلكات ومحطات تجارية في بحر إيجة وفي البحر الأسود طردهم من بحر إيجة أولاً، وفي سنة ١٤٦١ انتزع لهم موقعاً هاماً في شمال الأناضول، ثم استولى في سنة ١٤٧٥ على ثغر (كافا) الواقعة في شبه جزيرة القرم على البحر الأسود، ثم انتزع منهم آزوف على نفس البحر، ووضع يده على المحطات التجارية التابعة لجمهورية جنوه على شواطئ القرم واعترف تتار القرم بالسيادة العثمانية، وأصبح البحر الأسود بحيرة عثمانية (٤٧) وبقيت بلاد القرم تابعة لهم لمدة ثلاثة قرون.

انطلاقاً من مواقع القوة العثمانية، وواقع الضعف السياسي والتمزق الأوربيين " ابتدأت المخابرات بين الدولة العلية وبين البابا اسكندر السادس (بورجيه)، وملك نابولي، وميلانو، وفلورنسا، كل منهم يجتهد في محالفة الدولة العلية للاستعانة بجنودها البرية ومراكبها البحرية لمحاربة من عاداه " (٤٨).

الوضع على الجبهتين سيسمح لمحمد الثاني بوضع الخطط الجدية للسيطرة على إيطاليا وعلى روما بالأخص، فأرسل الجيوش لهذا الغرض إلى مدينة اترنتو ١٤٨٠، وهو الذي أقسم ليقدمن (الشوفان) لحصانه وهو واقف على مذبح كنيسة القديس بطرس في روما بعد أن يدكّ صرح البابوية (٤٩).

وحين توفي السلطان محمد الفاتح عام ١٤٨١ كانت قد دانت له آسيا الصغرى وبلاد اليونان ومعظم شبه جزيرة البلقان، ووضع أقدامه على جانبي بحر الادرياتيكي، بعد استيلائه على الجزائر الأيونية واشقودره واوترانتو، وهدد سلامة إيطاليا بل أوربا أجمع (٥٠).

ساعدت الأوضاع الأوربية آل عثمان في مشروعهم الهجومي، فأوربا لم تخرج بعد من فوضى الإقطاع إلى العصر الحديث. صحيح إنهم رجعوا من مغامرتهم (الصليبية) في شرق المتوسط بعد قرنين " يملكون نظرة جديدة، واتسع افقهم " كما يقول ديلماس، وقد حصدت تلك المغامرة، ومعها اكتشاف البارود قلاع الإقطاع ورجالها، وبدأ ملوك أوربا يقيمون مكان الأطر الإقطاعية مبادئ أولية للإدارة المركزية، ولكن كل هذا لايزال قيد الإنجاز. وصحيح إن حرب (المئة عام) بين انجلترا وفرنسا قد وضعت أوزارها مع سقوط القسطنطينية فساهمت في تعزيز الروح القومية لدى الطرفين وقوت مركزية الدولة الانجليزية والفرنسية، ولكن بقيت هذه بمثابة ميول لم تتحقق واقعاً متكاملاً، إنما ظل الشيء المؤكد، أن إنجلترا وفرنسا عندما أشرفت

حربهما على نهايتها في القرن الخامس عشر، وعندما كان العثمانيون يسجلون تقدمهم في البلقان والقسطنطينية، كانا في حالة شلل سياسي شامل. وصحيح إنه منذ القرن الرابع عشر والخامس عشر ستبدأ حركة النهضة في إيطاليا حاملة معها إحياء العلوم والآداب القديمة والنزعة الحسية والانسية: التعلق بالحياة الدنيا، وإعلاء قيمة الجسد. والنزعة الانسية تبدأ في تأسيس الأخلاق والحقوق وتنتهي إلى السياسة، وهي لاتنفصم عن حركة النهضة: بترارك، دانتي، ميكيل أنجلو، بوكاشو، أراسمس، يترافق معها ظهور المطبعة ١٤٤٥ وتسارع نشر المخطوطات في كل مكان، وستشرع أوربا منذ القرن الرابع عشر استثمار الفحم واستخدام بارود المدفع، وكانت استخدمت "زناقات" الكتف لحيوانات الجر من عام ١٠٠٠، وطوعت الريح لتدير طواحين الماء منذ عام ١٠١٥ (٥١)، إلاّ إن هذا لم يخلق بعد واقعاً جديداً مبتكراً، وحركة النهضة والانسية ماكانت حتى ذلك الوقت سوى نزعة للنخبة الارستقراطية، ولم تندمج بعد في الوعي الاجتماعي (٥٢)، ودائرة العلم مازالت ضيقة، والابتكارات التقنية ضعيفة التأثير ستنتظر حتى نهاية القرن السابع عشر والثامن عشر ليتقدم التيار الفكري الذاهب من غاليلو إلى نيوتن ليعد حجارة بناء جديدة، مع الاكتشافات الجديدة لأمريكا، والالتفاف حول ديار الإسلام نحو الهند للاستحواذ على طرق التجارة، مع معايير جديدة للعلم والثقافة، يرافقها الإصلاح الديني، والنزعة التجريبية العلمية، والتنوير، كل هذا سيجري لاحقاً. أما الآن في ظروف التقدم العثماني على الجبهة لأوربية في القرن الرابع عشر والخامس عشر، فالحال ستكون صعبة بالنسبة لأوربا. فبالإضافة إلى وباء الطاعون الذي اجتاح أوربا منذ ١٣٤٧ فحصد ماشاء من الأروح في إيطاليا وإسبانيا وفرنسا وألمانيا وانجلتر واسكندنافيا والنمسا وبولونيا وروسيا

(٥٣) فالقرن الرابع عشر كان أيضاً شاهداً على سلسلة من الكوارث غير الملائمة للتجدد السياسي، فإن إنحطاطاً إقتصادياً كبيراً هو واحد من أطول فترات الإنحطاط في التاريخ قد بدأ حوالي عم ١٢٨٠.. ولم يكن باستطاعة أية حكومة أوربية أن تحمي نفسها من هذا الانحطاط وما رافقه من مجاعة وطاعون، وكان من الصعب رسم حدود فاصلة في أوربا بين تداخلات مناطق النفوذ. وعلى الرغم من أن عدة دول سترى النور: ألمانيا الجنوبية الشرقية لآل هابسبورغ، ودولة تسكانيا، وخروج فرنسا وانجلترا من حرب المئة عام وهما تتلمسان هويتهما القومية، إلاّ أن الحروب الصغيرة وعمليات الزواج، وتقاسم المواريث ستؤدي إلى تقلب الحدود والدول بصورة فوضوية (٥٤).

أما على مستوى علاقات القوى ضمن أوربا، فلاتزال أوربا تقع تحت وطأة الصراع البابوي / الامبراطوري الذي شهدته القارة بكل مظاهره منذ فريدريك الثاني، ولكن استمرار إصرار (البابوية) ابتداء من غريغوري السابع على مشروع التسيّد على العالم المسيحي، سينال من مستوى اهتمامها المحلي في إيطاليا، وبقضاياها الأرضية، وإذ هي تحاول تحجيم دور الامبراطور، حجمت دورها هي، لأنها وضعت نفسها تحت وصاية أمير زمني آخر:(شارل انجو) الفرنسي وخلفائه، وفي النهاية سيُقضى على حلمها الكوني عام ١٣٠٣ عندما اعتدى عملاء التاج الفرنسي: فيليب الرابع، على البابا بونيفاس الثامن (٥٥)، وستفقد الامبراطورية الرومانية المقدسة، من جهتها، سطوتها على ألمانيا عندما يُفقدها تشاغلها بالمشكلة الإيطالية / والبابوية قدرتها على الاهتمام بموقعها الألماني. الذي هو موطنها، ومثلما يقول توينبي: " فقد كان التاج الامبراطوري عبئاً ثقيلاً، خسر فيه التاج الألماني سيطرته على موطن الامبراطور"(٥٦).

الكنيسة الكاثوليكية نفسها ستنقسم إلى رأسين، من عام ١٣٧٨ إلى عام ١٤١٧، انعكاساً للتنازعات الدولية الدنيوية. نُصّب اثنان من (البابوات) أحدهم في (أفينيون) تحت سطوة فرنسا، والثاني في روما، موضوع الخلاف سينصب على ما إذا كانت البابوية يجب أن تكون بيضة القبان الفرنسي، أم تعود إلى القبان الإيطالي.

وحدها إسبانيا ـــ التي ستصبح في القرن السادس عشر قاعدة لامبراطورية عظمى سيستغرق صراعها مع العثمانيين فضاء القرن السادس عشر بكامله ـــ وحدها إسبانيا مع البرتغاليين ستكونان مستعدتين، دائماً، منذ القرن الثالث عشر لاقتناص أية سانحة للتقدم على حساب عرب الأندلس، وستستفحل قوتهما وخطرهما باطراد على الجبهة العربية ـــ الإسلامية هناك، ولن يوقفهما، عندما اجتازا المتوسط إلى المغرب العربي إلا العثمانيون بالتعاون مع عرب إفريقيا. ولكن ستكون الأندلس قد ضاعت إلى الأبد.

جبهتان متناظرتان من حيث النتائج سيتبادلان الأدوار والمصائر منذ القرن الرابع عشر والخامس عشر: جبهة الأناضول / البلقان على أطراف الحوض الشرقي للمتوسط، وجبهة اسبانيا، البرتغال / غرناطة، المغرب العربي. بقدر مايخسر فيه الغرب هناك موقعاً سيربحه في الجبهة المقابلة (٥٧) وعندما يطل علينا القرن السادس عشر، سندخل معه والعالم حقبة التبدلات والانقلابات الكبرى، ومعها التناظرات العظمى للقوى والترتيبات السياسية، على كلا جبهتي المواجهة: دار الإسلام و " دار الحرب ".

أوربا ستبقى ممزقة بين الامبراطورية الرومانية المقدسة من قاعدتها في ألمانيا والتي ستصبح القوة الأعظم المتحكمة في موازين القوى الأوربية، وبين قوتين أُخريين تنازعها المواقع والقوى: فرنسا والبابوية. أما على الجبهة

المقابلة: الإسلامية، فستكون القوة العثمانية قد بلغت أعزّ مواقعها، وتبوأت جانب الصدارة الإسلامية، تنازعها الهيمنة والزعامة: إيران الشيعية.

الامبراطورية الرومانية المقدسة، والامبراطورية العثمانية ستتغالبان وسيغطي صراعهم على الغلبة مساحة القرن السادس عشر برمتها. ستمد القوى المسيحية يدها إلى (فارس) للاستقواء بها على الامبراطورية العثمانية ولتشق بذلك الجبهة الإسلامية، وسيمد المسلمون ــ الممثلون بالعثمانيين ــ اليد إلى فرنسا وإلى كل قوى الإصلاح الديني: اللوثريين، والكالفانيين، والترنجليين وجماعة هس.. ستتجابه تلك القوتان على البر والبحر، ليس في المتوسط وحسب بل على أطراف الأطلسي، في بحر العرب، والبحر الأحمر، والخليج العربي، والمحيط الهندي، وعلى نتائج تلك المعركة سيتوقف مصير العالم لعدة قرون، قوتان ارتدت كل منهما الجلباب الديني: الإسلام، المسيحية، ولكنهما لم ينسيا ولا لحظة قضايا العالم الأرضية، والمصالح المادية الرمادية للدول والبشر.

هوامش: الإسلام والغرب على عتبات العصر الحديث

القرن (١٣ ــ ١٥) /سياسة القوة/

١ ــ أرنولد توينبي، تاريخ البشرية، الجزء الثاني، د. نقولا زياده، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٦، ص١٧٩.

٢ ــ هـ. ج. ويلز، معالم تاريخ الإنسانية، عبد العزيز جاويد، المجلد الثالث، الكتاب السابع، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥٠ ص ٧٥٤/٧٤٧.

٣ ــ يقول كلود كاهن: " من المؤكد أن العهد المغولي قد تسبب فعلاً في تدهور الاقتصاد الريفي لصالح الرعي، يوازي هذا التطور تحولاً آخر سببته غزوات بني هلال في المغرب "، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، جزء ثالث، بدر الدين القاسم، دار الحقيقة، بيروت ١٩٨٣ ط٣، ص٢٦٨.

٤ ــ هاملتون جب، التاريخ الإسلامي في العصور الوسطى، المركز العربي للكتاب، دمشق، بدون تاريخ، ص٣٨.

٥ ــ أرنولد توينبي، تاريخ البشرية، الجزء الثاني، مصدر سابق ص١٥٦.

٦ ــ د. فيليب حتي، د. ادوار جرجي، د. جبرائيل جبور، تاريخ العرب المطول، الجزء الثاني طبعة رابعة، دار الكشاف بيروت ١٩٦٥، ص٥٨٤.

٧ ــ برتولد شيولر، العالم الإسلامي في العصر المغولي، خالد أسعد عيسى، دار حسان، دمشق، طبعة أولى ١٩٨٢، ص٧٢.

٨ ــ كلود كاهن، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، مصدر سابق ص٢٦٤.

٩ ــ أرنولد توينبي، تاريخ البشرية، الجزء الثاني، مصدر سابق، ص١٢٤. راجع أيضاً: عزيز أحمد، الهند، تراث الإسلام، القسم الأول، اشراف: شاخت وبوزوت، سلسلة عالم المعرفة، آب ١٩٧٨، ص١٩٧. راجع: ستانلي لين بول، الدول الإسلامية، محمد صبحي فرزات، مكتبة ملاح، دمشق ١٩٨٤، ص٦١٩ / ٦٣١.

١٠ ــ برتولد شيولر، العالم الإسلامي في العصر المغولي، مصدر سابق، ص٩٣ / ٩٨.

١١ ــ الفضل شلق، الأمة والدولة، جدلية الجماعة والسلطة في المجال العربي الإسلامي، دار المنتخب العربي، ١٩٩٣، ص٦٢.

١٢ ــ د. فيليب حتي ، تاريخ العرب المطول، مصدر سابق، ص٨٠٩.

١٣ ــ كلود كاهن، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، مصدر سابق ص٢٦٥.

١٤ ــ د. فيليب حتي، تاريخ العرب المطول.. مصدر سابق، ص٨٠٠.

١٥ ــ جابيت. ل. أبو لغد، النظام العالمي في القرن الثالث عشر، الاجتهاد، العدد السادس والعشرون والسابع والعشرون، السنة السابعة، ١٩٩٥، ص٢١٩.

١٦ ــ هــ. ج. ويلز، معالم تاريخ الانسانية، مصدر سابق، ص٧٧٤.

١٧ ــ راجع في هذا المجال: الفضل شلق، الأمة والدولة، مصدر سابق ص١٤/٤١. ووجيه كوثراني، السلطة والمجتمع، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٨٨، ص٣٥. حيث يقول: " وهذا مايسوغ الحديث عن انفصال بين الأمة والدولة في التاريخ الإسلامي، فالأمة كإطار انتماء عقدي وفكري وسلوكي للجماعة لم تندمج اندماجاً عضوياً مع الدولة ". راجع أيضاً: رضوان السيد، الأمة والجماعة والسلطة، دار اقرأ، بيروت ط٢ عام ١٩٨٦، ص٧٧. حيث يقول: " وأصل المسألة أن الأمة هي الشارعة وقد كان جائزاً في العقل أن تتولى الأمر بنفسها من خلال جماعتها، ولكنها آثرت أن تسد ذرائع الفساد، بسبب تكالب الأعداء عليها.. فأجمعت على تولية الإمام، والإجماع شرع ".

١٨ ــ هاملتون جب، التاريخ الإسلامي في العصور الوسطى، مصدر سابق، ص١٥.

١٩ ــ المصدر السابق ص١٨.

٢٠ ــ الفضل شلق، الدولة والأمة، مصدر سابق ص٣٩.

٢١ ــ د. حسن ابراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، الجزء الرابع، دار الجيل، بيروت، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة ١٣، ١٩٩١، ص ٤٠٢ / ٤٠٣. حيث يقول: " ظل المسجد المعهد الأول للثقافة العربية الإسلامية، فلم تنشأ المدرسة كجهاز للثقافة والتعليم قبل القرن العاشر (الرابع الهجري) إذ قامت المدرسة البيهقية في نيسابور.. إلى أن نظام الملك وزير ملك شاه السلجوقي (٤٦٥ ــ ٤٨٥ هــ)هو من أسس المدرستين المشهورتين اللتين تعرفان باسمه في بغداد ونيسابور، وتعرف كل منهما بالمدرسة النظامية كما أسس المدرسة الحنفية في بغداد، وكان الإمام الغزالي يقوم بالتدريس في المدرسة النظامية..". راجع أيضاً، هاملتون جب، التاريخ الإسلامي في

العصور الوسطى، مصدر سابق، ص٢٨. راجع أيضاً: لويس يونغ، العرب وأوربا، ميشيل أزرق، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٩ ص٤٧.

٢٢ ــ هاملتون جب، التاريخ الإسلامي في العصور الوسطى، مصدر سابق، ص٣٢.

٢٣ ــ المصدر السابق، ص٣١.

٢٤ ــ د. حسن ابراهيم حسن، تاريخ الإسلام.. مصدر سابق، ص٤٠٢ / ٤٠٣.

٢٥ ــ د. عبد الله العروي، تاريخ المغرب، محاولة في التركيب. د. نوفان قرقوط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ١٩٧٧، ص٢١٤.

٢٦ ــ هاملتون جب، التاريخ الإسلامي في العصور الوسطى، مصدر سابق، ص٣٥.

٢٧ ــ ريتشارد ايتون، الحضارة الإسلامية والتاريخ العالمي، الاجتهاد، العدد السادس والعشرون والسابع والعشرون، سنة سابعة، ١٩٩٥، ص٢٠١. حيث يقول: " أكد هود جسون ــ أكثر من غالبية المثقفين ــ على التزامن بين عملية " التشظي السياسي " وعملية " ازدهار الثقافة في التاريخ الإسلامي" وعلى العلاقة بين هاتين الظاهرتين ".

٢٨ ــ ريتشارد ايتون، الحضارة الإسلامية والتاريخ العالمي، مصدر سابق، ص١٩٥ / ١٩٦.

٢٩ ــ راجع: الفضل شلق، تاريخ المجتمعات الإسلامية، قراءة في كتاب، ا.لابيدوس، الاجتهاد، العدد السادس والعشرون والسابع والعشرون، سنة سابعة، ١٩٩٥، ص٢٧٥.

٣٠ ــ ريتشارد ايتون، الحضارة الإسلامية والتاريخ العالمي، مصدر سابق، ص١٩٧.

٣١ ــ المصدر السابق، ص٢١٣ / ٢١٤.

٣٢ ــ هاملتون جب، التاريخ الإسلامي في العصور الوسطى، مصدر سابق، ص٤١.

٣٣ ــ عبد الكريم غرايبه، العرب والعثمانيون، دراسة لتطور العلاقة بين الأمتين خلال ألف عام، جامعة دمشق ١٩٦١، ص٢٧٢. ويقول محمد فؤاد كوبريلي: " ولما كانت مناطق الحدود هذه واقعة في "أقصى دار الإسلام من ناحية الغرب، وكان الصراع فيها مصطبغاً إلى حد ما بالصبغة الدينية وله طابع الجهاد المقدس، ووفدت جماعات مختلفة من الناس يتزيون بزي الدراويش المجاهدين.. طلباً للجهاد "، قيام الدولة العثمانية، ترجمة: د.أحمد سعيد سليمان، دار الكاتب العربي، ص١٣٧.

٣٤ ــ برتولد شبولر، العالم الإسلامي في العصر المغولي، مصدر سابق، ص٧٢.

٣٥ ـ محمد عمارة، العرب والتحدي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨٠، ص١٥٤. حيث يقول: " لقد بدأت القصة بمؤسسات فروسية لجأت إليها الأمة كي تتخذ منها أداة تفل بها فروسية أمراء الإقطاع الصليبيين وإذ الأداة تتحول هي إلى أصل، ولأن الأمة تتحول إلى أداة، وهؤلاء الجند الذين اشترتهم الأمة رقيقاً، ثم دربتهم وسلّحتهم، تحولوا بعد النصر العسكري إلى سادة واستبدوا بالأمة ".

٣٦ ـ د. عبد العزيز محمد الشناوي، أوربا في مطلع العصور الحديثة، الجزء الأول، دار المعارف بمصر، ١٩٦٩، ص٥٢١.

٣٧ ـ ارنولد توينبي، تاريخ البشرية، الجزء الثاني، مصدر سابق، ص١٨٧.

٣٨ ـ عبد الله العروي، تاريخ المغرب.. مصدر سابق، ص٢٣٢ / ٢٣٣.

٣٩ ـ جورج كيرك، موجز تاريخ الشرق الأوسط، عمر الاسكندري، مركز كتب الشرق الأوسط، القاهرة، سلسلة الألف كتاب: ١١٤، ص٨٣.

٤٠ ـ د.أحمد شلبي، التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية القاهرية، طبعة اولى، ١٩٦٧، ص٤٨٦. راجع أيضاً: جورج كيرك، موجز تاريخ الشرق الأوسط، مصدر سابق، ص٨٣.

٤١ ـ د. عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون،طبعة اولى،مكتبة أطلس، دمشق،١٩٧٤،ص٣٥.

٤٢ ـ ستانلي لين بول، الدول الإسلامية، محمد صبحي فرزات، مصدر سابق، ص٤٧٤/٤٧٥.

٤٣ ـ د. احمد شلبي، التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، مصدر سابق، ص٤٩١ / ٤٩٢. راجع أيضاً: برناردين كليتي، فتح القسطنطينية، شكري محمود نديم، مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٦٢، ص٣٨. راجع أيضاً: برنارد لويس، الحرب والسلام، تراث الإسلام، القسم الأول، لشراف شاخت وبوزوث، مصدر سابق، ص٢٨٥.

٤٤ ـ ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الثالث، مجلد سادس، ص٣٨.

٤٥ ـ كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، منير بعلبكي، منير أمين فارس، دار العلم للملايين، ١٩٦٥، ط٤، ص٤٤١.

٤٦ ـ محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، مطبعة التقدم بشارع محمد علي بمصر، ١٩١٢، ص٦١.

٤٧ ــ عبد العزيز محمد الشناوي، أوربا في مطلع العصور الحديثة، مصدر سابق، ص٦٦٢ / ٦٦٣.

٤٨ ــ محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، مصدر سابق، ص٧١.

٤٩ ــ هربرت فيشر، أصول التاريخ الأوربي الحديث من النهضة إلى الثورة الفرنسية، د. زينب عصمت راشد، د. أحمد عبد الرحيم مصطفى،دار المعارف بمصر، ط٣، ١٩٧٠، ص٨٩.

٥٠ ــ كلود ديلماس، تاريخ الحضارة الأوربية، كوليت حبيب، الفن الحديث، ط١، بدون تاريخ، ص٩٠.

٥١ ــ هربرت فيشر، أصول التاريخ الأوربي الحديث، مصدر سابق، ص٤١.

٥٢ ــ أريك فروم. الخوف من الحرية. ترجمة. مجاهد عبد المنعم مجاهد. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٢ ص ٤٦ – ٤٨.

٥٣ ــ عبد العزيز محمد الشناوي، أوربا في مطلع العصور الحديثة، مصدر سابق، ص٥٣٧.

٥٤ ــ جوزيف شترايز، الأصول الوسيطة للدولة الحديثة، محمد عيتاني، دار التنوير، بيروت ط ١، ١٩٨٢، ص٦٠ / ٦٢.

٥٥ ــ أرنولد توينبي، تاريخ البشرية، جزء ثاني، مصدر سابق، ص٢٠٢.

٥٦ ــ المصدر السابق، ص١٧٢.

٥٧ ــ محمد خليفة، الإسلام والمسلمون في بلاد البلقان، مركز دراسات العالم الإسلامي، طبعة أولى، ١٩٩٤، ص٥٩. راجع أيضاً: شارل عيساوي، تأملات في التاريخ العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، طبعة اولى، ١٩٦١، ص١٧.

الفصل الثالث

ترتيب البيت الإسلامي
وسط المجابهة الكبرى

١ ـ تحجيم دور الصفويين:

في ذروة المواجهات العثمانية الكبرى مع أوربا، كان غرب أوربا (إسبانيا، البرتغال) قد باشر تواً التوسع في شمال إفريقيا العربية، بعد أن أنهى تصفية الموقع الأخير للعرب في الأندلس: غرناطة، ملتفاً حول جنوب إفريقيا تجاه الهند، مهدداً مواقع العرب في الشرق، في الوقت نفسه الذي ينهد إلى غرب الأطلسي مكتشفاً، مصادفة، أمريكا، وهو يحاول الإلتفاف حول (الأرض) بحثاً عن غنائم تجارة الشرق الأقصى. في ذروة المواجهة هذه، يأتي الظهور البارز لمركز فرعي جديد للإسلام في فارس، على الأبواب الشرقية للامبراطورية العثمانية، يعرقل خطط هذه الأخيرة في الرد على تحديات "العالم المسيحي" ويهدد زعامتها الأكيدة لديار الإسلام. وينال من وحدة الموقف الإسلامي تجاه مايلفه من الأخطار.

وإذا علمنا، أن دولة قوية في فارس، لايمكن لها أن تكتسب قوتها في الشرق إلاّ من خلال امتداد نطاقها باتجاه المحطات الأساسية لطرق المواصلات، والممرات البحرية المحيطة بها، وهذه قاعدة ظلت ثابتة في نظر الدولة الإيرانية، وبالمقابل كانت عنصراً مؤثراً على السياسة العثمانية (١) إن علمنا ذلك، سندرك كم هو خطير على الدولة العثمانية وجود هذه الدولة، مع طموحاتها، تشاركها الجوار، تنازعها التوسع والزعامة والحدود. وكيف كان، لابد من المواجهة بين هاتين الدولتين اللتين تتطلعان للهيمنة على العالم الإسلامي ويمسك كل منهما بلون مذهب مغاير، ويهدد النظام الجغرافي ـ السياسي للآخر، وطرق مواصلاته اللازمة لأسواقه، خاصة: نطاق العراق ـ

الخليج، ومحور أرضروم ــ تبريز، في الحقبة التي يتدفق فيها ذهب وفضة العالم الجديد محدثاً الفوضى والأزمات الاقتصادية في كل مكان.

كان لا بد لسليم الأول (١٥١٢ ــ ١٥٢٠)، وهو يعرف تلك الحقائق، ويعرف أيضاً خطورة الإلتفاف البرتغالي حول جنوب العالم الإسلامي، وتهديدات الإسبان للمتوسط، وشمال أفريقيا العربية، والسيناريو المُعدّ للدولة الصفوية للاختراق من الشرق، كان لابد له، وهو الذي أزاح أباه بايزيد الثاني (١٤٨١ ــ ١٥١٠) لركود سياسته المسالمة، أن يتحرك قبل فوات الأوان. وهو الذي سمع بتنازل اسماعيل الصفوي للبرتغاليين عن (هرمز) عربوناً لوعودهم إياه بالمساعدة ضد الروم (العثمانيين)، ولتمكين الكماشة الغربية من الإطباق على دار الإسلام(٢).

وقد كانت الدولة العثمانية إلى الآن، توجه فتوحاتها إلى الجهة الغربية، إما وقد لاح لها خطر الشاه اسماعيل الصفوي في مطلع القرن السادس عشر، فقد أصبح بنظرهم، ضرورة استراتيجية قصوى، السيطرة على الجانب الشرقي للأناضول وعلى امتداده الجغرافي في العراق والشام (٣). وعندما يغدو ضلوع اسماعيل الصفوي مع القوى الغربية لايحتاج لبرهان، وخطره الأمني والحدودي لاريب فيه، يضع سليم الأول خططه للحرب: وإذا لم يكن بالإمكان تصفية الوجود السياسي للدولة الصفوية، يصبح واجب تقزيم وتحجيم تأثيرها على أحداث العالم الإسلامي، وعلى الاستعدادات اللازمة لمواجهة الخطر القادم من الغرب والجنوب مهمة لاتقبل التأجيل. والحال أن الدولة الصفوية، بالإضافة إلى ماذُكر، تحولت إلى عائق أمام الاتصالات المباشرة بين العثمانيين والامبراطورية المغولية ــ السنية في دلهي. وحاجزاً مذهبياً أثار الشقاق والفرقة أكثر مما قدم للوحدة والتضامن.

سيهزمهم سليم الأول في (جالديران) في ٢٣ آب ١٥١٤، وسيحتل عاصمتهم بعد أن أثبتت مدفعيته فعاليتها في الميدان. وربما، لم يُنقِذ الصفويين من الزوال سوى سياسة الأرض المحروقة التي اتبعوها أمام تقدم الجيش العثماني، وغارات قوات الإمارة القادرية، التابعة للمماليك، على مؤخرة الجيش العثماني، وعلى قوافل تموينه (٤).

سيكتفي سليم الأول بما حققه من تحجيم لدور الدولة الصفوية ومن قضائه على خطرها وتأثيرها الفعالين، وسيرجع ابنه سليمان القانوني ليضم بغداد عام ١٥٣٤، ولكن على الرغم من هذا ظل الصفويون فاصلاً بين العثمانيين والعمق الهندي السني، وقوة ضاغطة إلى جانب الغرب، فوتت على العثمانيين تجنيد وافر إمكانياتهم وقواهم لمواجهة هذه القوة الأخيرة (٥).

٢ - ضم بلاد العرب:

اتجه العثمانيون نحو فتح البلاد العربية، بعد تصفية حسابهم مع الصفويين، في ظروف مواتية لهم، ومرغوبة ومنتظرة من الأهالي. ولعل دخول العرب كنف الدولة العثمانية إثر هذا (الفتح)، لم يرافقه شعور بالخسارة لأية ميزة سوى أن القاهرة ستفقد موقعها كمركز للامبراطورية المملوكية بجناحيها المصري والشامي، وكل شيء ماعدا ذلك ينطق بالبؤس والمهانة والمذلة، والخراب المدني والاقتصادي والسياسي (٦) يرافقه هاجس التهديد بالاقتلاع أمام تقدم الغرب: هاقد ضاعت الأندلس وهم الآن ينقضون على سواحل المغرب العربي، وذكريات الحروب الصليبية لاتزال تقض المضاجع. إنهم قادمون من البر والبحر، يلتفون حول إفريقيا، يخترقون بحر العرب، ومن هناك يُغرقون مراكب المسافرين، وسفن الحجيج، ينهدون إلى خليج

البنغال ليقطعوا سبل التجارة: دفق الثروة الذي يغذي شريان حياة المدينة العربية الإسلامية.

إنهم لايهدؤون أبداً، شمالاً في موسكو، وغرباً وشمالاً: الامبراطورية الرومانية المقدسة، وروما البابوية، البرتغال، والبحر المتوسط غدا يعج بالحركة والمخاطر، وبالمغامرات الكبرى مثلما هو حال بحر العرب. فالخطر القادم يحيط الأرض العربية، والإسلامية، من شبه الجزيرة الإيبيرية حتى كلكتا. فإن أطبقوا على الأندلس في نهاية القرن الخامس عشر، فالمغرب العربي صار في قلب الخطر، وحافة شبه الجزيرة العربية الجنوبية، وقوافل التجارة الإسلامية والحج غدت كلها تحت مرمى النيران. هاهم يمسكون بأنشوطة عسكرية مدججة بالأساطيل والمدافع ومعهما التصميم يريدون بها إضعاف ديار الإسلام، إن لم يكن بالإمكان إزالتها. فقد بقيت كما يقول إيفانوف: " الصليبية الغربية المتجددة العدو الرئيسي للإسلام، كما كانت سابقاً وبدأت في عصر النهضة مرحلة جديدة من المواجهة بين نظامين متعارضين من القرون الوسطى، فالعالم الكاثوليكي الذي اهتز لسقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ اعتراه الخوف والكراهية.. ورداً على القسم الذي أطلقه السلطان محمد الثاني حين قال: إنه سوف يطعم حصانه الشوفان على عرش القديس بطرس في روما، لم يتوان بابا روما عن الدعوة بإلحاح إلى تنظيم حملة صليبية جديدة " (٧).

البرتغاليون، كانوا أول من لبّى النداء مستلهمين روح الحروب الصليبية ورمادية مصالحهم المادية، أغاروا على سبتة ١٤٥٨، وانقضوا على الدار البيضاء تدميراً وحرقاً، وفي عام ١٤٧١ سيكونون في طنجة. مابين عامي (١٥٠٥ ــ ١٥١٩) سيحولون ساحل مراكش إلى ميدان لعملياتهم.

وإسبانيا بعد أن قبضت على غرناطة ١٤٩٢ ستلبي نداء الكاردينال كلمنصو، وتهاجم قواعد المسلمين البحرية في شمال إفريقيا، وفي عام ١٥٠٥ على شاطئ الجزائر، ثم وهران، وبجايه، ورباط الخيل وطرابلس الغرب. فأصبح المغرب العربي، والحالة هذه، تحت قوس الخطر.

دخلت الشواطئ العربية الجنوبية حقل النيران، بعد دوران البرتغاليين حول الرجاء الصالح عام ١٤٩٨ قاصدين الهند، يحدوهم غرضين لاثالث لهما: وضع اليد على التجارة الدولية بين الشرق الأقصى وأوربا، وتوجيه ضربة قاتلة للإسلام من الخلف.

فور وصول (فاسكو دي غاما) إلى كلكتا، وقبل أن تُلقي سفنه مراسيها في ٢٠ أيار ١٤٩٨، سيكون قد قصف السفن المصرية الراسية عند أرصفتها، ليوجه بذلك ضربة إلى قلب التجارة العربية في الهند، ودمّر البرتغاليون، فيما بعد عام ١٥٠٠، عشرين سفينة مصرية في ميناء كلكتا، وشنوا حرباً لارحمة فيها على سواحل شبه الجزيرة العربية، والهندي وإفريقيا الشرقية، بل وفي البحر الأحمر. ومن عام ١٥٠٢ إلى عام ١٥٠٧ أحرقوا السفن التجارية بمن فيها: تجار وحجيج، ولن يسلم من الحرق المدن الآمنة: قريات، مسقط، وخورقان، وسيفرضون الجزية على هرمز، والاضطراب في البحر الأحمر (٨).

أدرك العرب والمسلمون الخطر الذي يحف بمصائرهم من الغرب والجنوب والشرق، بعثوا الوفود، والرسائل من غرناطة وفاس، من تونس واليمن ومن كالكوتا، طلباً للمساعدة والحماية، إلى السلطان العثماني، وإلى السلطان المملوكي، وهما القوتان الإسلاميتان الأعظم في فاتحة القرن السادس عشر، وإن كانت الأولى في ذروة القوة، والثانية في الحضيض من الضعف.

لم يتلق مسلمو إسبانيا وشمال إفريقيا غير التأكيدات الشفوية بالتضامن (٩)، وقرر حكام كوجرات الهندية الاعتماد على النفس بعد أن اكتفى (الغوري) السلطان المملوكي في القاهرة بتوعد ملك البرتغال بالاعتداء على حريـــة العبادة المسيحية بالقدس "إن لم يُقلع رجاله عن طـــرق هذا الطريق" (١٠) ولولا المساعدة العثمانية لما تمكن من إرسال أية حملة لاحقاً لمواجهة التطويق البرتغالي.. وسيؤدي انكشاف العجز المملوكي عن المواجهة إلى تقويض زعامتهم للعالم الإسلامي (١١) واتجهت أنظار المسلمين، بالمقابل إلى الدولة العثمانية التي كانت " وحدها يمكنها منع البرتغاليين من تطويق العالم الإسلامي ومن إنقاذ الأماكن المقدسة بعد إخفاق المماليك " (١٢).

لقد ظل مماليك القاهرة يتبوأون مركز القيادة للعالم الإسلامي وهم الذين ردوا المغول في القرن الثالث عشر، وحكموا قلب الديار اللإسلامية: مصر، الشام، شبه الجزيرة العربية، وقد أضفى عليهم وجود الخلفاء العباسيين بين ظهرانيهم الشرعية اللازمة، إلاّ أن الأمر قد تبدل الآن نتيجة التردي العام للحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، والأهم من ذلك انكشاف ضعفهم. فقد تباعد الزمن بينهم وبين ذكرى معركة (عين جالوت). فأضحى سلطان المسلمين في القاهرة غير قادر على حماية المسلمين وممتلكاتهم، ولاعلى حماية دينهم نفسه أو حتى حماية الحجيج " ففي عام ١٥٠٦ أُوقف الحج بصورة مؤقتة لأول مرة في عهد المماليك، فاهتز العالم الإسلامي. وبرز السؤال من جديد، وبحدة أكبر: من الذي ينبغي أن يكون خليفة المسلمين وقائد العالم الإسلامي في ذلك العصر "(١٣).

تعلقت آمال الناس تدريجياً بالقوة الشابة المتنامية التي تجسدت بالدولة العثمانية " التي أرسلتها العناية الإلهية لإنقاذهم " كما يقول إيفانوف، فصارت

سمعة العثمانيين بالأوج عند مطلع القرن السادس عشر، ففي المشرق كما في المغرب، على حد سواء، ازداد الإعجاب بالعثمانيين ولاسيما في الأوساط الشعبية، ولقد رحب المؤرخ التونسي ابن دينار بفرح غامر، بكل انتصار يحققـــه الجيش العثماني، وسادت المشاعر ذاتهـــا في المشرق، حتى الجبرتي (١٧٥٤ ــ ١٨٢٥) الذي يكن للعثمانيين الكراهية، وصف كيف كانوا في حكمهم أفضل من قاد الأمة بعد الخلفاء الراشدين (١٤).

والعرب الذين ابتلوا بحكم الأغراب: المماليك، لم يترددوا عندما واجههم الخيار بينهم وبين العثمانيين: الأغراب الجدد، لم يترددوا في اختيار العثمانيين، علهم يأنسون الحماية والأمن، وقليلاً من الكرامة، والإنصاف في التعامل، والاستقرار والعدل. لعلهم ينتقلون من حكم تحول في نهاية عهده إلى حكم عصابة تتجسد في دولة، إلى دولة كلية القدرة وأمرها ليس شورى، نعم، لكنها توفر للفرد والأسرة والجماعة الشعور بالأمان والحماية والاستقرار، وتربطه بنظام من الحقوق يستند إلى الشريعة معترف به، تلك " الحقوق" أياً كانت، هي الشرط اللازم لكل مدنية، والتي لاتقوم الحضارة بدونها، تحمل الهوية الإسلامية التي باتت مهددة، وأكدت شرعية تمثيلها الإسلام " بالروح الجهادية " التي تمارسها، وبقوة حضورها العالمي المرهوب الجانب (١٥).

لقد ضم العثمانيون الأرض العربية إليهم في سياق احتدام الصراع الواسع النطاق ــ وكأنه استمرار للحروب الصليبية ــ مع الغرب المسيحي؛ من غرناطة حتى كلكتا، مروراً بالجزائر ومليله، وقد نظر المسلمون إلى الدولة العثمانية، منذ اقتلاع محمد الفاتح القسطنطينية محققاً بذلك حلم المسلمين الدائم، على أنها القوة الحامية للإسلام، الذائدة عن حياضه. فهي لم تعد، منذ زمن بعيد، إمارة حدود لغزاة مرابطين، بل، أيضاً، دولة ــ مؤسسة، خلقت شرعية زعامتها

للعالم الإسلامي بالأفعال والأقوال. وأعطت الثقة بأن هناك من يملك المقدرة على حفظ العالم الإسلامي من الخطر المبين. وشارك العرب غيرهم من المسلمين، مشاعر الاعتزاز والفخر بها، يقوي تلك المشاعر لديهم تعاسة أوضاعهم المعاشية، وفوضى الحياة السياسية، وانحطاط حياتهم المدنية في كنف حكوماتهم المحلية: المماليك في مصر والشام والحجاز واليمن، والدويلات التي تقف عاجزة على حافة بحر العرب والخليج، والبحر الأحمر، والعائلات المالكة في المغرب العربي التي تبدو في حالة انهيار.

لذا، لم ينظر العرب إلى ضم أقطارهم إلى السلطنة العثمانية كاحتلال بمعناه الكلاسيكي، بل اعتبروه بمثابة تبديل سلطوي مرغوب فيه، عله يساعدهم على الإصلاح الاجتماعي، ويقويهم لمواجهة الأخطار الخارجية (١٦).

لِمَ لايحلمون بذلك، والدول الإسلامية الكبرى، في نهاية القرن الخامس عشر وفاتحة القرن السادس عشر تعاني وضعية التفكك، ولم يعد فيها من أمجاد الماضي سوى رموز شكلية!؟ سيكون حكم المرينيين في مراكش قد زال منذ عام ١٤٦٥، والعراق قد دخل تحت سلطة (آل اكو بونلو) الايرانية ــ التركية الدموية، قبل أن يضمها الصفويون (١٥٠٨)، وسيكون الانحلال الديني والسياسي والاجتماعي قد بلغ مآله النهائي في دولة المماليك التي لم يبق من مظاهر قوتها وغناها القديمين سوى الظلال. ولن نرى من أنظمة الري القديمة في العراق ومصر وسوريا واليمن وإفريقيا العربية سوى آثار تدل عليها (١٧).

آ ــ العلاقات العثمانية / المملوكية وضم المشرق العربي:

خضعت العلاقة العثمانية / المملوكية إلى تاريخ معقد متشابك، انعكست فيه واختلطت المصالح المتباينة للدولتين والتنافس على الزعامة مع شعور

مشترك بالوحدة المذهبية ودواعي مواجهة الخطر الواحد الذي يحيط بهم من جهة الغرب، وأيضاً من جهة الشرق مع صعود المد الصفوي.

ولقد تميز موقف العثمانيين في بداية صعودهم في الأناضول، على تخوم "دار الحرب"، بإظهار الولاء للخليفة العباسي المقيم في القاهرة، وباهتمامهم الدائم ببلاد الحج، وهم لم ينسوا حكام مصر المماليك، ومثلهم أشراف مكة، بالهدايا والاعطيات، والتبريكات، والوفود عقب كل نصر يحرزونه على جبهة " الكفار " (١٨) إلاّ إن الأمر سيتغير تدريجياً من زاوية علاقتهم بالمماليك، وخاصة بعد سقوط القسطنطينية في قبضة محمد الفاتح. حيث سيُظهرهم هذا الحدث بمثابة القوة الإسلامية العظمى الأولى، مما سيثير روح المنافسة على الزعامة " لدار الإسلام" بينهم وبين المماليك الذين كانوا قبل ذلك يحتلون هذا الموقع دون منازع. ستظهر بعد ذلك المناوشات الحدودية للسيطرة على إمارة (ذي القدر) التي تضم مرعش والبستان وملطية. وخاصة عهد السلطانين بايزيد الثاني / قايتباي المملوكي (١٩) إلاّ أن الخطر المحدق بالمماليك من البرتغاليين، الذين قطعوا الطرق التجارية مع الشرق التي كانت تدر على المماليك مبالغ طائلة بتهديدهم للطرق البحرية المحيطة بالعرب " مما سبب قطع الشرايين التجارية بين مصر والهند، ومصر والخليج العربي، وأسس هؤلاء البرتغاليون مواطئ قدم لهم في الحبشة، وأصبح المصريون مهددين بوجود أعداء لهم في الجنوب " (٢٠).

تحت هاجس هذا التهديد اتجهت العلاقات العثمانية المملوكية نحو التحسن، فلم يتردد العثمانيون عن مدّ يد المساعدة، فأرسلوا لهم ثلاثين سفينة تحمل ثلاثماية مدفع، وأخشاباً.. استولى عليها فرسان رودس، وفي عام ١٥١١ نجح العثمانيون زمن بايزيد الثاني بإيصال أربعمائة مدفع وأربعين

قنطاراً (قرابة طنين) من البارود ــ كما أرسلوا قبل عام ١٥١٢ عدداً من الضباط البحرية للإشراف على السفن، كما زودوهم بالخشب والقطران والحديد لصناعة السفن.. وقراصنة عثمانيين للعمل في الأسطول (٢١). مقابل تلك السياسة العثمانية الفعالة والسخية، رفض المماليك، بدءاً من عام ١٥٠٢، أي تعاون معهم لمواجهة الصفويين، أو التنسيق معهم ضد الغرب.

تجاه سياسة التخاذل والتردد والعجز المملوكية، انتهج العثمانيون سياسة كفاحية نشطة لمواجهة الأزمة الشاملة: السياسية والاجتماعية والأخلاقية، والأمنية، التي تواجه العالم الإسلامي. فليس من المستغرب إذا نظرت الشعوب الإسلامية إليهم كقوة منقذة (٢٢) فأخذت الوفود الواحدة تلو الأخرى تلتمس المساعدة والحماية منهم، من غرناطة، والمغرب العربي، وشبه الجزيرة العربية، ويذهب البعض إلى اعتبار ــ الفتح العثماني للبلاد العربية ــ الشامية بمثابة حدث داخلي، لعب السكان السوريون فيه دوراً إيجابياً باستنجادهم بالسلطان سليم (٢٣).

لقد ساهمت عدة عوامل في دفع العثمانيين نحو فتح البلاد العربية، فبالإضافة لمصالح الدولة العثمانية بما هي دولة، وصراع الهيمنة على العالم الإسلامي، في ظل عوامل داخلية ــ أهلية مؤاتية لاستقبالهم، وشكوكهم بتحالف مملوكي ــ صفوي ضدهم، فهم أدرجوا مسألة "الفتح للبلاد العربية " في أفق استراتيجيتهم العالمية الهجومية التي كانوا يمارسونها بالفعل، والتي تستهدف، بشكل رئيسي، ضرب القوة الضاربة للعالم المسيحي ــ الغربي: الامبراطورية الرومانية المقدسة، مع مركز البابوية في إيطاليا، وإذا لم يكن بإمكانهم الإجهاز على تلك الامبراطورية فكان لابد من وقف عدوانهم على الخطوط الخلفية لدار الإسلام. وإعادة الإحكام على خطوط التجارة ــ البحرية العالمية بعد أن هددها البرتغاليون،

وفرض زعامتهم، بالتالي على العالم الإسلامي من خليج البنغال حتى جبل طارق، بالإضافة إلى ما بسطوه من سيطرة على تتار القرم، والبحر الأسود، وشرق المتوسط. وكان موقع المماليك، ضمن تلك الاستراتيجية، نقطة الضعف الإسلامية في إطار صراع القوى العالمية، ذلك الضعف الذي شكل فراغاً في القوى تقدم العثمانيون لملئه* وبالإضافة إلى ذلك، ومما سرع في اتخاذ " القرار " لفتح المشرق العربي، الموقف الذي اتخذه المماليك من حرب العثمانيين ضد الصفويين. ففي خضم معركة (جالديران) الفاصلة، والتي انهزم فيها الصفويون، والتي كان العثمانيون يأملون أن يشاركهم فيها المماليك، تجاوز فيها الأخيرون سياسة الحياد المعلنة ــ والتي كانت حتى غير مرغوبة ــ إلى سياسة العدوان ضد العثمانيين، فهم أوعزوا إلى جماعتهم في إمارة (ذي القدر) لتقطع الطريق على مؤن الجيوش العثمانية، وأن تعيق وصول امداداتهم، مما فوّت الفرصة على العثمانيين للإجهاز نهائياً على الدولة الصفوية (٢٤) وعندما أتت البشائر بالنصر العثماني " لم يستطع حكام مصر إخفاء خيبة أملهم أمام دهشة العالم الإسلامي " (٢٥).. فكانت خطوة العثمانيين التالية تصفية حسابهم مع المماليك، وضم بلاد الشام ومصر إلى امبراطوريتهم، في ظل ترحيب شعبي.

أعلن السلطان سليم الأول (١٥١٢ ــ ١٥٢٠) في عام ١٥١٦ الحرب على المماليك، وفي أجواء الحرب المعلنة، تعالت، في مصر، التهديدات والشتائم الموجهة ضد السلطان المملوكي (الغوريّ). أما في سوريا ــ كما يحدثنا إيفانوف ــ فكان الوضع أشد سوءاً، إذ خرجت قرى كثيرة، ومناطق بأسرها عن طاعة المماليك، وسرى التذمر إلى صفوف الجند المماليك "رفض

---

* يعزي (جب) احتلال " سوريا ومصر حتى يحول سليم دون احتلال الصفويين لها " المجتمع الإسلامي والغرب، دار المعارف، مصر، القاهرة، ط١، ص٢٤٦.

قرابة ألف مغربي كانوا نواة رجال مدفعية المماليك الاشتراك في القتال عموماً، وأعلنوا: لن نقاتل إلاّ الفرنجة، لن نقاتل المسلمين.. وأُعدم الكثير من المماليك بتهمة الخيانة " (٢٦). ويذكر " محمد كرد علي ": إن الجند الذين خانوا (الغوري) تجاوز عددهم ثلاثة عشر ألفا، امتنعوا عن الحرب عند الصدمة الأولى، وأبوا قتال الأتراك (٢٧).

جرت في مرج دابق في ٢٤ آب ١٥١٦، إحدى أكبر معارك التاريخ، حُسمت عند الظهيرة، عندما لاذ العساكر المملوكية بالفرار وقتل السلطان الغوري.

دخل سليم الأول مدينة حلب، في ٢٨ آب ١٥١٦، وسط هتافات الترحيب من الأهالي (٢٨)، وأثناء خطبة الجمعة، نودي بسليم الأول " خادماً للحرمين الشريفين " فاتخذ لنفسه اللقب الذي كان يحمله حكام مصر منذ صلاح الدين الأيوبي وكرس نفسه زعيماً روحياً ومدنياً لدار الإسلام (٢٩) وخاصة بعد أن باركه آخر الخلفاء العباسيين " المتوكل " وقدم له الذخيرة المقدسة للبيت العباسي، وتضم عباءة وبضع شعرات من لحية النبي (ص) مع سيف الخليفة عمر. ورافق سليم في رحلته إلى القاهرة (٣٠).

وفي ٩ تشرين أول ١٥١٦، دخل سليم الأول دمشق وسار في شوارعها المفروشة بالحرير وسط احتفالات مهيبة، وكان شيوخ دمشق قد اجتمعوا مع مشايخ الحارات على تسليم البلد سلمياً(٣١).

بعد أن استمع سليم الأول إلى مندوبي مؤتمر لممثلي المدن والمناطق ــ كان قد دعا إليه ــ عيَّن مسؤولي أهم الوظائف، مع الاحتفاظ بهيكلية الإدارة المملوكية السابقة بشكل عام. ولكنه عمد إلى تخفيض الضرائب والرسوم الجمركية من ٢٠% إلى ٥%.. وأعاد توزيع الأراضي بشكل جذري، وشكل لجان باشرت سن القوانين الجديدة، وتقسيم الأراضي وتسجيلها

وفق مبادئ الاستغلال العثماني. وألغى البنود المذلة المفروضة على السكان المسيحيين واليهود وتجار البندقية. وزار مقام (ابن عربي) وأمر ببناء ضريح له تعبيراً عن استمرار التقليد بإجلال الحركة الصوفية.

بعد معركة الريدانية، سيدخل القاهرة، وسط ترحاب الأهالي، على الرغم من المعاناة والتدمير اللذين أصابا القاهرة وسكانها من جراء المعارك التي دارت رحاها بين العثمانيين والمماليك في شوارعها. فقدم الأهالي المساعدة في القبض على المماليك " إذ إن هذا الشعب ــ كما يقول إيفانوف ــ الذي أخفى كراهيته عشرات السنين للمماليك، أسرع الآن زرافات ووحدانا إلى سليم الأول متعهداً الولاء الدائم " (٣٢).

ولخص سليم الأول مبادئ السياسة الجديدة في مؤتمر لقضاة مصر وممثلي التجار والمهنيين ومختلف فئات السكان.. لم يطرأ على هيكلية الإدارة تغيير جوهري. بقيت السلطة في مصر العليا بيد شيوخ البدو، وبقيت في مصر السفلى بيد المماليك المؤيدين للعثمانيين (٣٣) ولكن بالمقابل ستطرأ تغيرات أساسية على الحياة الاجتماعية. سيعاد توزيع جذري للأرض الزراعية، وتحولت أراضي مصر باستثناء الأوقاف الشرعية إلى ملكية عمومية، وألغيت الامتيازات الضريبية والحصانات التي كانت قائمة في عهد المماليك، وألغى السلطان سليم الضرائب والمغارم المفروضة على الأهالي بصورة غير قانونية. وحدَّ من الغرامات النقدية المفروضة على الأهالي، ومنع تقديم الهدايا المالية، وتم تحديد الأسعار تحديداً صارماً (٣٤).

حظي ــ كما يقول بارتولد ــ تسلُم العثمانيين السلطة العليا في الإسلام باعتراف فوري في العالمين الإسلامي والمسيحي، واكتسبوا جميع حقوق سلاطين المماليك، فصارت لهم السيادة على المناطق التابعة لهم في إفريقيا

وشبه الجزيرة العربية، وتدافع حكام هذه المناطق لتقديم الولاء.. وفي طليعة هؤلاء كان شرفاء مكة، الذين قدموا التهاني وسلموا للسلطان سليم مفاتيح الكعبة. اكتفى العثمانيون من جهتهم بحراسة الشواطئ البحرية، وحماية قوافل الحج والمؤن والموارد الغذائية للمدن المقدسة، ولم يتدخلوا في صلاحيات أشراف مكة، وأناطوا شؤون الدفاع إلى والي مصر، حيث جعلوا من جده عاصمة عسكرية وسياسية وتجارية للحجاز.

ب ـ ضم العراق وشبه الجزيرة العربية:

تم ضم العراق إلى السلطنة العثمانية كنتيجة مباشرة للصراع العثماني مع الصفويين والبرتغاليين، وكضرورة استراتيجية للتحكم بالطرق التجارية والممرات المائية، أو للدفاع عنها، بالإضافة للأهمية المعنوية لاستحواذ "بغداد" درة الخلافة العباسية، ومرقد مقام (أبي حنيفة) الذي هدمه الصفويون عند دخولهم بغداد، وتنكيلهم الجماعي لكل فكر مناهض.

أعلن العثمانيون مساندتهم المنتفضين في عام ١٥١٤، الذين حرروا عدة مناطق من الجزيرة الفراتية. وطبق العثمانيون، عند إلحاقهم تلك المناطق، القوانين العثمانية لاستغلال الأرض ملغين الضرائب الجائرة، التي كانت تمارس في عهد (الاقيونلو، والصفويين). وفي الجنوب، أي في (البصرة) وشرق شبه الجزيرة العربية " كان الحنين إلى العثمانيين يتخذ مظهراً أقوى، فقد انتظر الناس العثمانيين كمنقذين لهم من نهب الفرنجة واغتصابهم " (٣٥). إذ أن الصفويين ــ كما يقول إيفانوف لم يشكلوا أي عائق في وجه الاستعمار البرتغالي.فبموجب اتفاقية ١٥١٥، تمكن البرتغاليون، مقابل تحالف عسكري ضد العثمانيين، من الحصول على اعتراف (صفوي) بحق البرتغاليين بالسيطرة على هرمز، وعلى نشاطهم في الخليج العربي(٣٦).

أصبح العثمانيون ــ والحالة هذه ــ الأمل الوحيد لمسلمي الخليج وشبه الجزيرة، وبدأ الحكام المحليون واحداً بعد الآخر يطلب دعماً من اسطنبول، قاد (ذو الفقار بك) انتفاضة في العراق الأوسط، وأرسل مفتاح (بغداد) إلى سليمان القانوني، إلا أن انشغال الأخير في الحرب على أبواب المجر وألمانيا " حيث كانت تتقرر حدود الإسلام " فوت الفرصة على نجاح الانتفاضة، لكن بعد عقد الصلح مع شارل الخامس في عام ١٥٣٣، دخلت جيوش سليمان تبريز الصفوية، واستُقبل سليمان فور وصوله إلى سهل الفرات من الأهالي بالترحاب، وحصلت انتفاضة في بغداد، قبل وصوله، بقيادة رجال الدين، الذين أعلنوا انضمامها إلى الباب العالي، وسيدخل بغداد ١٥٣٤ وسط الزينات والفرح وتهليل الترحيب من الأهالي (٣٧). ولابد من التأكيد كما يقول إيفانوف " إن تجديد زعامة السنه في عهد العثمانيين لم يصاحبه أي اضطهاد مذهبي، بل إن العثمانيين قدموا الحماية للشيعة المحليين، كما قدموها لليهود والمسيحيين.. وزار سليمان العظيم قبر موسى الكاظم.. وأوقف للأماكن المقدسة الشيعية، على غرار السنة، أملاكاً كبيرة " (٣٨)، وسن قوانين جديدة على مبادئ العدالة، وأعلن أنه لن يسمح لأحد، بعد الآن، أن يعامل السكان خلافاً للشريعة. وحدد المبادئ لفرض الضرائب على الأرض، كما جرى مسح تفصيلي لها.

ولقد أعطى البعض للعثمانيين دوراً مهماً في حماية عروبة العراق، إذ يقول غرايبه: "لولا هذه الحماية لما كان العراق الآن عربياً، ولما اختلف مصيره عن مصير عربستان " (٣٩).

الخطر البرتغالي دفع الحكام الآخرين لتقوية ارتباطهم بالعثمانيين. فوصلت إلى اسطنبول عام ١٥٣٨ بعثة حاكم البصرة (رشيد بن مغامس)، وقدمت لسليمان

القانوني مفتاح المدينة، وستعلن الإنضمام إلى " الباب العالي " كل من خوزستان والبحرين وقطيف، وغيرها من إمارات نجد والفرات الأسفل (٤٠).

وعندما لم يستطع العثمانيون القضاء على الاسطول البرتغالي، كما سنرى لاحقاً، اعتمدوا (القرصنة) ضد سفنهم المنعزلة، وبالمقابل لم يتمكن البرتغاليون والصفويون من النيل من المواقع العثمانية في العراق وشرق شبه الجزيرة العربية.

هنا أيضاً، في حضر موت، واليمن، مهَّد الشعور بالقلق على المصير تجاه الظهور البرتغالي، والضعف والتفكك الداخلي، لتزايد التعاطف الشعبي نحو العثمانيين، بل شارك في هذا التعاطف " رجال الحكم المحليين الذين علقوا عليهم الآمال في تجديد المجتمع الإسلامي، وبالأخصّ في صد العدوان البرتغالي، إذ ازداد القلق بسبب الوضع المتفاقم في مناطق اليمن وحضر موت الساحلية التي تعاني من هجمات البرتغاليين، وفقدان الأمن على خطوط الملاحة البحرية " (٤١). في الوقت الذي تعذّر فيه على زعماء القبائل الوصول إلى تدابير مشتركة ضد البرتغاليين، وذهب سلطان الطاهريين عامر بن عبد الوهاب (١٤٨٩ ــ ١٥١٧) إلى حد رفض تقديم الموانئ والمساعدة اللازمة، فأربك خطط الحملة المملوكية ــ العثمانية وظل الاسطول المملوكي المعدّ بمساعدة العثمانيين، ثمانية أشهر منشغلاً ببناء التحصينات الدفاعية، وتأتيه الوفود مستنكرة موقف السلطان عامر، ومطالبة حسن كردي، ومساعده (القبطان العثماني سليمان ريس) بتحرير اليمن من الطاهريين (٤٢). دخل حسين كردي (الزيدية) عاصمة البلاد، وتمركز الطاهريون في عدن.

أثناء تبدل مواقع السلطة في مصر لصالح العثمانيين انسحب حسن كردي تاركاً حامية صغيرة في (الزيدية). وفور خروجه أطلّت السفن البرتغالية، وقدم لهم (عامر بن داود الطاهري) مفتاح مدينة عدن، وأسس بقايا المماليك، من جانبهم،

دولة مستقلة في اليمن، وفي تموز ١٥١٧ أعلنوا انضمامهم للباب العالي (٤٣) ومن هذه الساعة، بدأ نفوذ الباب العالي في التصاعد.

تركزت التحالفات العثمانية، هنا، على محور التناقض مع البرتغاليين، إلاّ أن الطابع القبلي، والانقسامات المذهبية، والطبيعة الجغرافية أعاقت ضبط البيت اليمني، لذا لم يستتب الأمر للعثمانيين إلاّ في فترة متأخرة.

على أساس نفس القاعدة الكفاحية مد العثمانيون يد المساعدة لسلطان حضر موت بدر الثالث (١٥١٦ ــ ١٥٦٨) لتأسيس دولة مركزية قوية، على حساب التفرعات القبلية، للوقوف بوجه البرتغاليين الذين لم يتوقفوا عن قيادة حملاتهم مابين عامي ١٥١٧ ــ ١٥٣١ على الشواطئ الجنوبية لشبه الجزيرة العربية والقرن الأفريقي، وحضر موت، والمناطق القريبة من باب المندب.

ج ــ حماية السودان والبحر الأحمر:

دلت الأحداث اللاحقة على أن التواجد العثماني في اليمن، وقبالة باب المندب شكل تهديداً جدياً للقواعد البرتغالية في الهند وسواحل إفريقيا الشرقية. فحاول البرتغاليون إحياء تحالفهم مع إثيوبيا، التي اتصلوا بها لأول مرة عام ١٤٩٠ إلاّ أن تلك المحاولة تعثرت أمام صعوبة المواصلات. لكن هذا لم يقدهم إلى اليأس فظهروا عام ١٥٠٧، ولأول مرة، في البحر الأحمر. وهاجموا في عام ١٥١٣ مدينة سواكن عاصمة السودان المسلم، وفي ١٥١٧ أحرقوا (زيلع) عاصمة عضل، واجتاحوا بوحشية مدينة (بربره) عام ١٥١٨. لذا، فليس مايثير الدهشة أن تتلقى الدول الإفريقية الشرقية ببالغ الفرح نبأ دخول العثمانيين مصر بعد انكشاف عجز المماليك عن حمايتهم، وأرسلوا الرسل إلى السلطان سليم الأول، معترفين بسيادة الباب العالي.

بدون أي تردد، وضع العثمانيون الحاميات العسكرية، عام ١٥٢٠، عند مرافئ البحر الأحمر، لاسيما سواكن ومصوع وزيلع، وزودوها بالأسلحة النارية في الوقت الذي احتل فيه البرتغاليون (مقاديشو) فدارت المعارك سجالاً بينهما. سيتغير ميزان القوى، حين يُعاد بناء الدولة الأثيوبية بمساعدة البرتغاليين، فيصبح المسلمون في السودان في موقف دفاعي هش.

في تلك الظروف المعقدة، خطط الباب العالي، في عهد سليمان القانوني ضم السودان. فانطلقت عام ١٥٥٦ حملة عسكرية من مصر بمحاذاة النيل، وسيتم ضم السودان دون عقبات تذكر. في العام التالي ستتم السيطرة على سواكن ثم مصوع وزيلع الاستعانة بالأسطول. وسيتم احتلال جميع سواحل البحر الأحمر الإفريقية.

انتهى الأمر إلى نوع من توازن القوى، ظلت الامبراطورية الاثيوبية تبسط فيه سلطانها على الجزء الغربي من المناطق الجبلية، أما (أريترية والسودان) فخضعتا نهائياً لسلطة المسلمين، وطبّق العثمانيون الشريعة الإسلامية، والادارة الحازمة التي ستؤول إلى أيدي المماليك العثمانيين على غرار ماهو حاصل في مصر (٤٤).

د ــ الصراع على أطراف غرب المتوسط وضم إفريقيا العربية:

من الممكن القول: كانت جبهة الأندلس ــ المغرب العربي، هي الحلقة الأضعف في الجدار الإسلامي. ففي الوقت الذي كان فيه الفرنجة يتجرعون مرارة الخيبة والتراجع في المشرق العربي، وعلى جبهة الأناضول، استمر تقدمهم على الخارطة الأندلسية. وإن ما سمي (بحركة استرجاع) الأندلس ماتوقفت منذ سقوط الخلافة الأموية في القرن الحادي عشر (١٠٣١) على يد

أبي حزم بن جمهور (٤٥) حيث " انتثر سلك الخلافة، وقامت الطوائف، بعد انقراض الخلائف (= الخلفاء)، وانتزى الأمراء، والرؤساء والبربر والعرب والموالي الجهات، واقتسموا خططها، وتغلب بعض على بعض " (٤٦).

ربما لعب اختفاء، أو فساد العصبية العربية، بعد زوال الدولة العامرية ـــ كما يقول عبد العزيز سالم ـــ دوره في الإطاحة بالإمامة، وبالخلافة الأموية، وفي قيام دولة الطوائف (٤٧)، إلاّ أن هناك حقيقة يجب أن لاتنسى، وهي أن الحضارة الأندلسية لم تستطع أن تدمج الأندلس في كلية اجتماعية موحدة، فظلت منقسمة إلى مدنيتين، اثنتين، بقيت الحضارة العربية الإسلامية: ثقافة ولغة، ذات طبيعة مدينية، تتركز في المدينة: مواقع الإدارة، والملك، والجند والتجارة، والحرفة اليدوية، وحرفة القلم، بالمقابل، انطوى الريف على نصرانيته، ولغته المحكية الخاصة " مما جعل الجسم الأندلسي سهل الاختراق، وانضافت إليه في القرن الحادي عشر أزمة سياسية واجتماعية " (٤٨).

انهارت خطوط الدفاع الأندلسية إثر الأزمة الداخلية لخلافة قرطبة في القرن الحادي عشر، بعد وقت قصير من فترة عظمتها، وبعد مائتين وثمانية وستين عاماً من قيامها (٤٩)، فاستحالت الأندلس إلى أشلاء من الدول ـــ الطوائف، بعد أن كانت كتلة موحدة. ولما اشتد ساعد إسبانيا النصرانية استطاعت انتزاع طليطلة (١٠٨٥ م، ٤٧٨ هـــ) القاعدة الكبيرة للإسلام في الأندلس (٥٠). ومنذ ذلك الحين سينتقل مركز الثقل السياسي العربي ـــ الإسلامي من الأندلس إلى المغرب العربي، وستضم الامبراطورية المرابطية، ومن بعدها الموحدية الأندلس إليها (٥١) في نهاية القرن الحادي عشر، سيصعد نجم المرابطين في وقت كان فيه العالم الإسلامي في وضع بائس: ضياع سلطانه على المتوسط، غزو الصليبيين للمشرق، تقهقر وتمزق عالم

الأندلس، فكان مجيؤهم إنقاذاً للإسلام في شبه الجزيرة الايبيرية. سيعبُرون إلى الأندلس في ١٠٨٦ وسيهزمون الإسبان في (الزلاقة) معيدين ترتيب الأوضاع هناك لصالح المسلمين من جديد.

وهكذا، ففي الوقت الذي كانت فيه الأندلس أشلاء، والشرق الإسلامي ـ البيزنطي آخذاً في التدهور، وأوربا في مطلع نهضتها، استطاع المغرب العربي (المرابطي ـ الموحدي) طيلة قرنين ونصف من الزمان، هي نفس الفترة التي استدركت فيها أوربا تأخرها، أن يلعب دوراً فعالاً في غرب المتوسط وفي مصير العرب في إسبانيا (٥٢).

لكن المرابطين ـ الذين منحوا للأندلس فرصة حقيقية للحياة والبقاء، لم يفعلوا، في النهاية، سوى تأخير مصير الإسلام في الأندلس، وهم انكمشوا داخل الأندلس، ولم يخرجوا حتى جزر البليار التي اقتُطعت عام ١٠٩٦، ولاحركوا ساكناً تجاه سقوط صقلية عام ١٠٧١ بيد (روجرز النورماندي) الذي كان يطمع في انتزاع السيادة على المتوسط (٥٣) وعجزوا عن حل مسألة العسكر، ومشكلة تنظيم مناسب للدولة، وصياغة ايديولوجية موحدة، وظلوا بنظر الأندلسيين قليلي التحضّر (٥٤).

الموحدون، الذين سيرثون سلطانهم ومجدهم، سيتابعون أيضاً، دورهم في حماية الأندلس، وسيحرزون نصراً فاصلاً، قرب مدينة (الأراك)، على جيوش (ألفونس الثامن) إلاّ انهم عجزوا عن استرداد طليطلة، وما أن وصل الأمر إلى (محمد الناصر)، الذي أثبت عجزه بخسارته معركة (العقاب) (نافاس دو تولوزه) التاريخية عام ١٢١٢، أمام فرديناند الثالث، حتى آذنت شمس الموحدين بالمغيب، والربوع الأندلسية بالتمزق من جديد، حتى إذا ما أطل عام ١٢٣٢ ستكون السلطة الموحدية قد زالت من الأندلس، وبالمقابل،

فقد أنعمت نتائج تلك المعركة على النصارى بالتفوق المرموق، مما فرض على المسلمين الانتقال إلى خطط الدفاع حتى النهاية المقدورة (٥٥). وما أن حلت سنة ١٢٤٢ حتى رفض والي تونس عهــد الولاء للموحدين، مؤسساً بذلك حقبة الأسرة (الحفصية)، إلاّ أن دولة الموحدين لن تتداعى إلاّ عقب سقوط المغرب الأقصى في قبضة (المرينيين)، لكن هؤلاء، كما يقول لاكوست: " لم يستطيعوا مراقبة جنوبي إسبانيا، كما لم يستطيعوا توحيد كل المغرب " (٥٦). الذي أصبح منذ ذلك الحين، أي منذ منتصف القرن الثالث عشر ثلاث دول: الحفصية، المرينية، وبنو عبد الواد (الزيانية) في تلمسان في المغرب الأوسط. وسيبقى تاريخ المغرب حتى منتصف القرن السادس عشر، أي حتى مجيء العثمانيين، إنما هو جهد باطل لإحياء الماضي، كما يقول جوليان (٥٧).

سيأخذ الإسبان المسيحيون، تدريجياً، زمام المبادرة الهجومية، ستسقط قرطبة ١٢٣٦، وبعد أن تتوحد قشتالة وليون سيستولون على إشبيلية عام ١٢٤٨، ولن ينتصف القرن الثالث عشر إلاّ ويتم الاستيلاء على الأندلس بأسرها باستثناء غرناطة.

يبدو الأمر للمراقب التاريخي، أنه كان هناك نوع من التناظر بين التقدم المسيحي في شبه الجزيرة الايبيرية، والتقدم الإسلامي في شبه جزيرة الأناضول. أو نوع من توازن القوى على الصعيد العالمي بين الطرفين، بشكل يصبح فيه مصير الأندلس، ومصير بيزنطة قد تقرر فعلاً. فبدا المشهد العام للأحداث وكأن مايخسره طرف هنا سيربحه هناك. المسلمون يخسرون الأندلس ولكنهم يقتحمون القسطنطينية. الأوربيون (يستعيدون) إسبانيا ويخسرون بيزنطة، وكل ممتلكاتهم في البلقان. إسبانيا تهدد العالم الإسلامي

في أقصى الغرب: في الأندلس والمغرب، وفي شرق الأرض: في خليج البنغال. والعثمانيون يجتاحون القسطنطينية وشرق أوربا، ويقفون على مرمى حجر من قلب أوربا المسيحية، من روما عاصمتهم الدينية، ومن فيينا عاصمتهم السياسية " إن العلاقة بين الحدثين قائمة ومحسوسة حتى لحظة حدوثها، فالفاتح بعد استيلائه على القسطنطينية ١٤٥٣، لايخفي طموحه لاستئناف فتوحاته في قلب أوربا، وكان يقول إنه يريد أن يتابع طريقه إلى إسبانيا " (٥٨).

جاء زواج فردناند ملك أراغون بإيزابيل ملكة قشتالة سنة ١٤٦٩ بمثابة إنذار للسلطة الإسلامية في غرناطة، وبعد حصار طويل، يئست فيه غرناطة من قدوم النجدات عبر البحر، سلمت نفسها لفردناند بشروط، إذ، كما يقول ديورانت: " لم يجد أبو عبد الله بداً من توقيع شروط التسليم، التي تسمح لأهل غرناطة، أن يحتفظوا بإيمانهم ولغتهم وزيهم ودينهم وشعائرهم، ولهم أن يحتكموا إلى شريعتهم وقضاتهم " (٥٩).

لن يطول الأمر بفرديناند لينكث بعهده، إذ انتدب عام ١٤٩٩ الكاردينال (زيمس دوسيستروس) لحمل المسلمين على التنصر، في نفس العام أشعل هذا الكاردينال المحارق العامة التي ستلتهم نيرانها الكتب والمخطوطات العربية التي وصلت اليد إليها في غرناطة. كما يقول ديورانت (٦٠). وأصدرت الإرادة الملكية عام ١٥٠٢ بأن على كافة المسلمين في قشتالة وليون الرجوع عن دينهم أو الجلاء عن البلاد. ولقد وصف الراهب (بليدا) هذا المرسوم الهمجي بأنه " أمجد حادث في تاريخ إسبانيا منذ عهد الرسل " (٦١).

وفي سنة ١٥٢٦ جابه مسلمو أراغون المعاملة نفسها، وفي عام ١٥٥٦ أصدر (فيليب الثاني) تشريعاً يأمر البقية الباقية بترك لغتهم وأنظمتهم

وعاداتهم، وسيهدم الحمامات باعتبارها تراث من العهد الإسلامي، أما عدد الذين انتُزعوا من بلادهم قتلاً ونفياً، من سقوط غرناطة إلى العقد الأول من القرن السابع عشر، فيقدره البعض بثلاثة ملايين شخص (٦٢).

العالم الإسلامي بأسره اهتز لروع المأساة الأندلسية، أوقف بايزيد الثاني العثماني، والأشرف قايتباي المملوكي خصوماتهما على الإمارة الحدودية البستان (ذي القدر)، وتوصلا إلى خطة مشتركة: يرسل ــ حسب محتواها ــ بايزيد الثاني أسطولاً لغزو صقلية التابعة لملك إسبانيا، وتبعث السلطنة المملوكية الجند مع مشاركة إفريقيا الشمالية العربية عبر جبل طارق إلى الأندلس.. غير أن هذه الخطة لم تر النور (٦٣). اكتفى السلطان المملوكي بالرسائل إلى البابا (أنوصان الثامن) وإلى ملك نابولي، وإلى فرديناند وإيزابيل ملكي قشتالة وأراغون، يطلب من الأخيرين الرحيل عن بلاد المسلمين وإلاّ فإنه سيحذو حذوهم في معاملة المسيحيين والأحبار في القدس، ويمنع النصارى كافة من الدخول إلى الأراضي المقدسة (٦٤). أما العثمانيون، وجواباً على بعثة غرناطة عام ١٤٨٥، قرَّر الباب العالي، أيام بايزيد الثاني عام ١٤٨٦، إرسال أسطوله إلى غرب البحر المتوسط " فاجتاح البحارة العثمانيون بقيادة كمال علي باشا، وهو ريّس شهير، شواطئ إسبانيا وإيطاليا ومالطا. ومنذ ذلك التاريخ خاضت السفن الحربية العثمانية، وبعض السفن التجارية حرباً متواصلة ضد القوات البحرية للدول الأوربية " (٦٥).

منذ ذلك الحين، ستظل السفن العثمانية راسية بصورة دائمة في مياه غرب المتوسط، وسيتحول بعض الرياس العثمانيين إلى أبطال شعبيين حقيقيين، أحيطوا بهالة رومانسية كمناضلين ومدافعين عن الشريعة، يُستقبلون في موانئ المغرب العربي.

وكانت القواعد الرئيسية للقرصنة العثمانية، التي كانت تعتبر بمثابة قواعد جهاد ضد الكفرة الذين طردوا الأندلسيين، تدفع إلى الحكام المحليين خمس الغنائم، أو يوزعونها، أحياناً على الفقراء، مما دفع المؤرخ الأمريكي (أ. هس) إلى القول بوجود علاقات مهمة بين العثمانيين وقادة المغرب الشعبيين والدينيين، وكل من يخوض الجهاد (٦٦).

بقيت " المسألة الأندلسية " قضية حية في ذهن المخططين العثمانيين حتّى مستهل القرن السابع عشر. فإذا كان سليم الأول قد اتجه شرقاً لتحجيم الدور الصفوي إن لم يستطع القضاء عليه، ولضم بلاد العرب شرق المتوسط، فسليمان القانوني سيدفع بكل خططه نحو الغرب، باتجاه السيطرة على البحر الأبيض المتوسط، ولكسب المعركة الاستراتيجية على أرض أوربا نفسها ضد خصمه في الطرف الأوربي: الامبراطورية الرومانية المقدسة، التي تعتبر الذراع الأقوى لأوربا المسيحية، والتي تضم الآن معظم أوربا بما فيها إسبانيا وصقلية. وجزء من إيطاليا وألمانيا، والأطراف الساحلية للمغرب العربي. كان سليمان يخطط، ضمن استراتيجيته البعيدة المدى، للوصول إلى إسبانيا ليعيدها إلى (دار الإسلام)، كما كان يخطط بالتعاون مع (حليفه الصغير) ملك فرنسا بالانقضاض على إيطاليا والسيطرة على روما، وهو الذي دق أبواب (فيينا) مرتين.

في سياق تداوله الأمر حول خططه الكبرى، تمكن (خير الدين بربروسا) من إقناعه، أنه لابد، أولاً، من استرجاع تونس من الإسبان، وتثبيت الأقدام العثمانية على ساحل إفريقيا العربية قبل الإقدام لاستعادة الأندلس. وقد وافق (سليمان القانوني) على خطط خير الدين، وزوده بـ (٨٤) سفينة حربية وسفن نقل وجنود إنكشارية (٦٧). استمر الاسطول الجزائري بقيادة الأخوة بربروسا، والرَّيّس العثمانيين في اعتراض السفن الإسبانية في عرض

المتوسط، وفي الانقضاض على موانئ العدو، وفي نقل الذخائر الحربية إلى (الموريسكيين)، وخاصة بعد انتفاضتهم في (فالنسيا)، وإخراج عشرات الآلاف من اللاجئين.

وقد قام (خير الدين بربروسا) شخصياً بسبع رحلات بحرية إلى شواطئ إسبانيا، وتمكن من إنقاذ (٧٠) ألف أندلسي، الذين أصبحوا فيما بعد،ومعهم المسلمين من أصل أوربي، الركيزة الأساسية للنظام العثماني، وللإدارة العثمانية (٦٨).

لكن الأمر سيأخذ منحى آخر في عهد سليم الثاني (١٥٦٦ ــ ١٥٧٤) حيث ستبدأ في زمنه دوامة انحطاط قمة السلطة العثمانية، والتي ستستمر لنصف قرن، إذ، سيتجه باهتماماته نحو الشرق، على الرغم من أن الظروف قد تهيأت له لإنجاز خطط والده سليمان القانوني بعد أن حرر العثمانيون، بالتعاون مع الأهالي، ساحل المغرب العربي من الاحتلال الإسباني، وقد انضم بمجمله تقريباً للسلطنة العليا مما هيأ للعثمانيين ميزة استراتيجية كبرى في غرب المتوسط. إلاّ أن سليم الثاني بدل هذا، انقلب بخططه، سيتورط، أولاً، في حرب مع البندقية حول قبرص، مما يدفع البندقية، مرغمة، على مد اليد إلى إسبانيا والبابا وكل أوربا للوقوف ضد العثمانيين. فدخل سليم الثاني معركة معهم في (برنتانو)، معركة، هي خاطئة استراتيجياً وخاسرة عسكرياً، قبل أن يذهب نحو معركة الاستنزاف مع الصفويين في الشرق.

هـ ــ إزاحة الخطر عن المغرب العربي:

بعد رجحان كفة البرتغاليين والإسبان في شبه الجزيرة الايبيرية، انتقلوا، على الفور، إلى ماوراء البحر. البرتغاليون أنهوا مايسمى بحرب الاستعادة ١٢٦٧ قبل الإسبان بقرنين ونصف تقريباً، إذ أن الأخيرين سينتظرون حتى عام ١٤٩٢ ليربحوا غرناطة.

كلاهما اندفع بروح صليبية ظاهرة إلى التوسع على حساب عرب شمال إفريقيا. البرتغاليون احتلوا سبتة عام ١٤١٥ (٦٩)، ثم طنجة، وأغادير، وصافي، على الأطلسي. ووصلوا إلى مقربة مراكش. وحين فشل (الوطاسيون)، الذين خلفوا المرينيين، سيحل محلهم الأشراف (السعديون)، سيغالب هؤلاء، وحدهم، أو بالتعاون مع العثمانيين الاحتلال البرتغالي.

أتى دور الإسبان بعدهم، دي بيجو القرطبي، عام ١٥٠٤، غزا ميناء ملقة، وعدة ثغور بين سبتة ووهران. إستولى (بدرونافارو) عام ١٥٠٨ على بنيون، حجر باديس، وقتحم أسوار وهران، قاتلاً أربعة آلاف وأسر ثمانية آلاف، وحوّل المساجد إلى كنائس.

سيدخل الإسبان بجابه عام (١٥١٠)، تحت إشراف الكردينال (كليمنس) وينقلون مافيها من تحف ونفائس، بعد أن يهدموا القصور والمساجد. ثم سيستولون في نفس السنة على طرابلس الغرب. وسيخضع لهم تنيس، وديليس، وشرشال، ومستغانم، وأيضاً مدينة الجزائر، وسيجبرون صاحب تونس الحفصي على دفع الجزية (٧٠).

سيطر الإسبان، خلال بضع سنوات على نقاط رئيسية في سواحل المغرب الأوسط، في وقت كان فيه المسرح المغربي موات لهذا الاجتياح: تفكك شامل، إعادة تجديد الانحطاط، وزعماء محليون يفتقرون للتطلعات الكبرى، ولقد لعبت المصادفات التاريخية، وتقاطعها دورها في هذا الإضعاف. إذ، توافق، من قبل، في القرن الحادي عشر، الاجتياح الهلالي للمغرب، مع بروز دور النورمانديين في صقلية والمتوسط، فتحولا، كل على حدة، إلى عنصر تهديم مشترك لدولة المغرب العربي، وأيضاً للحياة المدينية. كما تواقت، لاحقاً، هجوم القشتاليين والمرينيين على الموحدين، مع ذلك، ظل

المغرب العربي، حتى القرن الرابع عشر، يحتفظ بنوع من توازن القوى مع الطرف الآخر من البحر المتوسط، إلاّ إن هذا التوازن سينهار مع فاتحة القرن الخامس عشر (٧١). ولقد شخّص سكرتير ملك إسبانيا الأمر على حقيقته، في تقريره لمليكه، عام ١٤٩٥ الذي قال فيه: " إن البلاد (يقصد شمال إفريقيا) في حالة يبدو وكأن الله يريد أن يمنحها لجلالتكم " (٧٢).

كان الخطر جاثماً ولابد من وقفه. وعندما أدرك الأهالي هذا الأمر مدوا أيديهم إلى العثمانيين بدون تردد. وبدا الحال لهم، كما يقول سيديو: " إنه مثلما حل الترك بآسيا محل العرب كحماة للإسلام، أوشك أن يقع هذا الأمر في إفريقيا، فالحق إن ذلك الدور كان أعظم أدوار سلاطين الآستانة.. وإن سليمان القانوني وحده كان قادراً على حماية إفريقيا من سلطان شارلكان المرهوب"(٧٣).

قبل أن يبلغ العراك أشده بين إسبانيا الإمبراطورية والعثمانيين في عرض المتوسط وعلى شطآنه، كان هناك قراصنة تابعين للعثمانيين، مارسوا في البحر القرصنة ضد السفن التجارية والبحرية للفرنجة، وشجعوا المقاومة والجهاد ضد المحتل، أبرزهم (عروج) كان قد عرف بمساعدته للمسلمين الأندلسيين ضحايا محاكم التفتيش في عام ١٥١٤، وبكفاحه ضد الإسبان، مما أكسبه ـــ مع أخيه خير الدين ـــ نفوذاً لدى المغاربة، وخاصة لدى الزعماء الدينيين، وقد أقام العلماء، والمرابطون، بشكل عام، علاقة وثيقة مع القراصنة العثمانيين وعلى رأسهم عروج، وخير الدين بربروسا. وصارت " وحدها فكرة الانتساب إلى عالم العثمانيين كانت كافية لبعث العطف العميق نحوهم، إذ كان الناس ينتظرون الخلاص على أيديهم " (٧٤).

اتخذ الأخوة بربروسا (عروج ـــ خير الدين) من (جربة) قاعدة لقرصنتهم، وكانا يدفعان للسلطان الحفصي في تونس خمس الغنائم، مقيمين

أوثق العلاقات مع الأهالي والعلماء. سيحاصرا (بجابه) عام ١٥١٢ ويدخلاها بمساعدة الأهالي عام١٥١٥بعد أن استنجد بهما حاكمها وعلماؤها وأعيانها (٧٥). سيمثل استيلاؤهما على مدينة الجزائر ١٥١٦ أول انتصار كبير لهما على الإسبان، حيث استنجد بهما أهلها بواسطة رئيسهم (سالم التومي) عندما رفضوا أداء يمين الولاء لملك إسبانيا. واستقبلتهم الأهالي استقبال المحررين (٧٦)؛ وكانت نواة جيشهما من العثمانيين والأندلسيين والمسلمين من أصل أوربي مع فصائل من الفلاحين.

ردَّ (شارل الخامس) امبراطور النمسا وحاكم إسبانيا، والأراضي المنخفضة وإيطاليا وصقلية، على الأخوة بربروسا بتجهيز حملة كبيرة، التي ستحاصر تلمسان عام ١٥١٨، وبعد معركة دامية استشهد فيها (عروج) فاحتفظوا بقفطانه المضرّج بدمه، الذي اعتبره الإسبان غنيمة عظيمة، في أحد أديرة قرطبة. فانتقلوا بأسطولهم بعدها مباشرة لينزلوا على شاطئ الجزائر، ولكن شجاعة (خير الدين) الذي خلف عروج في القيادة، وهوج العواصف تكفلت بهزيمة الإسبان.

على الرغم من النصر فقد بقي الوضع مهدداً، عندها قرّر خير الدين بالإتفاق مع رجال الدين والأهالي بتوجيه رسالة إلى السلطان سليم الأول، يطلب فيها بسط الحماية العثمانية على الجزائر (٧٧). فسارع سليم الأول بقبول العرض، ومنح خير الدين لقب بكلربك (= بك البكوات) وأرسل له قوة انكشارية مزودة بالمدافع، وخوّله حق تجنيد متطوعين مع منحهم امتيازات الانكشارية.

ستظل الحرب قائمة، بين كر وفر، مع تقدم مستمر لصالح العرب والعثمانيين، فإذا سيطر الإسبان من جديد على الجزائر عام ١٥٢٠ فإن خير الدين سيعود إليها عام ١٥٢٥، وسيبسط سلطانه على القلعة الإسبانية المواجهة

في عام ١٥٢٩، فهيأ بذلك ميناء الجزائر ليكون ملجأ لأسطوله، وأصبح بإمكانه من هذا الموقع الاستراتيجي بين المضيق الصقلي ومضيق جبل طارق، أن يراقب، ويقطع على العدو أقرب الطرقات المباشرة بين مضيق جبل طارق والمتوسط الشرقي، وبين جنوب إسبانيا وجنوب إيطاليا (٧٨). سيزداد تعاون الدولة العثمانية ومساعدتها للقوى المناوئة للإسبان في عهد سليمان القانوني (١٥٢٠ ــ ١٥٦٦)، الذي استدعى خير الدين بربروسا عام ١٥٣٥ إلى الآستانة، وعينه قائداً للأسطول العثماني، وسيرسم معه الاستراتيجية الكبرى للبحرية العثمانية.

وسيحل مكان خير الدين في الجزائر أحد معاونيه (حسن آغا)، أما في الجانب الإسباني فإنهم احتاجوا إلى هزيمة شنيعة لحملتهم الكبرى عام ١٥٤١ وبقيادة شارل الخامس نفسه يرافقه دوق ألبا الشهير، و(كورتيز) فاتح المكسيك، حتى يقرّوا بواقع فقدانهم للجزائر. ومن هذا التاريخ، ستصبح الحياة مقبولة في الجزائر. ويرى عدد كبير من المؤرخين أن الاحتلال العثماني كان أفضل بما لايقاس من المرحلة الفوضوية التي سبقته، لأن الرعية حصلت خلاله على هدوء وأمن نسبيين، وإن النموذج الذي اعتُمد في التنظيم العسكري والإداري هو نفسه المُتبع في مصر العثمانية.. فأصبح أفراد الجيش والجهاز البيروقراطي يتقاضون الرواتب من الخزينة، ولم يطبق نظام الملكية الإقطاعية الصغيرة، وأعلنت الأرض وغيرها أملاكاً للسلطان، واهتموا بالفلاحين، وبالمحافظة على أحوال الجسور والطرق ومنشآت الري، وبناء المساجد، وخانات القوافل وغيرها من المرافق (٧٩).

ارتدى الصراع على تونس طابعاً لايقل حدة عما في الجزائر. فالسيطرة على المثلث (تونس، مالطا، طرابلس الغرب) بالإضافة إلى الجزائر اكتسى أهمية حاسمة بالنسبة لنتائج المواجهة بين الإسلام، ممثلاً بالدولة

العثمانية، والمسيحية، ممثلة بالامبراطورية الرومانية المقدسة، وخاصة على جبهة غرب المتوسط. فإن كان شارل الخامس يطمح إلى تثبيت مواقعه، هنا، لضمان شواطئ امبراطوريته في إسبانيا وصقلية، ومالطا، وإيطاليا، فالعثمانيون إنما استهدفوا، بالإضافة إلى حماية إفريقيا العربية ـ الإسلامية، تهديد أكثر بلدان العالم المسيحي تقدماً وجبروتاً في عصر النهضة: إيطاليا، إسبانيا، والتحكم في أطراف المتوسط، وتقوية موقعهم القيادي للعالم الإسلامي.

في مواجهة العدوان الإسباني الذي قاده (بيدرو دي نافارو) عام ١٥١٠ على الجزائر، وقد استولى في طريقه على بجابه وطرابلس الغرب، وجزيرة جربه، لم يحرك السلطان الحفصي أبو عبد الله محمد الخامس (١٤٩٤ ـ ١٥٢٦) ساكناً، إذ، لم يبق من صرح الحفصيين، خلفاء الموحدين، سوى أطلال من القوة لاتكفي حتى لإقرار النظام، ناهيك عن حماية الوطن.

انتصار القرصنة العثمانية، تحت إمرة الأخوين بربروسا، على الإسبان في قرقنة، والمهدية والجزائر، عززت من مهابتهم لدى الأهالي، فتحول (العثمانيون) إلى جزء من الحركة المعادية للإسبان في تونس.

ستحصل القطيعة بين العثمانيين والسلطان الحفصي محمد الخامس عام ١٥١٥، وسيزداد الأمر سوءاً عندما ينحاز خليفته وابنه مولاي حسن (١٥٢٦ ـ ١٥٤٣) إلى الإسبان، وفرسان القديس يوحنا في مالطة.

في عام ١٥٣٤، سيدخل (خير الدين بربروسا) بتأييد من الأهالي مدينة تونس معلناً نهاية الأسرة الحفصية. وتحت ضغط العناصر المؤيدة للعثمانيين، سارعت صفاقس والمهدية وعنابة وغيرها من المدن التونسية إلى الالتحاق بحكم العثمانيين.. فانصرف خير الدين إلى تنظيم شؤون الإدارة مستوحياً الأنظمة المطبقة في الجزائر.

لما كان من الصعب على (شارل الخامس) أن يستوعب ماجرى، أو يرضخ له، بعد أن غدت (صقلية)، التي كانت تطعم بقمحها نصف أوربا، بالإضافة إلى ترانتو، وكالابدي، تحت التهديد، سيلبي نداء السلطان الحفصي المعزول على الفور، معتبراً هذا النداء فرصة العمر. سيقود أسطولاً إلى تونس، والذي كاد أن يُهزَم لولا خيانة (جعفر آغا) الذي تظاهر كذباً باعتناقه الإسلام، فحرر الأسرى المسيحيين، ووجه مدافع قلعة تونس على خير الدين ورجاله، سيدخل (شارل الخامس) تونس، بعد شهرين من المقاومة البطولية، فأعملت قواته سلباً ونهباً بعاصمة الحفصيين، ودمرت المساجد والمدارس، وحطمت النقوش الفنية، وأتلفت الكتب النادرة. وأحرقت مكتبة أسرة عبد الواد. ومن بين (١٨٠) ألف من السكان. قتلوا ستين ألفاً وأسروا مايماثلهم (٨٠) مبرهنين على أن أوربا لم تخرج بعد من عصور الهمجية المظلمة!

فوق كل هذا الركام من الدمار والمآسي، استلم السلطان الحفصي السلطة بالنيابة عن شارل الخامس، وبشروط ملؤها الإذلال والخيانة.فبقيت سلطته لاتتجاوز مدى القذائف الإسبانية، وظلت المدن الساحلية والجريد والجنوب التونسي على سابق ولائها للباب العالي.

لم تهدأ المقاومة التي سيتزعمها (طورغوت رئيس) أحد المقربين من خير الدين، وهو على خطا الأخير سيؤسس سلطة انتفاضة ستعترف بها، على الفور، الآستانة. وفي عام ١٥٤٠ بدأت سوسه، وصفاقس، وغيرها من المدن الساحلية بطرد الحفصيين واستقبال العثمانيين، فغدا مولاي حسن الحفصي في عزلة تامة في مدينة تونس، التي سيقرر مصيرها النهائي رجحان القوى في غرب المتوسط. وعندما استقر الحال لصالح العثمانيين بهزيمة فرسان مالطة، تقرر في الواقع مصير تونس وأصبحت ولاية عثمانية، سمحت للعثمانيين التحكم بالمضيق الصقلي وبتهديد إيطاليا، وبالمواصلات في غرب المتوسط.

تكرّر الأمر نفسه فيما يخص تحرير ليبيا من قبضة الإسبان، وفرسان مالطة، فمنذ الاحتلال الاستيطاني لطرابلس الغرب عام ١٥١٠ لم تتوقف المقاومة الوطنية، ولن يطول الحال بالعثمانيين حتى تقصف سفنهم، عام ١٥١٢ ــ ١٥١٥، التحصينات الإسبانية أكثر من مرة. وسيتم التعاون العثماني مع المجاهدين الليبيين، واستقبل الأهالي العثمانيين في كل مكان كمحررين. وقد وصل عام ١٥٢٠ وفد من سكان (تاجورا) إلى الاستانة ملتمساً المساعدة العسكرية من السلطان سليم الأول قبل وفاته، فأرسل الأخير فيصلاً من المتطوعين.

بعد تحويل (تاجورا) إلى مركز لدولة طرابلس المحررة، سيكرر القائد العثماني (خير الدين قرمان) تجربة خير الدين بربروسا في الجزائر. وبعد استيلاء العثمانيين على بريفيرا ١٥٣٨ والجزائر عام ١٥٤١، أصبح الأسطول العثماني سيد الموقف في البحر المتوسط، وسينزل هذا الأسطول في (١٥) آب عام ١٥٥١ على بر طرابلس ليطهرها من فرسان مالطة. وعُيِّن (مراد آغا)، زعيم المنتفضين الليبيين، أول بكلربك على ولاية طرابلس الغرب.

خلال حكم البكلربكوات الأوائل: مراد آغا (١٥٥١ ــ ١٥٥٦ وطورغوت رئيس (١٥٥٦ ــ ١٥٦٥) وعلج علي (١٥٥٦ ــ ١٥٦٨) ستوضع الأسس العامة للنظام العثماني الجديد. فيتشكل ديوان الولاية، ويتأسس مركز الإنكشارية، على غرار الجزائر (٨١).

انجزت ،أسرة الشرفاء السعديين، في المغرب الأقصى، عملية إجلاء البرتغاليين بمساعدة العثمانيين أحياناً، وبالاستقلال عنهم أحياناً أخرى. ولكن ظل وجود العثمانيين في المتوسط، وفي الجوار قوة إسناد حقيقية. وسيتخلى العثمانيون عن خطط احتلالهم للمغرب مع سماعهم نبأ الانتصار الصاعق

الذي أحرزه المغاربة على البرتغاليين في وادي المخازن سنة ١٥٨٧.. فأرسل حاكم الجزائر العثماني وفداً للتهنئة، كما أرسل السلطان العثماني مراد الثالث (١٥٧٤ ــ ١٥٩٥) وفداً مماثلاً (٨٢).

كان العامل الرئيسي لمواقف الامبراطورية العثمانية من أحداث شمال إفريقيا العربية، هو دعم كل مامن شأنه تقوية موقعها باتجاه الأطراف الأوربية النافذة: إسبانيا الامبراطورية، وإيطاليا البابوية، ودعم سيطرتها على البحر الأبيض المتوسط وخطوط تجارته الدولية، والدفاع عن وجهها المدافع عن الإسلام كممثل وقائد للعالم الإسلامي.

كان الصراع الإسلامي ــ العثماني / المسيحي ــ الغربي هو محور التناقض الرئيسي الذي حدد بالعمق أسس السياسات وأعطاها محتواها، في إطار غلبة هذا الصراع المركزي يمكننا فهم الصراعات الإقليمية والمحلية في تلك الحقبة. لقد وقف العثمانيون مع أي طرف محلي ناجَزَ الغرب وقارع العدوان الغربي. وحاربوا، بالمقابل، كل من سهل لهذا العدوان، أو تواطأ معه إلى الدرجة التي نستطيع فيها القول: لم يقف احد ضد الغرب إلاّ ووجد المساندة من العثمانيين، وما وقف طرف ضد العثمانيين إلاّ ووجدنا في أحد جوانب سياسته بعداً يدل على تواطؤ مع الغرب، أو التحالف، المُعلن أو المضمر معه. وتلك الحقيقة، أو القاعدة ظلت سائدة حتى نهاية القرن الثامن عشر، في سياق هذه السياسة الكبرى استفاد المغرب العربي الكبير من السند العثماني. إذ، لعب هنا دور الحامي الفعلي للإسلام، وللعروبة. لقد أظهر العثمانيون، في بداية ضمِّهم للبلاد العربية، وجههم (الحامي) على حساب الوجه (الجابي) والخراجي. ولم يتدخلوا في الشؤون الداخلية التفصيلية، إذ، تركوا الشأن الداخلي للسلطات المحلية العثمانية، يقول هاملتون جيب في هذا

السياق: " فالدايات المنتخبون انتخاباً محلياً، في كل من الجزائر وتونس وطرابلس، كذلك أشراف مكة، كانوا يعترفون بسيادة السلاطين الذين كانوا يثبتونهم في مراكزهم. ولكن لم يكن أحد من هؤلاء يدفع الجزية، بل على العكس كانوا جميعاً يتسلمون الهدايا من الباب العالي. وفي حالة الدايات كانت هذه الهدايا غير منتظمة، وكانت تقدم على شكل عتاد حربي. أما الأشراف فقد كانوا موضع التبجيل ليس فقط لأنهم حكموا مكة قبل التوسع العثماني دهراً طويلاً، بل أيضاً لكونهم من نسل النبي(ص) لذا كانت الهدايا التي ترسلها إليهم الدولة سنوياً تسلم لهم عند وصول ركب الحج"(٨٣).

هكذا استقر الوضع للعالم الإسلامي في القرن السادس عشر: الدولة العثمانية ضمَّت تحت جناحيها الأناضول والعالم العربي، وأقرَّ بتبعيته المباشرة لها خانات القرم، كما سيظهر تأييده ودعمه لها المغول الأكبر في دلهي (٨٤).

تم للعثمانيين دفع الخطر الغربي عن البلاد العربية، وتمتع العالم الإسلامي في ظلهم بسلام خارجي استمر حتى أواخر القرن الثامن عشر. لم يتعرض العالم العربي خلال هذه الحقبة لغزوات أوربية، باستثناء محاولات ليست مثمرة، حيث في القرن الثامن عشر سيفرض أسطول روسي حصاره على ميناء بيروت وصيدا، ويتعرض العراق لغزوات إيرانية لكنها ردّت. ويمكن أن نقول مع غرايبه: " لولا الحماية العثمانية لما كان العراق الآن عربياً، ولما اختلف مصيره عن مصير عربستان"(٨٥).

ولقد رفض المؤرخ المغربي (ابن دينار) أن يرى في السيادة العثمانية أي نوع من الطغيان، ويضع الفتح العثماني في خانة المبدأ السياسي القائل: إن الرضوخ للظالم أفضل من الاضطرابات والفتن.

ستغدو الدولة العثمانية ــ مع القرن السادس عشر ــ في موقع المحور للعمل الإسلامي، يؤرقهم فقط الانشقاق الصفوي، شعر معها العالم العربي بقوة الحماية العثمانية، وبفائدة تعزيز الاستقرار الذي سيتبعه الازدهار النسبي، إذ ستشهد الامبراطورية العثمانية، كما يقول (لابيدوس): " نهوضاً أثر الفتوحات في الأناضول والبلقان والمشرق العربي. فتوسعت المدن وصار هناك العديد من المدن الكبرى، ونشطت الملكيات الكبيرة للأراضي، كما نشطت التجارة، وازدهرت الحرف التي كانت لها منظمات أنشأتها الدولة " (٨٦).

ويؤكد د. اندريه ديمون ضد الآراء المتداولة، فكرة الازدهار العمراني في الأقاليم العربية التابعة للعثمانيين، في القرن السادس عشر والسابع عشر. إذ يلاحظ أن الدول العربية، التي ضمها العثمانيون في القرن السادس عشر ،كانت تسير بشكل واضح نحو الانحطاط، فجاء العثمانيون ليجعلوا هذه الدول المتهافتة مجموعة واحدة من حدود المغرب إلى تخوم إيران ومن سهوب روسيا الجنوبية حتى النمسا واليمن " داخل هذه المجموعة المترامية الأطراف، انتشر الرجال والأموال، فكانت هناك سوق واسعة للتبادل التجاري فتحت أبوابها للأقاليم التي تميزت بموقعها الجغرافي على أطراف التجارة الكبرى. ذلك هو شأن سوريا ومصر على نحو خاص، وهما على مفترق الطرق بين أوربا وإفريقيا وآسيا، وقام كلاهما بإعادة توزيع السلع الواردة من العرب (كالأشياء المصنوعة بخاصة الأقمشة والمنتجات الشرقية: كالتوابل والمنسوجات. حتى تلك الظاهرة التي تمثلت باجتياح الأوربيين للمحيط الهندي خلال السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر، والذي كان لها آثارها البعيدة فيما بعد، فإنها لم تفلح في تهديد النفوذ التجاري للقاهرة وحلب تهديداً مستمراً. أما تحويل التوابل إلى الطرق البحرية التي أشرف عليها الأوربيون، فقد ظل

تأثيره جزئياً، ولم تكن له إلاّ آثار متدرجة في خطورتها. وبخصوص القاهرة فإن ارتقاء سلعة جديدة، مثل القهوة، إلى المصاف الأولى من السلع المتبادلة بكميات كبرى منذ القرن السادس عشر داخل الامبراطورية العثمانية وفي اتجاه أوربا قد حقق بديلاً تجارياً للتوابل لم يكن في الحسبان " (٨٧).

ويقدم لنا دليلاً بالأرقام على هذا الازدهار، من تطور عدد الخانات والقيساريات في المركز التجاريُ لمدينة حلب المسمى (المدينة) إذ صار عدد الخانات ستة وثمانين حوالي ١٦٨٠ وعدد القيساريات بلغ ١٨٧، أما مساحة هذا المركز (السوق) المسى (المدينة) فصارت مساحته ٩,٢ هكتار في مطلع القرن التاسع عشر، بعد أن كانت ٣,٩ هكتاراً تقريباً في مطلع القرن السادس عشر. وكانت مساحة حلب ٢٣٨,٥ هكتار عند الاحتلال العثماني، وأصبح ٣٤٩ هكتار في القرن التاسع عشر بزيادة ٤٦% (٨٨).

ومن علائم ازدهار دمشق إنه في عام ١٥٤٨ بلغ الدخل من احتساب "مقاطعة دمشق" وحدها ستماية ألف اقجة، بينما بلغ الدخل من ضرائب السوق، ومن قوافل الحجاج أربعمائة وخمسين أقجة. وعندما بلغ دخل (احتساب مقاطعة) السلطان، في عام ١٥٥١، بالإضافة إلى ضريبة الخانات (٣٣١٦٨٨) أقجة، نستطيع أن ندرك وضع سوريا الاقتصادي عام ١٥٤٨ ــ كما يقول ديمون(٨٩).

رد الخطر الخارجي والشعور بالأمن والحماية، وتأمين الاستقرار الداخلي، والازدهار النسبي بالإضافة إلى الشعور بالأخوة الإسلامية، الذي يؤكده التزام الدولة بالشريعة الإسلامية، وبالدفاع عن الإسلام. هذا كله، جعل هذه الدولة تحظى بالشرعية اللازمة التي تمنح العربي هوية مواتية، تجعله يحس من خلالها وكأنه يعيش في (بيته) وليس غريباً عنها، وإن هناك خيط مشترك يربطه بهذه الدولة، وهوية مشتركة بينهما بحيث لايشعر العربي عند

انتمائه لهذه الدولة بأي انتقاص من هويته القومية أو وضعه القومي، وهو الذي يعرف أن الإسلام هو التعبير الأكبر عن هويته العربية، أليس (الإسلام) مشروعه الأكبر، ورسالته الكبرى إلى الإنسانية ؟!.

وهاهي الدولة العثمانية تقدم نفسها له كممثلة للإسلام وحامية له، وخالقة وضعاً مناسباً لحياته ومعاشه. فإن ظهر أي انتقاص لانتماء العربي لهذه الدولة، أو أي انتقاص لمشاعره القومية العربية فإنه لن يظهر قبل القرن التاسع عشر عندما يبلغ التدهور في هذه الدولة منتهاه، عندما لم تعد قادرة على بسط حمايتها للعرب والمسلمين، وعاجزة أمام الاجتياح الغربي: للجزائر، لعدن، للخليج.. وعندما يصل بها الأمر إلى حد الاستقواء بالغرب لتحطيم تجربة (محمد علي باشا) الذي كانت (دولته) موضوعياً بمثابة دولة أكثرية العرب. في ذلك الحين وحده ستغدو الدولة العثمانية وكأنها طرف بين أطراف أخرى يمكنها أن تلعب دورها الخاص ضمن العالم الإسلامي، يضاف إلى هذا الضعف والركود للعثمانيين بروز نخبة تركية مشبعة بنزعة عرقية شعوبية تحاول الانتقاص من دور العرب البارز في تاريخ الإسلام والعالم.

في ذلك الوقت فقط، ومع بروز هذين العاملين: التقهقر العثماني وبروز النزعة "الطورانية" التركية المتعالية، يضاف إليهما شعور العرب بالخطر القادم من الغرب ستظهر النزعة القومية العربية، أما قبل هذا، وحتى نهاية القرن الثامن عشر، فقد كانت الدولة العثمانية بنظر العرب تحمل كامل الشرعية، وتقدم لهم موقعاً مناسباً، وهوية مطابقة.

صحيح، إنه لايمكن النيل من مكانة السلطان العثماني ضمن (جسم الدولة)، إلاّ أن هذا لايعني إنه كان مطلق الصلاحية، على الأقل من الناحية النظرية، " إذ أن النظام العثماني جعل من الشريعة الإسلامية قيداً شديداً على

السلطان لايستطيع خرقه أو مخالفته، فكان على السلطان أن يحصر جهوده في تكييف مسائل الدولة والدنيا مع قواعد الشريعة الإسلامية.

وكان للالتزام بالشريعة الإسلامية أثره الكبير أيضاً في كبح جماح القوى الاجتماعية في الدولة ومنعها من احتكار الامتيازات.. لأن مبدأ المساواة المطلقة بين جميع المسلمين يمنع الأساس الاجتماعي من نشوء هذه التكتلات الخطرة. إضافة إلى النظام المعروف (بالتيمار) والذي يمنع توريث الملكيات الإقطاعية في الأرض، جعل من المستحيل نشوء طبقة إقطاعية أو أرستقراطية ثابتة"(٩٠).

في ظل هذه الأوضاع، كان بإمكان العرب، مثل غيرهم، أن يتعرفوا على هويتهم، وأن يجدوا لها موقعاً مناسباً في إطار هذه الدولة، التي لم تعاملهم كرعايا من الدرجة الثانية. فهناك ظاهرة بارزة في النخب الحاكمة هي طابعها (الأممي) أو (الكوسموبولوتي)، فإذا غضضنا النظر عن الأصول التركية لسلاطين آل عثمان، فإننا واجدون أن أغلبية النخب الحاكمة ذات أصل غير تركي، يدل على هذا، أن الصدور العظام، الذين يحتلون المركز الثاني بعد السلطان في سلّم السلطة، ويرأسون الديوان أثناء غيابه، إن هؤلاء الذين تعاقبوا على الحكم خلال ازدهار الامبراطورية العثمانية (١٤٥٣ – ١٦٢٣) كانوا ثمانية وأربعين، خمسة منهم فقط يجري في عروقهم الدم التركي أما الباقون فكان توزيعهم على الشكل التالي / (١١) ألباني، (١١) صقلبي (= سلافي)، (٦) يونانيين، جركسي واحد، إيطالي واحد،أرمني واحد، كرجي (= جورجي) واحد، عشرة من أصل غير معروف(٩١).

وطلاب المدرسة السلطانية، التي تخرج النخب الحاكمة، صاحبة القلم، وصاحبة السيف: الصدور العظام، الولاة، موظفي القصر، حرس السلطان، زائد

المؤسسة العسكرية الانكشارية: القوة الضاربة للدولة. فقط كان طلاب هذه المدرسة ذوي أصول غير تركية، إذ كانوا يأتون بهم من الرعايا المسيحيين، ضريبة نظام (ديوشيرمه) تُؤخذ من أطفال الرعايا المسيحيين، الذين يفصلون نهائياً عن أهلهم وتتم أسلمتهم، وتجري لهم جراحة الختان، ويتلقون تدريبات عسكرية ودينية، ومبادئ الدين الإسلامي، فينشؤون على حب الدين الإسلامي والوطنية العثمانية. يقول لامب: "فالغلمان الموجودون في المدرسة* لم يكونوا أتراكاً بالولادة فقد كانوا أطفالاً أجانب من الألبان والصرب والسلاف ومن أهل الشمال ومن الكرج (= جورجيا) والشركس في الجبال الشرقية، ومن اليونان ومن ساحل البحر، وحتى من الكروات والألمان، وكان معظمهم من عوائل مسيحية.. والصبي المتفوق يعين آمراً لكتيبة سباهية أو قاضياً في الجيش أو خازناً أو وزيراً مثل (بري باشا).."(٩٢).

وكان الغلمان يصنفون إلى أصناف، الصف الأعلى يتخرج منه حجّاب السلطان، ويعد المرشحون لتولي أعلى مناصب الدولة والبلاط، والكثرة الغالبة من رؤساء الوزراء (٩٣).

ويعتبر (لامب): " إن خريجي المدرسة كانوا أعلى ثقافة (= زمن السلطان سليمان القانوني) في الممتلكات العثمانية، وكان تدريبهم أرقى من التلاميذ الغربيين في جامعتي باريس وبولونيا في ذلك الوقت) (٩٤). والمؤرخ الروسي لاحظ اللامبالاة المريعة للمجتمع العثماني حيال القضايا القومية.

من هذا كله، لم يشعر العرب عند التحاقهم بركب الدولة العثمانية انهم في وضع الشعوب المحرومة الحقوق أو المضطهدة. بل لاحظوا التبجيل

* أما من يتولى منصب الإفتاء والقضاء وإدارة الأوقاف والنظر في المسائل المتعلقة بتطبيق أحكام الشريعة، والتعليم.. فقد كان لهم نظام تعليمي خاص وهم من الأهالي المسلمين، والعرب.

والتقدير للغتهم العربية، والاحترام والتقديس لتقاليدهم ولتراثهم التاريخي. باللغة العربية كتبت أسماء السفن، والأقوال المأثورة على الأسلحة الشخصية والتذكارية. والرموز والشعارات تُنقش على رايات التشكيلات العسكرية باللغة العربية، ولم تعد تسمع الصلوات وتلاوة الآيات القرآنية إلاّ باللغة العربية.

وفي جميع أنحاء السلطنة تمتعت مدارس القاهرة، ومكة وحلب وطرابلس بنفوذ واسع، والتي كانت تخرّج عدداً كبيراً من العلماء والقضاة والمفتين (٩٥). وإن أمهات كتب الأتراك العثمانيين القانونية موضوعة ــ كما يقول بروكلمان ــ باللغة العربية (٩٦) ويروي الكثير من المؤرخين أن السلطان سليم بعد فتحه مصر والشام فكر جدياً أن يجعل اللغة العربية اللغة الرسمية للسلطنة بدلاً من التركية. فعاجلته المنية قبل إنجاز ما يخطط له. ويشير إلى ذلك (محمد كرد علي) قائلاً: " وروى المؤرخون أن السلطان سليم كان يريد أن يعمل عملاً نافعاً للأمة بأسرها، كان ينوي أن يجعل اللغة العربية لغة الدولة الرسمية بدلاً من التركية فعاجلته المنية قبل إتمام هذا العمل الجليل.. ولو وفق السلطان سليم إلى إنفاذ هذه الأمنية لخلصت الدولة العثمانية في القرون التالية من مشاكل كثيرة"(٩٧).

ولما كانت لغة القرآن والشريعة وعلوم الدين هي اللغة العربية فإن العلماء الأتراك كانوا يتتلمذون على يد علماء دمشق وحلب والقاهرة، وقد شكل (العلماء) ــ عرباً وتركاً مايسمى بالمؤسسة الدينية، تلك المؤسسة التي اعتبرها (بيري أندرسون) جزءاً من جهاز السلطنة العثمانية شكلت نوعاً من (التوسط) بين النخبة الحاكمة العسكرية والمدنية وبين المجتمع الأهلي (٩٨)، وهو مايسمح للمجتمع الأهلي بالتعبير عن نفسه، ومن إعادة تشكيل ثقافته ولغته الخاصة، فحافظ العرب على لغتهم وثقافتهم وهويتهم القومية بدون أي عائق يذكر.

هوامش: ترتيب البيت الإسلامي:

١ ــ د. وجيه كوثراني، الفقيه والسلطان، دار الراشد، بيروت ١٩٨٩، ص٦٤.

٢ ــ يذكر شمس الدين محمد بن طولون في حوادث عام ٩١١ هـ: " كان يومئذ قد وصل إلى دمشق من حلب وغيرها جماعة صحبتهم من الافرنج قيل أن معهم مكالمات مخبأة في عكاكيزهم من الفرنج إلى اسماعيل الصوفي "، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، جزء أول، تحقيق محمد مصطفى، وزارة الثقافة، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، ١٩٦٢، ص٣٤٣. وراجع أيضاً: محمد بن أحمد بن أياس الحنفي، بدائع الزهور في وقائع الدهور، جزء رابع، تحقيق محمد مصطفى، وزارة الثقافة، القاهرة، ١٩٦٠، ص٢٠٥، حيث يقول: " إن نائب البيره قبض على دواسيس من عند اسماعيل الصوفي.. يكاتبون ملوك الفرنج بأن يأتوا من البحر ويزحف هو من البر ". راجع أيضاً: وجيه كوثراني، الفقيه والسلطان، مصدر سابق ص٦٩. حيث يؤكد: إنه حتى في القرن السابع عشر زمن الشاه عباس، كيف لعبت علاقاته الدولية وسفاراته إلى الدول الأوربية آنذاك في التمهيد للانجليز باحتلال هرمز والاشراف على الخليج " كاتصاله بالبابا وبإسبانيا لتطويق الدولة العثمانية ومحاربتها ". انظر أيضاً: عبد الكريم محمود غرايبه: حيث يذكر: " وصل إلى هرمز سفير الشاه اسماعيل الذي تنازل عن هرمز مقابل وعد من البوكرك بمساعدته ضد الروم (= العثمانيين) " مقدمة تاريخ العرب الحديث، جزء أول، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٦٠، ص١٥.

٣ ــ د. وجيه كوثراني، الفقيه والسلطان، مصدر سابق ص٦٣.

٤ ــ عمر الاسكندري، وسليم حسن، تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى ماقبل الوقت الحاضر، مطبعة المعارف، القاهرة، ١٩٢٤، ط٦، ص٧.

٥ ــ انظر: جاك فريمو حيث يذكر: " والواقع أن صراعاتها (= الدولة العثمانية) مع جيرانها الفرس قد استهلكت من قوتها بقدر ما استهلكت فتوحات الأرض المسيحية " فرنسا والإسلام من نابليون إلى ميتران، ترجمة هاشم صالح، الأرض للنشر ١٩٩١، ص٢٠. ويقول د أحمد شلبي موافقاً كيرك: " كانت الحروب العثمانية الفارسية التي دامت من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر غير حاسمة أيضاً وأضعفت الدولتين معاً وعرضتهما لسطوة التجارة الأوربية " التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، مكتبة النهضة، القاهرة طبعة ثالثة، ١٩٧٩، ص ٥٢١.

٦ ــ صبحي وحيدة، المسألة المصرية، مكتبة مدبولي، القاهرة، بدون تاريخ، ص١٢٣ / ١٢٥.
راجع: جورج كيرك، موجز تاريخ الشرق الأوسط، سلسلة ألف كتاب، ١١٤، عمر الإسكندري، مركز كتب الشرق الأوسط، دار الطباعة الحديثة، القاهرة، ص ٨١ / ٨٢.
راجع أيضاً: محمد عبد الله عنان، مصر الإسلامية، تاريخ الخطط المصرية، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٩١، حيث يذكر رواية العزيزي عن نهاية العصر المملوكي: " إذ أشار المقريزي إلى ماكان يهجس به مفكرو عصره من توقع انهيار صرح المجتمع المصري، وهو يرجع ذلك إلى ما وقع في عصره من: الفقر والفاقة، وقلة المال، وخراب الضياع والقرى، وتداعي الدولة للسقوط، وشمول الخراب أكثر القاهرة.. وقد تقلص ظل العدل، وسفرت أوجه الفجور، وكشف الجور أنيابه، وقلت المبالاة وذهب الحياء والخشية من الناس، حتى فعل ماشاء ماشاء ".
٧ ــ ينوه ك. م. بانيكار: " إن البرتغاليين كانوا في غضون عصر الاكتشافات تخامرهم دون أدنى ريب روح الصليبية الأولى " آسيا والسيطرة الغربية، دار المعارف بمصر، وزارة الثقافة، ١٩٦٢، ص١١. راجع أيضاً: نيقولا إيفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية، يوسف عطا الله، الفارابي، بيروت، ١٩٨٨، ص٣١.
٨ ــ الفتح العثماني، المصدر السابق، ص٣٣. راجع أيضاً: أحمد محمد عبيد بطي، الصراع البرتغالي العثماني في القرن السادس عشر، كتاب ندوة الثقافة والعلوم ــ ٤ ــ طبعة أولى، دبي ١٩٩١، ص٧٢/٧٤.
٩ ــ محمد عبد الله عنان، مصر الإسلامية، مصدر سابق، ص٢٠١ / ٢٠٢.
١٠ ــ د. صبحي وحيده، المسألة المصرية، مصدر سابق، ص١٢٧. راجع أيضاً: إيفانوف، الفتح العثماني، مصدر سابق، ص٣٦.
١١ ــ إيفانوف، الفتح العثماني، المصدر السابق، ص٣٧. راجع أيضاً: عبد الكريم محمود غرايبه، مقدمة تاريخ العرب الحديث، مصدر سابق، ص١٨.
١٢ ــ د. ليلى صباغ، المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ١٩٧٣، ص١١.
١٣ ــ إيفانوف، الفتح العثماني...، مصدر سابق، ص٤٠.

١٤ ــ د. علي حسون، تاريخ الدولة العثمانية، حيث يذكر عن الجبرتي قوله: " وكانوا في صدر دولتهم من خير من تقلد أمور الأمة بعد الخلفاء المهديين وأشد من ذب عن الدين، وأعظم من جاهد في المشركين، فلذلك اتسعت ممالكهم " المكتب الإسلامي ١٩٨٠، ص٥١، وراجع أيضاً: إيفانوف، الفتح العثماني... مصدر سابق، ص٤٥ / ٤٦.

١٥ ــ ساطع الحصري، حيث يقول: " كان سلاطين آل عثمان يحرصون على نشر أخبار انتصاراتهم في مختلف الأقطار الإسلامية.. يرسلون وفوداً خاصة تحمل رسائل وهدايا، وتبين تلك الوثائق.. بوضوح تام النزعة الدينية الشديدة التي كانت تلازم أعمال الدولة العثمانية بإذاعة أخبار انتصاراتهم على الكفار.. على مختلف الأقطار الإسلامية بشكل عام، والبلاد العربية بشكل خاص، ولاشك أن ذلك كان يكسبها في تلك البلاد مكانة معنوية رفيعة ساعدت لاحقاً على استيلاء العثمانيين على البلاد العربية، وعلى دوام حكمهم لها " البلاد العربية والدولة العثمانية، دار العلم للملايين، بيروت، طبعة ثالثة، ١٩٦٥، ص٢٨.

١٦ ــ محمد كرد علي، حيث يذكر: " أحس الناس بما عرض للدولة من ضعف فأخذوا يتطلعون إلى الدولة المملوكية من ضعف فأخذوا يتطلعون إلى الدولة العثمانية التي كانت في أيام شبابها.. والناس لافرق عندهم إذا استولى عليهم الترك أو الأعاجم، وقد حكمهم أجناس من المماليك زمناً طويلاً.. ولافرق في الإسلام بين عربي وأعجمي في الحقوق والواجبات وأقصى ما يتطلبه الناس سلطان عادل ". خطط الشام، الجزء الثاني، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٢، ص٢٠٥. راجع أيضاً: أحمد صدقي شقيرات، إذ يشير: " بالنسبة للعرب الذين عاصروا الحكم العثماني فلم يشعروا بفرق كبير بين الخكم المملوكي السابق والحكم العثماني الجديد، فكلاهما مسلم، وغير عربي، وقد أبقى السلطان سليم الأول النظام الإداري في بلاد الشام على ماكان عليه " تاريخ الإدارة العثمانية في شرق الأردن، آلاء للطباعة، عمان ١٩٩٢، ص٢٨.

١٧ ــ إيفانوف، الفتح العثماني... مصدر سابق، ص ٩/١٠.

١٨ ــ ساطع الحصري، البلاد العربية والدولة العثمانية، مصدر سابق، ص٢٨.

١٩ ــ د. علي حسون، تاريخ الدولة العثمانية، المكتب الإسلامي، دمشق ١٩٨٠، ص٤١. راجع أيضاً: الدكتور محمود رزق سليم، الأشرف قانصوه الغوري، سلسلة أعلام العرب ــ ٥٢ ــ الدار المصرية للتأليف والترجمة، بدون تاريخ، ص١٣٠ / ١٣١.

٢٠ ــ برتولد شبولر، العالم الإسلامي في العصر المغولي، خالد أسعد عيسى، دار حسان، دمشق، ١٩٨٢، ص١٤٠ / ١٤١. ويذكر محمد بن إياس في حوادث ٩٢٠ هـ: " وكان في تلك الأيام ديوان المفرد، وديوان الدولة، وديوان خاص في غاية الانشحاح والتعطيل، كان بندر الاسكندرية خراب ولم تدخل إليه البضائع، في السنة الخالية، وبندر جده خراب بسبب تعبث الإفرنج على التجارة، في بحر الهند فلم تدخل المراكب بالبضائع إلى بندر جده نحو من ست سنين، وكذلك جهة دمياط " بدائع الزهور.. الجزء الرابع، مصدر سابق، ص٣٥٩. راجع أيضاً: عبد الكريم محمود غرايبه، مقدمة تاريخ العرب الحديث، جامعة دمشق ١٩٦٠، ص ١٢، إذ يذكر: " كانت أسواق مصر وسوريا عام (٩٠٤ هــ ــ ١٤٩٨ م) ملأى بالتوابل التي لاتجد لها مشترياً، لكن سفن البندقية لم تجد بعد أربع سنوات إلا أربع بالات توابل وعادت هذه السفن من السواحل العربية بدون حمولة عام (٩١٠ هــ ــ ١٥٠٤م) في حين كانت السفن البرتغالية تفرغ آلاف الأطنان في لشبونة لتوزع على أقطار أوربا ". راجع أيضاً: د. محمود رزق سليم، الأشرف قانصوه الغوري، مصدر سابق، ص٢٨٤.

٢١ ــ إيفانوف، الفتح العثماني... مصدر سابق، ص٥٩ / ٦٠. ويؤكد رضوان السيد: " على استمرار تقديم مساعدات عثمانية عسكرية للمماليك بدون مقابل في أكثر الأحيان حتى عام ١٥١٥ قبل عام ونصف من اصطدام سليم الأول بالمماليك في مرج دابق " د. رضوان السيد، مراجعة كتاب نهاية الدولة المملوكية، لكارل بيتري، الاجتهاد، العدد الخامس والعشرون، السنة السادسة، ص٢١٦. راجع أيضاً: عبد الكريم محمود غرايبه، حيث يذكر: " استنجد الغوري بالسلطان العثماني الذي بادر إلى إرسال مايحتاجه الغوري من أخشاب، ومواد مختلفة لازمة لبناء السفن... وبعد فشل حملة ١٥٠٨ أرسل إليه ٣٠٠ مدفع و١٥٠ سارية و٣٠٠٠ مجداف وعدد من الخبراء "، مقدمة تاريخ العرب الحديث، مصدر سابق، ص١٣ / ١٥. ويحدثنا ابن إياس عن أحداث سنة ٩١٦ هــ: " وفيه وصلت عدة مراكب من عند ابن عثمان ملك الروم فيها زردخاناه للسلطان فكان من جملة ذلك مكاحل (= مدافع) العدّه ثلاثماية، ونشاب ثلاثين ألف سهم وبارود مطيب أربعون قنطار.." بدائع الزهور.. جزء رابع، مسدر سابق، ص٢٠١.

٢٢ ــ محمد جميل بيهم، العرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب، دار النشر بدون، ١٩٥٧، ص٨٧. ويقول إيفانوف: " وقدم العثمانيون بديلاً موضوعياً للأزمة الأخلاقية

والاجتماعية التي عصفت بالعالم العربي في القرن الخامس عشر " الفتح العثماني، مصدر سابق، ص٥٥.

٢٣ ــ د. ليلى صباغ ، تذكر: " فالمظالم التي عانوها من حكم المماليك، والأزمة الاقتصادية التي رزحوا تحتها كانت دافعاً لهم للاستنجاد بالدولة العثمانية الإسلامية ــ السنية، فاتحة القسطنطينية، ومالكة أقوى جيش عرفته دولة آنذاك.. فتفاوضوا مع السلطان سليم على فتح بلادهم ". المجتمع السوري في مطلع العهد العثماني، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٧٣، ص١٠.

٢٤ ــ محمد كرد علي، خطط الشام، الجزء الثاني، مصدر سابق، ص٢٠٧ /٢٠٨. ويشير ابن طولون " إلى انه قد شاع بين الناس أن سبب توجه (السلطان سليم لملاقاة المماليك) بسبب أنه اطلع علىمطالعات من سلطاننا (= الغوري) إلى الخارجي اسماعيل الصوفي يستعينه على قتال ملك الروم سليم خان "، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان. القسم الثاني، مصدر سابق، ص٢٣. ويذكر توماس أرنولد: " ليس هناك شك في إن عواطف السلطان المملوكي كانت مع الشاه اسماعيل في الخلاف بين فارس وتركيا " أرنولد، الخلافة الإسلامية، جميل معلّى، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، بدون تاريخ، ص٨٤. راجع أيضاً محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية، مصدر سابق، ص٧٤ / ٧٧. راجع أيضاً: أمين شاكر، سعيد العريان، محمد مصطفى عطا، تركيا والسياسة العربية، دار المعارف بمصر، سلسلة اخترنا لك _١٠ _ ص٣٣. راجع أيضاً د. عبد العزيز محمد الشناوي، أوربا في مطلع العصور الحديثة، جزء أول، مصدر سابق، ص٥٨.

٢٥ ــ إيفانوف، الفتح العثماني، مصدر سابق، ص٦١. راجع ابن إياس، بدائع الزهور، جزء خامس، مصدر سابق، ص٢٨/٣١.

٢٦ ــ إيفانوف، الفتح العثماني، المصدر السابق، ص٦٢.

٢٧ ــ محمد كرد علي، خطط الشام، الجزء الثاني، مصدر سابق، ص٢٠٩.

٢٨ ــ د. فيليب حتى، د. ادوار جرجي، د. جبرائيل جبور، الجزء الثاني، طبعة رابعة، دار الكشاف، بيروت ١٩٦٥، ص٢٩. حيث يقول: " دخل السلطان سليم مدينة حلب ظافراً فاحتفل به الأهالي واعتبروه منقذاً من فظائع المماليك ". راجع أيضاً: محمد كرد علي، خطط الشام ، جزء ثاني، مصدر سابق، ص٢١١: " وافى السلطان سليم مدينة حلب فاستقبله أهلها بالمصاحف والأعلام يجهرون بالتسبيح والتكبير ".

٢٩ ـــ توماس أرنولد، يذكر: " عندما سمع إنه وصف في الخطبة في جامع حلب الكبير (بخادم الحرمين الشريفين) سجد شكراً لله. وأظهر بشره ورضاه، وخلع خلعة شريفة على الخطيب.." الخلافة الإسلامية، مصدر سابق، ص٨٨.

٣٠ ـــ فيليب حتى، تاريخ العرب المطول، مصدر سابق، ص٨٣١. حيث يذكر: " سواء أصبحت الدعوى القائلة أنه أوصى بالخلافة إلى السلطان سليم أم لم تصح، فالواقع هو أن أمير القسطنطينية التركي اكتسب تدريجياً امتيازات الخلافة ". راجع أيضاً: حول الالتباس الذي لف واقعة نقل الخلافة، كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، منير بعلبكي، منير أمين فارس، دار العلم للملايين ١٩٦٥، طبعة رابعة، ص٤٤٩. راجع أيضاً: د. فيليب حتى، العرب، دار العلم للملايين ١٩٨٠، ص٢٦٧.

٣١ ـــ يذكر ابن طولون: " وكان قد اجتمع قبل هذا اليوم شيخنا عبد النبي والشيخ الجنابي... وخلق كثير في المصلى بميدان الحصى واتفقوا هم ومشايخ الحارات على تسليم البلد " مفاكهة الخلان... الجزء الثاني، ص٢٨.

٣٢ ـــ د. عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون، طبعة أولى، مكتبة أطلس، دمشق ١٩٧٤، ص ٦٤/٦٥، ويذكر صبحي وحيده: " نفهم من إبن إياس أن المماليك احتفظوا بعد الهزيمة التي نزلت بهم وقتئذ بالإقطاعات التي كانت بيدهم، بينما كانت القوات العثمانية التي استقرت في مصر تتقاضى من الخزانة العامة مرتبات دورية، وكان كبار الموظفين، والقوات العثمانية يجمعون بين المرتبات الدورية والإقطاعات طوال المدة القصيرة التي يقضونها في البلاد " المسألة المصرية، مصدر سابق، ص١١١/١١٢.

٣٤ ـــ يذكر الجبرتي في عجائب الآثار: " ولما خلص له (السلطان سليم) أمر مصر عفا عمن بقي من الجراكس وأبنائهم ولم يتعرض لأوقاف السلاطين المصرية بل قرر مرتبات الأوقاف والخيرات والعلوفات وغلال الحرمين والأنبار، ورتب للأيتام والمشايخ والمتقاعدين ومصارف القلوع والمرابطين وأبطل المظالم والمكوس والمغارم... ولما توفي تولى ابنه الغازي السلطان سليمان عليه الرحمة والرضوان فأسس القواعد وأتم المقاصد، ونظم الممالك وأنار الحوالك، ورفع منار الدين.." عن د. علي حسون، تاريخ الدولة العثمانية، مصدر سابق، ص٥١.

٣٥ ــ إيفانوف ــ الفتح العثماني... مصدر سابق، ص٨٦.

٣٦ ــ راجع: أحمد محمد عبيد بطي، الصراع البرتغالي العثماني... مصدر سابق، ص١١٧. راجع أيضاً: إيفانوف، الفتح العثماني.... مصدر سابق، ص٨٩/٨٧.

٣٧ ــ عبد الكريم محمود غرايبه، مقدمة تاريخ العرب الحديث، مصدر سابق، ص٢٨ / ٢٩.

٣٨ ــ إيفانوف، الفتح العثماني... مصدر سابق، ص٨٩. ويذكر وجيه كوثراني: " دخل السلطان سليمان بغداد ٣٠ تشرين الثاني عام ١٥٣٤ بموكب مهيب.. لم يتأخر في استخدام رموز الخلافة العباسية في السياسة فأعاد بناء مقام أبي حنيفة مع جامع ومدرسة، وبنى منبر الشيخ عبد القادر الجيلاني، كما إنه بادر إلى انتزاع ورقة احترام مقامات أئمة أهل البيت من أيدي الصفويين. فزار الأماكن الشيعية المقدسة في بغداد والنجف، والكوفة وكربلاء مشيراً إلى موقف توحيدي استيعابي ميزه عن السلطان سليم "،الفقيه والسلطان، مصدر سابق، ص٥٣.

٣٩ ــ يروي عبد الكريم محمود غرايبه: " كان لبغداد تاريخها الخاص، فهي أكثر ولاء من غيرها للسلطان، يدفعها إلى ذلك ذكريات مرعبة عن أعمال الإيرانيين " مقدمة تاريخ العرب الحديث، مصدر سابق، ص٤٥.

٤٠ ــ أحمد محمد عبيد بطي، الصراع البرتغالي العثماني، مصدر سابق، ص١٩١. راجع أيضاً: إيفانوف، الفتح العثماني.. مصدر سابق، ص٩٠.

٤١ ــ إيفانوف، الفتح العثماني.. المصدر السابق، ص ١١٩.

٤٢ ــ يذكر الدكتور محمود رزق سليم، قانصوه الغوري، مصدر سابق، ص١١٨: " كان بينهم طوائف من المغاربة والتراكمة العثمانيين وكانت قيادة السفن إلى الريس (سليمان العثماني) وأبحرت الحملة في رجب ٩٢١ هـ ".

٤٣ ــ أحمد محمد عبيد بطي، الصراع البرتغالي العثماني، مصدر سابق، ص١٥٢. أيضاً: إيفانوف، الفتح العثماني.. مصدر سابق، ص١٢١ / ١٢٢.

٤٤ ــ إيفانوف، الفتح العثماني، المصدر السابق، ص١٧١.

٤٥ ــ د. إحسان الصوفي، تاريخ العرب في إسبانيا (١٠٣١ ــ ١٠٧٠) المطبعة التعاونية، دمشق ١٩٥٩، ص٢٤/٣٠.

٤٦ ــ المقري، من نفح الطيب،.وزراة الثقافة، دمشق ١٩٩٠، ص٢٠٠.

٤٧ ــ السيد عبد العزيز ساعد، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، دار المعارف، لبنان ١٩٦٢، ص٣٦٨.

٤٨ ــ عبد الله العروي، تاريخ المغرب، محاولة في التركيب، د. ذوقان قرقوط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ص١٧١. ويشير برنارد لويس: " كان أكثر العرب يقيمون في المدن، ويؤلفون كبار أتباع الارستقراطية " العرب والتاريخ، ترجمة نبيه فارس، حمد يوسف زايد، دار العلم للملايين، ٩٥٤، ص١٧٣.

٤٩ ــ محمد عبد الله العنان، للدولة العامرية وسقوط الخلافة الأندلسية، ط١، مصر، القاهرة، ١٩٥٨، ص٦٢ / ١٧٩.

٥٠ ــ المصدر السابق، ص١٧٩.

٥١ ــ جــ. ال. فرنشيسكو غابريللي، الإسلام والبحر الأبيض المتوسط، تراث الإسلام، شاخت، وبوزورث، ج١، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ص١٣٢.

٥٢ ــ عبد الله العروي، تاريخ المغرب، مصدر سابق، ص١٥٩.

٥٣ ــ ل.ا.سيديو، تاريخ العرب العام، عادل زعيتر، دار إحياء الكتاب العربي، القاهرة ١٩٤٨، ص٣٣٣.

٥٤ ــ عبد الله العروي، تاريخ المغرب، مصدر سابق، ص١٧١.

٥٥ ــ ل.ا.سيديو، تاريخ العرب العام، مصدر سابق، ص٣٤٧.

٥٦ ــ إيف لاكوست، العلامة ابن خلدون، د. ميشال سليمان، دار ابن خلدون، ط١، ١٩٧٤، ص ٢٤.

٥٧ ــ د. محمد خير فارس، تاريخ الجزائر الحديث، جامعة دمشق، ١٩٦٩، ص٦.

٥٨ ــ محمد خليفة، الإسلام والمسلمون في بلاد البلقان، مركز دراسات العالم الإسلامي، ط١، ١٩٩٤، ص٥٩. راجع أيضاً: شارل عيساوي، تأملات في التاريخ العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، ص١٧، حيث يشير إلى هذا التوازن في الأحداث.

٥٩ ــ ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الثاني من المجلد السادس ــ ٢٣ ــ ترجمة بدران، ص٧٠. راجع أيضاً: د. حتي، تاريخ العرب المطول، مصدر سابق، ص٦٥٨.

٦٠ ــ ول ديورانت، قصة الحضارة،الجزء الثاني من المجلد السادس، المصدر السابق، ص٩٦. وراجع أيضاً: د. حتي، تاريخ العرب المطول، المصدر السابق، ص٦٥٨.

٦١ ـــ ول ديورانت، قصة الحضارة، المصدر السابق، ص٩٧.

٦٢ ـــ د. فيليب حتى، تاريخ العرب المطول، مصدر سابق، ص٦٦٠.

٦٣ ـــ د. عبد القادر أحمد يوسف، العلاقات بين الشرق والغرب بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٩٦٩، ص٢٤٦. محمد عبد الله عنان، مصر الإسلامية، مصدر سابق، ص٢٠١.

٦٤ ـــ محمد عبد العنان، مصر الإسلامية، مصدر سابق، ص٢٠٢.

٦٥ ـــ إيفانوف، الفتح العثماني... مصدر سابق، ص٥٧.

٦٦ ـــ المصدر السابق، ص٩٥ / ٩٦.

٦٧ ـــ المصدر السابق، ص١٨٨.

٦٨ ـــ المصدر السابق، ص١١٢. راجع أيضاً: د. محمد خير فارس، تاريخ الجزائر الحديث، مصدر سابق، ص٢٧.

٦٩ ـــ برنارد لويس، السياسة والحرب، تراث الإسلام، شاخت. بوزورث، القسم الأول، تصنيف: شاخت وبوزورث، ترجمة محمد زهير السمهوري، عالم المعرفة، الكويت، ص ٢٩٠.

٧٠ ـــ د. محمد خير فارس، تاريخ الجزائر الحديث، مصدر سابق، ص٢٠. راجع أيضاً: محمد جميل بيهم، العرب والترك... مصدر سابق، ص٢٩٢.

٧١ ـــ عبد الله العروي، تاريخ المغرب، مصدر سابق، ص٢٢٧.

٧٢ ـــ د. محمد خير فارس، تاريخ الجزائر الحديث، مصدر سابق، ص١٦.

٧٣ ـــ سيديو، تاريخ العرب العام، مصدر سابق، ص٣٥٤.

٧٤ ـــ إيفانوف، الفتح العثماني... مصدر سابق، ص١٠٠. راجع أيضاً: د. محمد خير فارس، تاريخ الجزائر الحديث، مصدر سابق، ص٢٤.

٧٥ ـــ د. محمد خير فارس، تاريخ الجزائر الحديث، مصدر سابق، ص٢٤.

٧٦ ـــ عبد الله العروي، تاريخ المغرب، مصدر سابق، ص٢٤٩.

٧٧- محمد خير فارس، تاريخ الجزائر الحديث، مصدر سابق، ص٣٠. حيث يروي لنا عن ابن ضياف الأمر: " اضطر خير الدين إلى العزم على السفر لدار السلطنة العثمانية، فجمع العلماء والأعيان وفاوضهم في ذلك فمنعوه وتضرعوا إليه ألا يخرج من بينهم حتى تضع

الحرب أوزارها، وقال له العلماء: يجب عليك المقام بهذه البلدة الإسلامية (= الجزائر) لحمايتها، ولارخصة لك في تركها نهبة للمفترس، فأجابهم بأنه بقي منفرداً بلامعين من أخوته. وقد رأيتم مافعله بنا صاحب تلمسان من بني زيان، واستعانته علينا بغير أهل ملتنا حتى كفانا الله أمره. وصاحب تونس الحفصي لارأي له في نصرتنا وإعانتنا، وأسلمنا للعدو يمنع البارود، لولا لطف الله، فالرأي أن نصل أيدينا بالقوة الإسلامية، وهو السلطان سليم خان، وأن نعتمد عليه في حماية هذه المدينة، ولايكون ذلك إلا ببيعته، والدخول في طاعته، والدعاء له في الخطب على المنابر وضرب السكة باسمه لنتفيأ ظل حمايته، فاستكانوا لذلك، ورضوا به، وأعلنوا بالدعاء على المنابر، وكتبوا بذلك للحضرة السلطانية، وحمل له خير الدين هدية فاخرة ".

٧٨ ــ المصدر السابق، ص٣٣. وراجع: د. عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون، مصدر سابق، ص٧٧. وراجع: د. علي حسون، تاريخ الدولة العلية العثمانية، مصدر سابق، ص ٥٤ / ٥٥.

٧٩ ــ إيفانوف، الفتح العثماني... مصدر سابق، ص١١١.

٨٠ ــ المصدر السابق، ص١٩٧ / ١٩٨.

٨١ ــ المصدر السابق، ص ٢٢٥.

٨٢ ــ د. محمد خير فارس، تاريخ الجزائر الحديث، مصدر سابق، ص٥٣.

٨٣ ــ هاملتون، المجتمع الإسلامي والغرب، الجزء الأول، د. أحمد عبد الرحمن مصطفى، دار المعارف، القاهرة، ص٣٩. راجع أيضاً: توفيق برو، القومية العربية في القرن التاسع عشر، وزارة الثقافة، دمشق، ص١٠. حيث يقول: " إن العثمانيين لم يفرضوا على الولايات العربية الجديدة التي دخلت في حوزتهم، أثناء توسعهم في آسيا الصغرى والولايات العربية وبقية الأقطار الأوربية القوانين والأنظمة العثمانية الصرفة، بل كانوا يكتفون بعد إخضاعهم السكان بفرض سيطرتهم العسكرية والسياسية عليهم، ويتركون لهم مؤسساتهم القديمة، وحرية الاحتفاظ بلغتهم وعاداتهم وتقاليدهم ".

٨٤ ــ عمر الاسكندري، سليم حسن، تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى ماقبل الوقت الحاضر، مصدر سابق، ص٦.

٨٥ ـــ عبد الكريم محمود غرايبه، مقدمة في تاريخ العرب الحديث، مصدر سابق، ص٤٥.

٨٦ ـــ الفضل شلق، قراءة في كتاب ا.لابيدوس، الاجتهاد، العددان السادس والعشرين والسابع والعشرين، سنة سابعة، ١٩٩٥، ص٢٧٨.راجع أيضاً: برنارد لويس، السياسة والحرب، تراث الإسلام، مصدر سابق، ص٢٨٨. حيث يقول: " هذا الأمن والازدهار كان لهما دور كبير في جعل الفلاحين يقبلون النواحي الأخرى الأقل جاذبية في الحكم العثماني. وهما يفسران إلى حد كبير الهدوء الطويل الذي ساد الولايات العثمانية حتى تفجرت الأفكار القومية التي جاءت من الغرب ".

٨٧ ـــ د. أندريه ريمون، نمو مدينة حلب في القرن السادس عشر، بدر الدين القاسم الرفاعي، المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام، ج١، جامعة دمشق، ص١٩٦. راجع أيضاً: د. نيكيتا اليسييف، طرق المواصلات في بلاد الشام بين القرنين السادس عشر والعشرين، حيث يذكر انه بعد التحاق سوريا في موكب الدولة العثمانية: " انشئت الخانات الواسعة في بعض حواضر دمشق وحلب واستتب السلام وتواصل سبل الحجاج المسلمين والمسيحيين، وراح المسافرون والتجار يطوفون في جميع أرجاء البلاد، شأنهم شأن المبشرين والمبعوثين منذ أواخر القرن السادس عشر، وبخاصة القرنين السابع عشر والثامن عشر " المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام، مصدر سابق، ص٢٩١.

٨٨ ـــ د. نيليتا اليسييف، طرق المواصلات في بلاد الشام، مصدر سابق، ص١٩٧. إذ يقول: " كان العثمانيون يعنون عناية كبرى بالخانات القائمة على جوانب الطرق.. وإليهم يعود الفضل في بناء الكثير من الجسور وإعداد الينابيع ".

٨٩ ـــ نجاة غو بونج، الوثائق العثمانية المتصلة بسورية ودمشق، المؤتمر الثاني لتاريخ بلاد الشام، مصدر سابق، ص٩٩.

٩٠ ـــ محمد خليفة، الإسلام والمسلمون في بلاد البلقان، مصدر سابق، ص٧٣.

٩١ ـــ د. أحمد شلبي، التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٧، ص٥٠٩ / ٥١٠. راجع أيضاً: ايفانوف، الفتح العثماني... مصدر سابق، ص ٢٦٧. حيث يذكر: " كانت النخبة الحاكمة والجيش والإدارة تتمتع بطبيعة كوسموبولوتية، فكان أحد قضاة اسطنبول الأعلى فرنسياً، ومعظم الوزراء وكثير من كبار رجال حاشية

الباب العالي من أصل يوندي أو سلافي أو ألباني، وفي عهد سليمان العظيم فإن من بين كبار وزرائه التسعة، ثمانية من أصل غير تركي.. بعد أن اعتنقوا الإسلام ".

٩٢ ــ هارولد لامب، سليمان القانوني، شكري محمود نديم، شركة البرناس، بغداد، ١٩٦١، ص٥٨.

٩٣ ــ كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، مصدر سابق، ص٤٦٥. راجع أيضاً: عبد العزيز محمود الشناوي، أوربا في مطلع العصور الحديثة، ج١، دار المعارف بمصر، ١٩٦٩، ص٥٣٧، يذكر: إن مجموع الغلمان " يُقسمون إلى ثلاث مجموعات، مجموعة يشكل أفرادها وظائف الغلمان في القصور السلطانية.. والثانية يُعد أفرادها لشغل الوظائف المدنية الكبرى في الدولة، بعضهم يصل إلى منصب الصدارة العظمى... والمجموعة الثالثة يُعد أفرادها ليكونوا فرق مشاة في الجيش العثماني ويطلق عليهم الانكشارية ".

٩٤ ــ هارولد لامب، سليمان القانوني، مصدر سابق، ص٦٢.

٩٥ ــ إيفانوف، الفتح العثماني، مصدر سابق، ص٢٦٩.

٩٦ ــ بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، مصدر سابق، ص٤٨٢.

٩٧ ــ محمد كرد علي، خطط الشام، ج٢، مصدر سابق، ص٢٢١. راجع أيضاً: د. وجيه كوثراني، السلطة والمجتمع والعمل السياسي من تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٨، ص٤٣. راجع أيضاً: د. سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع الشامي في العصر العثماني، المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام، مصدر سابق، ص٢٤٤. حيث يقول: "ويقال أن السلطان سليم أدرك أن اللغة العربية بثرائها أقدر على خدمة مصالح الدولة من اللغة التركية، فأخذ بفكرة ــ بعد فتح الشام ومصر ــ في جعل اللغة العربية لغة دولته الرسمية.. لولا وفاته".

٩٨ ــ بيري أندرسون، دولة الاستبداد الشرقي، بديع عمر نظمي، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية ١٩٨٣، ص١٤. راجع أيضاً: د. وجيه كوثراني، السلطة والمجتمع والعمل السياسي، مصدر سابق، ص٤٢. راجع أيضاً: ساطع الحصري، البلاد العربية والدولة العثمانية، مصدر سابق، ص٣٢.

الفصل الرابع

من رجحان الموقع الإسلامي إلى توازن القوى
(القرن السادس عشر)

يمكن اعتبار القرن السادس عشر مفرقاً تاريخياً، انطلاقاً منه سيتقرر مآل توزيع القوى على طرفي العالمْ القديم، وفيه ستقع أشد المعارك البرية، والبحرية هولاً، والتي سيقف على نتائجها ميول مواقع الأطراف المتجابهة: الشرق الإسلامي ـــ العربي، والأوربي المسيحي.

امبراطوريتان، سيغطي عراكهما مسرح أحداث القرن السادس عشر: الامبراطورية الرومانية المقدسة، وعلى رأسها شارل الخامس، ومن بعده ابنه فيليب الثاني، والامبراطورية العثمانية بقيادة سليمان القانوني. ستتجابه الدولتان في البر والبحر، وكل منهما تقدم نفسها كحام لدين وحضارة. فشكلا بحق طرفي التناقض في معادلات الصراع الحضاري ـــ السياسي في فاتحة العصر الحديث.

في أوربا سيؤول أمر (الامبراطورية الرومانية المقدسة)، في مقتبل القرن السادس عشر، إلى شارل الخامس وريث ايزابيلا وفردناند، مما مهد للاتحاد بين إسبانيا و النمسا ـــ ألمانيا، وجعل من الممكن القيام بسياسة قوة عالمية حقيقية.

لقد جمع شارل تحت سطوته: إسبانيا راعية كولمبس، والنمسا وألمانيا، والقسم الأكبر من إيطاليا، وصقلية، ونابولي، والأراضي المنخفضة، ومستعمرات ماوراء البحار، وماكان بحوزته من الشريط الساحلي للمغرب العربي، قبل أن يطهره العثمانيون، فاكتسب بذلك سطوة جبارة جعلته يحتل موقع السيد في القارة الأوربية. إلى حد سيصاب بالضيق كل من البابا ليون العاشر، وفرنسوا الأول، وهنري الثامن، وحكام البندقية من تمركز تلك القوة الهائلة بيد رجل واحد في القارة.

وحده فرنسوا الأول عاهل فرنسا سينازع الامبراطور شارل السيادة على أوربا، في وقت كانت فيه القوى الأوربية الأخرى متشاغلة عن ذلك: فالبابوية غارقة في خوفها من العثمانيين، وتنافسها مع البندقية، ومجابهتها الانشقاقات الكنسية، والبرتغاليون منشغلون بمغامراتهم البحرية الكبرى لتطويق ديار الإسلام والبحث عن ثروات الشرق، وهنري الثامن منكفئ على مشاكل الإصلاح الديني التي أثارها في انجلترا، إلا أن هذا لم يمنعهم من إظهار ضيقهم بطموحات شارل لتوحيد أوربا، وأن يجعل من التاج الذي يلبسه تاجاً للعالم المسيحي(١).

جهود امبراطورية شارل لتوحيد العالم المسيحي، ستجابه سياسياً بشكل رئيسي من فرنسا، وسيهدد وحدة بنائها الاجتماعي ــ السياسي والمذهبي، الإصلاح الديني البروتستانتي. ذلك الإصلاح الذي امتزج بألمانيا، ودول شمال أوربا باللون القومي، سيضع أوربا على درب الحرب الأهلية لأكثر من مائة وخمسين عاماً.

فمنذ أن خسر فرنسوا الأول، أمام شارل الخامس، معركة انتخابه للعرش الامبراطوري " بدأت المنافسة المريرة التي جعلت غرب أوربا يعج بالاضطرابات، وكان موضوع الحرب من هو سيد أوربا، شارل أو فرنسيس، فأجاب الأتراك بل سليمان " (٢). هذا التنافس الكبير بين أسرتي آل الفالو الفرنسية، والهابسبورغ الامبراطورية، على زعامة أوربا، بشكل عام، وعلى السيطرة على شبه الجزيرة الإيطالية بشكل خاص " أُربك شارل الخامس أمام حركة الهرطقة في ألمانيا، التي وجدت ترحيباً من فرنسوا الأول (٣) ومن سليمان القانوني. فكان للصراع مع فرنسوا والانقسام الديني دورهما الفعال في إحباط جهود شارل لتوحيد أوربا كمقدمة لتصفية حسابه مع سليمان القانوني، إن كان على

جبهة المغرب العربي، أو جبهة المتوسط، أو بجبهة البلقان. فوراء الصرح الامبراطوري كانت أوربا، في العمق، تعاني التمزق والفرقة مع ظهور نويات الدولة القومية، والتمزق الديني ــ السياسي المتمثل بالإصلاح البروتستانتي الذي حطم هيبة الكنيسة الكاثوليكية (٤). ففي السنة التي فتح فيها سليم الأول مصر عام ١٥١٧، علق (لوثر) بنوده الخمسة والتسعين على باب كنيسة ويتبرغ مهاجماً البابوية بأقذع النعوت، مما زاد في تمزق أوربا المسيحية، وكان سليمان القانوني جاهزاً لاقتناص الفرصة، فمد يد العون لفرنسوا الأول، وللحركات الانشقاقية عن كنيسة روما، وقد شجع فرنسوا بدوره العثمانيين للاتصال بحلفائه البروتستانت في ألمانيا " ولاشك أن الضغط العثماني حوّل اهتمام آل هبسبورغ عن الانشقاق، مما وطد الاصلاح الديني في أوربا"(٥).

في القرن السادس عشر، كان الإسلام مايزال محصناً وقوياً، كان زمن أسرة المغول الزاهية في دلهي (١٥٥٦ ــ ١٧٠٧) التي تربطها علاقات طيبة مع العثمانيين، وزمن الصفويين في فارس، الذين تبادلوا الفرقة والعداوة مع العثمانيين، إلا أن لعهدهم زهوه الثقافي المشهود. وكانت حقبة نهضة (الدولة العثمانية) التي تبوأت موقع الزعامة للعالم الإسلامي، تفوقت من حيث الاتساع والقوة والنفوذ والغنى والمكانة العالمية، على خصمها في الطرف الآخر: الامبراطورية الرومانية المقدسة. فواردات الدولة العثمانية تعادل ضعفي واردات امبراطورية شارل الخامس: فقد كان السلطان سليمان القانوني، ولاشك في ذلك، أغنى ملوك أوربا، يتناول من رعاياه المسلمين العشر، ومن المسيحيين، ممن يخضع لسلطته، رسم الخراج: وهناك رسوم تفرض على الأملاك والعقارات، سواء أكان أصحابها مسلمين أم نصارى. كذلك كانت تصل إلى خزينة الدولة واردات المكوس، وغير ذلك " فلاعجب

أن تبلغ واردات السلطان سليمان من الأموال ضعفي ماكان يدخل خزينة الامبراطور شارل الخامس"(٦).

وإن القوة والمهابة التي تمتع بها سليمان، وامبراطوريته من ورائه لاتضاهيها أية قوة في عصره، ولاحتى قوة شارل الخامس. " فعندما حاول هذا الأخير التماس الصلح من سليمان بعد /فيينا/، رفض طلبه على الفور " (٧).

وسطوة الدولة العثمانية ومهابتها ووزنها العالمي مشهود، إلى الدرجة التي ترفَّع فيها العثمانيون عن تنصيب سفراء لهم في العواصم الأخرى، على أساس أنهم في غنى عن سائر الدول، وظلت هذه التقاليد مُتَّبعة حتى السلطان محمود الثاني في مطلع القرن التاسع عشر (٨) بالمقابل فسفراء الدول الأخرى ، يُفرض عليهم تقديم هدايا ثمينة، هي بمثابة جزية، قبل مثولهم أمام السلطان القانوني، وهو يأنف من الارتباط بمعاهدات مع ملوك النصارى، وهو يفضل بدلاً عنها ــ كما يقول شوفاليه ــ منح "الامتيازات"، لاعتقاده إن إلغاءها هو حق له يتصرف به متى شاء (٩).

وقد أجبر سليمان "الامبراطورية الرومانية" أن تدفع صاغرة الجزية له. وهو وإن لم يستطع الاستيلاء على فيينا، فإنه فرض الجزية على الارشيدوق فرديناند (الأخ الأصغر للامبراطور وملك النمسا) (١٠). وفي صلح براغ (١٥٦٢) اعترف الامبراطور فرديناند، الذي خلف شارل، بحكم سليمان للمجر ومولدافيا وتعهد بدفع جزية سنوية له (١١) وعندما منع الامبراطور مكسيميليان الثاني (= خَلَف فرديناند) الجزية على العثمانيين، حمل سليمان عليه عام ١٥٦٦ وأجبره على دفعها مجدداً (١٢)، وكما قال ديورانت: " لم يقدر الأباطرة المحافظة على السلام مع تركيا إلاّ بدفع جزية سنوية للسلاطين حتى عام ١٦٠٦ " (١٣).

مثلت مرحلة السلاطين العشر الأوائل العظام (١٢٩٩ ــ ١٥٦٦) حقبة الصعود والازدهار في التاريخ العثماني ، وقــد كان عهــد سليمان القانوني (١٥٢٠ ــ ١٥٦٦)، وهو آخر هؤلاء العشر الأوائل العظام، العهد الأكثر زهواً والأشد ازدهاراً واستقراراً ومناعة وقوة، في هذه الحقبة، ففي عهده "أصبحت الدولة العثمانية الأقوى بحرياً في المتوسط، والأشد ازدهاراً"(١٤).

وبما أن ازدهار الدولة العثمانية وغناها، قد ارتبطا إلى حد كبير (بالتوسع) الذي يجلب المال (الخراج أو الجزية) والموارد البشرية للجند (ضريبة الدم) لرفد الانكشارية، فسهَّل هذا، مع الزمن، اندماج فكرة الجهاد وروحها العقيدية، مع المصالح المادية لتقدم الدولة ورفاهها، وقوَّى من الطابع العسكري لها. وستظل هذه الدولة، حتى عهد سليمان متمسكة بفكرة العثمانيين القديمة " وهي أن الأمة يجب أن تنتظم للحرب، ولذلك فإن جميع الموظفين في جهاز الحكم كانوا يحملون رتباً في الجيش، ماعدا بعض السكرتيريين " (١٥).

ولأن كل شيء سُخر (للجهاد)، ولدعم المؤسسة العسكرية، أداة هذا الجهاد، انتظمت الحياة الاقتصادية، في ظل العثمانيين، لهذا الغرض: الجهاد، ولهذه القوة الضاربة: الجيش. لذا، فقد أخذت الدولة العثمانية في وقت مبكر جداً بالنظام الإقطاعي ــ العسكري " وكان هدف هذا النظام الرئيسي توفير أسباب العيش لفئات مختلفة من الجند بدلاً من النفقة عليهم " (١٦) وقد ساعد الإقطاع الحربي على التوسع في زراعة مساحة شاسعة من الأراضي، كما وفَّر للدولة في أوقات الحرب قوات الفرسان (التي كانت تبلغ أحياناً مائتي ألف) دون تحمل أي نفقات، كما خلصها من مرتبات العسكريين في كل الأوقات (١٧). ولقد ساهم افتقاد الفضة في هذا الخيار (١٨) كما ارتبط هذا بحاجات مجتمع آخذ في التوسع على حساب (دار الكفر) (١٩).

ولم يكن هذا النظام اختراعاً عثمانياً، فإن منح الإقطاعات لرجال محاربين قد ظهر مع انحلال الخلافة العباسية، وإن يكن طابعه ـــ في ظل النظام العثماني ـــ قد اقترب " من ذلك الذي اتخذه في عصر السلاجقة " (٢٠).

فكانت الحكومة العثمانية تطلب الخدمة العسكرية مقابل منح الإقطاعات وقد أنشئت الغالبية العظمى من هذه الإقطاعات لإعالة الفرسان (السباهية) وهذه الإقطاعيات تسمى: تيمار، وزعامات، تبعاً لقيمة الإيراد الذي تدره (٢١) أما الإقطاعات التي يفوق عائدها عائد الزعامات فتعرف باسم: خاص، وبعض الإقطاعات من هذا النوع ـــ وهي أكبرها جميعاً ـــ فهي ملك خاص للسلطان فتسمى: خاص همايون (٢٢).

ويتولى كبار ضباط السباهي حكم الولايات. وكان واجب السباهية أن يخرجوا إلى الحرب عندما يُدعون إليها لقاء الإيرادات التي يتمتعون بها، والتي تُجبى من العشور والرسوم التي تُفرض على الفلاحين (٢٣).

ومؤسسة (الإقطاع العسكري) هذه تختلف جذرياً عن الفيودالية الأوربية " فقد كانت الفيودالية الأوربية، ومؤسساتها الحقوقية ترتكز على ملكية الأرض، أما نظام (الإقطاع العسكري) فقد ارتكز على التبعية للدولة لا للسيد مالك الأرض. وكان الإقطاع (العسكري) يؤدي وظيفة للدولة مقابل حيازة مؤقتة للأرض " (٢٤).

وهكذا، تبوأ الجيش مكاناً بالغ الأهمية في الدولة، فعلاوة على مهنة الحرب كذراع مسلح للدولة، وما اتخذه من مواقع في سلّم الجهاز الإداري والسياسي، فهو احتل وظيفة المنظم للإنتاج الزراعي، وقابض على فائضه. فكان الفرسان (السباهية) يرابطون داخل (تيماراتهم)، وتعرف كل منطقة يديرونها (بالسنجق) أو اللواء، مما يظهر الوجه العسكري الحربي لهذه

الإدارة الإنتاجية، فتحشد الوحدات العسكرية عند نشوب حرب ما تحت راية (سنجق بك) أي (بك السنجق)، الذي يقود المنطقة أو السنجق، ويدير في الوقت نفسه شؤون فرسان السنجق (٢٥).

لقد ورث (سليمان القانوني) بالإضافة لنظام السباهي، وفرقة الفرسان السباهية، فرقة المشاة الانكشارية، التي كانت خيرة فرقة الجيش العثماني، التي كانت حصيلة (ضريبة الدم) المفروضة على مواليد الرعايا المسيحيين. إذ يأخذ نسبة من الأحداث المسيحيين ويخضعهم لتربية إسلامية مشددة، ثم ينخرطون في فرقة الانكشارية محترفين، ويحظر عليهم الزواج، أو تملك الأرض، أو تعاطي التجارة، أو أية مهنة أخرى. فكان أهم مايشغل بالهم، وخاصة الأوائل منهم، الجهاد والمحافظة على نظام السلطنة. وقد ارتبط بأوجاقاتهم الدراويش على الطريقة البكداشية.. فعُرف الانكشارية باسم الجندية البكداشية، وقد قام تنظيمهم على درجة مشابهة لتنظيم الأخويات الدينية الإسلامية(٢٦).

وكما يشير (جب): لما كانت الفتوحات العثمانية الأولى قامت بدوافع دينية، فإن الكثير ممن قاموا بها كانوا أعضاء في (الأخويات الدينية). من هنا فإن فرقة الانكشارية قد تأسست قبل أن يحدث الانشقاق والتمايز بين عقائد السلاطين وعقائد رعاياه المسلمين، أو بين الدولة والمجتمع الأهلي (٢٧).

حتى عهد سليمان القانوني، ظلت الروح الجهادية الكفاحية، والنزعة (الأخوية) عاملاً مؤثراً على أداء الدولة، وعلى مؤسستها العسكرية، وفي مقدمتها الفرقة الانكشارية. لذا، فإننا نجد، كما يقول بروكلمان: " إن جميع المصادر الأوربية حافلة بإطراء روح النظام التي تكشف عنها الجيش العثماني، فلم يكن فيها مكان للخمر أو القمار، أو البغاء، وهي آفات لم تسلم منها في يوم من الأيام جيوش أوربا لذلك العهد " (٢٨).

وتجمع المصادر الأوربية على تفوق العسكرية العثمانية بالمقارنة مع مثيلاتها الأوربية: نظاماً، وتسليحاً، وحشداً، حتى عهد سليمان. فكان أول جيش محترف في العالم، في وقت كان يسود فيه نظام الارتزاق على الجندية الأوربية. حيث يسود في أوربا نوع من (السوق) الدولية للجنود، يمكن لكل أمير أن يتزود منه، وكان أحسنهم السويسريون ويليهم الألمان"(٢٩) فامتلك العثمانيون " الجيش الثابت الوحيد الذي له اعتبار في أوربا.. وكانت منشآت السلاطين العسكرية في المدفعية والشؤون الهندسية والإمدادات والتموين فوق مستوى عصرهم"(٣٠).

ولاشك، أن العثمانيين ـــ كما يشير إلى ذلك إيفانوف ـــ في أواخر القرن الخامس عشر، ومطلع القرن السادس عشر، احتلوا موقع الطليعة بين جيوش العالم، وكانوا باعتراف الجميع " يملكون أفضل مدفعية في العالم، فكانت الأكثر إتقاناً من الناحية التكنيكية، إن لجهة عياراتها، أو لدقة التصويب فيها، وشملت مدفعية الحصار الثقيلة، ومدفعية الميدان، والمدفعية النقالة.. واقترنت التقنية العسكرية المتقدمة لديهم بالانضباط الصارم، والتنظيم الدقيق " (٣١).

وقد برهن رجال الجيش العثماني على مقدرة وكفاءة بالغين، وظلوا يعيرون الانتباه إلى أي كشف أو اختراع حربي جديد يحققه الأوربيون، ليدمجوه في آلتهم العسكرية الجبارة " مما أمن لهم التفوق الحربي، فقد كانوا أول من استعمل على نطاق واسع، الأسلحة النارية والمدفعية " (٣٢). وسيحافظ العثمانيون على تفوق مدفعيتهم حتى القرن السابع عشر، هذا التفوق الذي تأكد في عهد (محمد الفاتح)، الذي أمطر القسطنطينية أثناء حصاره لها عام ١٤٥٣، " بأكبر قصف مدفعي عرفه التاريخ، وقد قال أحد مؤرخي اليونان، منذ أن خُلق العالم لم يسمع شيء مماثل على ضفاف البوسفور " (٣٣).

واستقدم العثمانيون، من أوربا، كل ماهم بحاجة إليه من المدافع والمعادن والبارود، والإخصائيين، كعمال النسيج، وبناة السفن، والبحارة العاملين في صب المدافع، وفي أعمال الحديد، وصناعة الأسلحة، وراسمي الخرائط، وكان أول مايهم الأتراك فعله بعد فوزهم في معركة، وضع أيديهم على الفنيين بين الأسرى (٣٤).

أمسك سليمان بمصير (ديار الإسلام) في فترة التبدلات التاريخية الكبرى، التي سيشهدها لعالم، بدءاً من القرن السادس عشر، حيث سترسى الأسس الجغرافية ــ التاريخية لمشهد العالم الحديث. ولتبدل مواقع القوى الحضارية المختلفة فيه. وحاول سليمان ما أمكنه ذلك القبض على مصائر (ديار الإسلام)، إن لم نقل مصائر العالم القديم ــ المتوسطي برمته.

وكان آنئذ في حوزته أشد مدن العالم القديم ازدهاراً وصيتاً: بابل، نينوى، بغداد، دمشق، القاهرة، انطاكية، طرطوس، أزمير، نيقيه، مكة، بيت المقدس. وكان في حوزته حوض البحر الأسود، فتحكم في مصبات الدانوب، والدنيبر، والدنيستر. ورقدت خلف سليمان الطرق المائية التي تحمل التجارة من آسيا الغربية، وأمامه فيما وراء القلاع الحجرية للدردنيل، البحر الإيجي المزركش بالجزر، التي أصبحت الآن عثمانية، بعد أن كانت قبلاً يونانية. وهو بعد أن قبض على (رودس)، في شرق المتوسط، بدأ ينازع الإسبان على غرب هذا البحر، وعلى شبه الجزيرة الإيطالية. ودانت له البلقان حتى غدت (فيينا) نقطة الحدود مع الغرب، وماكان يفصله سوى قفزة واحدة عبر الادرياتيكي لتصبح إيطاليا البابوية في متناول يديه. وهو بعد أن اخترق أوربا من وسطها أصبحت روما، العاصمة البابوية، وفيينا العاصمة الامبراطورية، مهددتان بشكل جدي. ولكن ذهنه ظل مشدوداً إلى غرب المتوسط، وإلى شبه

الجزيرة الإيبيرية، وقد كان على اتفاق مع (بربروسا)، إنه بعد أن يهيء القواعد اللازمة لأساطيله في شمال إفريقيا، بعد تحريرها من الإسبان، عليه الانقضاض على إسبانيا لاسترجاع الأندلس، وليضرب هناك مركز الخطر الأكبر الذي غدا يهدد العالم الإسلامي الآن، حيث يندفع الإسبان والبرتغاليون بأساطيلهم لتطويق (ديار الإسلام) من الأطلسي مروراً، مصادفة، بأمريكا، أو عبر الرجاء الصالح، يحدوهما هدف واحد الوصول إلى البحار الهندية وللسيطرة على (التجارة الشرقية) وإضعاف (بلاد المسلمين). وكان يشد أزره حلفاؤه خانات القرم يحمون شمال البحر الأسود، ويترصدون العدوان القادم من الروس، وهو على علاقة وطيدة مع أباطرة (الهند) المسلمين في (دلهي)، الذين مدَّ لهم يد المساعدة لمواجهة الخطر البرتغالي البحري. فوحد (الجبهة الإسلامية) من (كلكوتا) حتى غرب المتوسط، فلا يؤرقه إلا موقف الفرس ــ الصفويين المعادي، فلم يستطع الوصول إلى وفاق معهم، ووقفت وعورة الجبال، والمسافة الشاسعة، حائلاً بينه وبين القضاء عليهم.

وكان لهذا الانقسام العثماني ــ الفارسي دوره الكبير في إحباط خطط العثمانيين لمواجهة أوربا المسيحية، والتقدم على حسابها. فبقي العالم الإسلامي تنقصه الوحدة، في أخطر الظروف التاريخية من عام ١٥٠٨ لغاية ١٦٣٨، فأفاد العالم الأوربي ــ المسيحي من هذه الفرقة، حيث سيضطر سليمان القانوني لقطع هجماته على الغرب، لمواجهة الخطر على الجبهة الفارسية. وفي ذلك كتب سفير فرديناند (ملك النمسا) في القسطنطينية بحق: " إن فارس هي التي تقف حائلاً بيننا وبين الدمار"(٣٥).

وكما مد سليمان يده إلى فرنسوا الأول لمحاربة الامبراطورية المقدسة، فإن شارل الخامس، رأس هذه الامبراطورية، سيمد، بدوره، اليد إلى فارس

الصفوية " وفيما بين عامي (١٥٢٥ ــ ١٥٤٥) عاود شارل المفاوضات مع فارس المرة بعد المرة، بافتراض التنسيق بين المسيحيين والفرس للوقوف في وجه سليمان " (٣٦).

وقد أجج الصفويون حدة الخلاف المذهبي داخل الصف الإسلامي، بالإضافة إلى مافعلوه على الصعيد السياسي: " فقبل إعادة تنظيم المذهب الشيعي على أيدي صفويي إيران خلال القرن السادس عشر لم يكن التمييز واضحاً بين معتقدات كل من المذهبين: السني والشيعي " (٣٧).

وكانت الدولة المسيحية مستعدة للإفادة من مثل هذا العداء. فكما كانت فرنسا، في عهد ملوك أسرة (لافالو) تسعى للتحالف مع العثمانيين، لكي تطوق بهم أسرة هابسبورغ من الخلف، كانت أسرة هابسبورغ تحاول عقد علاقات مع الإيرانيين لكي تجبر العثمانيين على البقاء بدون حركة ضدها في آسيا. ومنذ عام (١٥١٨) قام الملك لويس الثاني عشر، ملك المجر، بالكتابة إلى (الصوفي) الشاه اسماعيل، وبعد موقعة (موهاكس) طلب شارل الخامس علناً من السلطان (طهماس) التدخل. وفي عام ١٥٧٨ جاءت المفاتحات هذه المرة من إسبانيا ــ فيليب الثاني ــ من أجل عقد تحالف ضد العثمانيين. ومن جانبه قام الشاه بإرسال سفراء إلى البابا وإلى الأمراء المسيحيين من أجل تشجيع سياسة الحروب الصليبية. ولكن الجيوش الفارسية لم تقدر على الحصول على انتصار، فتراجعت إلى الحدود في جورجيا وفي أذربيجان (٣٨).

واستغل الشاه عباس عام ١٦٠٢، انشغال الدولة العثمانية بالحرب ضد النمسا، فهاجم أرمينيا، عندها وجد الباب العالي نفسه مضطراً إلى القتال على الجبهتين، ضد الفرس، وضد النمساويين (٣٩) وكان من نتائج هذه الحروب المتعاقبة بين الفرس والأتراك " أن رفعت الخطر التركي عن الغرب " (٤٠).

وسليمان الذي قاد أعظم دولة في هذه الحقبة، كان يعرف مايريد أن يفعله تماماً، بعد أن بدا له المعترك العالمي واضحاً وجلياً، فهناك الاحتكاك المباشر مع الغرب، في منطقة البلقان، جبهة بودا ـــ فيينا، أي الجبهة النمساوية ـــ المجرية، وهناك جبهة شبه الجزيرة الايبيرية / المغرب العربي. وبين هاتين المنطقتين يرقد البحر الأبيض المتوسط يرمق، مراقباً، تبدل مواقع القوى على جوانبه. وعلى كلتا الجبهتين: فيينا، إسبانيا، يتوجب على سليمان مواجهة نفس العدو: الامبراطورية الرومانية المقدسة. التي جمعت بين جوانحها إسبانيا، وألمانيا، وإيطاليا، والأراضي المنخفضة، ومستعمرات ماوراء البحار. وظلت المشكلة الكبرى التي تواجه سليمان في هذه الحقبة، هي محاولة التوفيق بين متابعة الضغط باستمرار على جبهة المتوسط: جبهة فيينا، وإسبانيا، لإضعاف الغرب في أقوى مواقعه، واسترجاع مواقع المسلمين في الأندلس، ومواجهة أخطار التطويق البرتغالي البحري من الخلف، أو لمقاومة أخطار الاستنزاف الصفوي من البر الشرقي. فكثيراً ما اضطر العثمانيون للإنثناء عن حروبهم في أروبا، والانكفاء ليواجهوا منافسة البرتغاليين، بعد أن اشتدت مزاحمتهم لهم في الأسواق التجارية الشرقية، أو ليعالجوا الأزمات الاقتصادية التي كانت تشتد حلقاتهم حولهم، على أثر الجفاف والقحط الذي كان ينزل ببعض الولايات العثمانية.. وزادت هذه الأزمات عنفاً في السلطنة العثمانية، وفي ولاياتها في إفريقيا الشمالية العربية، من جراء سيطرة البرتغاليين على سواحل القارة الإفريقية، واصطفائهم لحسابهم الخاص، لفترة من الزمن، الذهب الإفريقي، وغير ذلك من محاصيل القارة السوداء، مما أدى إلى هبوط فاضح في الحركة التجارية مع أقطار المغرب العربي، وطرابلس الغرب، ومصر نفسها، كما انخفضت حركة

التجارة البحرية بين المرافئ الإفريقية القائمة على الساحل الشرقي لجزيرة العرب. كما نتج عن ذلك كله تناقص فاضح في النقد الذهبي في العالم الإسلامي المتوسطي (٤١).

وكسياسي كبير، ذي بعد عالمي، أخضع سليمان .القانوني لأغراضه الاستراتيجية تحالفاته الأوربية والكونية، فأقام أوثق العلاقات الممكنة مع (فرنسا) عدوة الامبراطورية الرومانية، ومنافسها الرئيسي على صعيد أوربا. وقدم العون لكل الاتجاهات المذهبية المنشقة عن الكنيسة الكاثوليكية." فأرادت السلطنة أن تستفيد من هذه الحروب المذهبية القائمة بين الكاثوليك والبروتستانت، وسعت لبناء علاقات مميزة مع البروتستانت، مبينة لهم التشابه بين البروتستانتية والإسلام " (٤٢) ومستثمرة سياسة التسامح الديني التي تنتهجها على أرضها، واحترامها حقوق الطوائف المسيحية في شرق البلقان، حتى إن الأقاليم التي وقعت تحت حكمها: رودس، اليونان، البلقان " فضلت هذا الحكم على أحوالها السابقة في ظل حكم الفرسان (الداودية) أو البيزنطيين، أو البنادقة، حتى بلاد المجر نفسها، ارتأت أن الأحوال فيها صارت تحت حكم سليمان إلى أحسن ماكان عليه أيام آل هبسبورغ " (٤٣). وسمح العثمانيون لأتباع كالفن بحرية التبشير في هنغاريا.. بينما بقيت الأجزاء الخارجة عن نفوذهم تابعة للكاثوليك. وقد وعد السلطان سليمان الأمراء اللوثريين في البلاد المنخفضة، وغيرها من المناطق الخاضعة للإسبان، بالدعم العسكري، بسبب مقاومتهم البابا والامبراطور (الهابسبورغي). بالمقابل دعا البروتستانت الفرنسيين (= الهوغونت)، في النصف الثاني من القرن السادس عشر، فرنسا إلى العودة إلى سياسة التحالف مع العثمانيين. من هنا ردة الفعل القوية عند العثمانيين لدى سماعهم نبأ

مجزرة (سان برتولمي) ضد البروتستانت عام ١٥٧٢ (٤٤) وفي رسائلهم إلى الزعماء اللوثريين في فلاندر وغيرها من المقاطعات الإسبانية، شجب السلاطين العثمانيين الكاثوليكية، التي ترفض الإسلام كما ترفض اللوثرية. ودعوا زعماء الانتفاضة الهولندية لتنسيق أعمالهم مع مسلمي إسبانيا ومع كل الذين يقاتلون البابوية (٤٥) وقدم إلى الباب العالي موفدين من بلدان أوربا الغربية، فزار اسطنبول كانون الثاني عام ١٥٦٣ (سابيرو كورسو) قائد الحركة المعادية للإقطاع في كورسيكا، كما قدم إلى هناك، على نحو دائم ممثلو (الهوغونت) والمعمدانيين الهولنديين، والكالفنيين والبروتستانت، وأقام الباب العالي مع كل تلك الحركات علاقات مودة وصداقة، ووعدهم بالمساعدة في نضالهم ضد البابوية وكل من يخضع له.. وكانت التجمعات المنشقة، تعمل بدورها على مساعدة الباب العالي، فقدمت المعلومات للعثمانيين، وتعاونت مع أعوانهم في معظم الأحيان (٤٦).

إذا كان العثمانيون سيغالبون البرتغاليين في البحار الشرقية: البحر الأحمر، بحر العرب، الخليج العربي، المحيط الهندي، ففي ساحة العالم المتوسطي سيجابهون، في القرن السادس عشر، الامبراطورية الرومانية المقدسة، بقيادة شارل الخامس، ومن بعده ابنه فيليب الثاني ملك إسبانيا.

لن ينتظر سليمان كثيراً بعد تتويجه ليعلن سياسته الهجومية تجاه أوربا ـ المسيحية. ففي عام ١٥٢١ استولى على جزيرة (رودس) من فرسان القديس يوحنا، بقايا الصليبيين، والتي تتحكم بعقدة مواصلات شرق المتوسط، وتشكل حلقة اتصال بين اسطنبول ومصر. ودخلت جيوشه في نفس العام بلغراد، وهي على مفترق طريق متقدم للدفاع عن المجر، افتتح بعدها سلسلة حملات توّجها بحصار فيينا عام ١٥٢٩. فيما كان ملك فرنسا (فرنسوا الأول)

وشارل الخامس منشغلين بمحاربة بعضهما، والبابا ليون العاشر منشغلاً بمقاومة الراهب الألماني (لوثر) (٤٧).

وفي غمرة استعدادات سليمان عام ١٥٢٥ للعمل الحاسم للسيطرة على المجر، أتته رسائل الاستعطاف والرجاء الممزوجة بالخضوع من والدة ملك فرنسا الأسير تخاطب فيها سليمان قائلة: " أتضرع إليك أيها الامبراطور العظيم لإظهار كرمك أن تعيد إلي ولدي"(٤٨). وأرسل ملك فرنسا، من أسره في مدريد، سفيره " يطلب منه بكل تواضع أن يهاجم ملك المجر، أحد حلفاء شارل " ويسترد ماسلبه منه من الشرف في واقعة بافيا " (٤٩) ويجيب سليمان بطريقة تُظهر المسافة الشاسعة التي تفصل سمو مكانة سليمان بالمقارنة مع هزالة موقع فرنسوا في السياسة الدولية، إذ يقول: " **لقد أرسلت للالتجاء إلى بابي** رسالة بيد خادمك (فرانجياني)، وقد أوضح إلي كيف اجتاح العدو بلادك، وأنت أسير.. **وقد وضع كل قولك هذا أمام أقدام عرشي ملجأ العالم**. وقد وصل إلى فهمي الامبراطوري بكل تفاصيله، وقد درسته بكامله " (٥٠)*.

وهكذا نشأ التقارب العثماني ـ الفرنسي في خضم الصراع الفرنسي والعثماني ضد الامبراطور شارل " فالصداقة الفرنسية ـ العثمانية ليست سوى نتائج واقع الحال، بمعنى أن كل واحدة من هاتين الدولتين كانت تمارس هيمنتها داخل دائرتها الخاصة (أوربا الغربية بالنسبة لفرنسا وأوربا الشرقية بالنسبة للامبراطورية العثمانية)، وذلك دون خطر حصول صدام بينهما نظراً لانعدام التجاور، وتهديد أي منهما لمصالح الآخر، وكان لكل منهما نفس العدو"(٥١).

---

* خط التشديد دائماً من المؤلف.

في أبريل عام ١٥٢٦ سار سليمان بجيش قوامه مائة ألف رجل، ومسلح بثلاثمائة مدفع إلى وسط أوربا، فحث البابا كلمنت السابع الحكام المسيحيين ليهبوا لمساعدة المجر، ونصح (لوثر)، بالمقابل، الأمراء البروتستانت أن يلزموا أوطانهم " لأن من الواضح أن الأتراك زوار من عند الله"(٥٢) أما الفرنسيون الذين كانوا قد انهزموا في بافيا، فقد كان من حقهم، أن يأملوا في انتصار المسلمين(٥٣).

حصدت مدفعية سليمان ورماة الانكشارية في (موهاكس) نخبة جيوش أوربا المحتشدة تحت الراية الصليبية، ومعهم ملك المجر الشاب لويس العاشر ومعه حاشيته من النبلاء، ودخل سليمان (بودا) عاصمة المجر، وعين أمير ترنسلفانيا ملكاً عليها، فاتحاً الطريق للهجوم على النمسا وألمانيا " واعداً بأنه سينزع من شارل الخامس السيادة على الغرب " (٥٤).

وعندما نشبت الحرب بين (فرديناند) ملك النمسا (= أخ الامبراطور) و (جان زابولي) أمير ترانسلفانيا على تاج المجر (البروتستانتية) ناصر سليمان زابولي، واحتل بودا، للمرة الثانية، عام ١٥٢٩ ليحتفل بتتويج حليفه. وحاصر فيينا، ثم رفع الحصار عنها لقلة المؤن ولقدوم الشتاء (٥٥) واضطر (شارل الخامس) أن يهادن البروتستانت حتى عام ١٥٥٢، ويوقف القرارات الصادرة بحقهم.. لمواجهة الخطر العثماني. وبقيت غزوات العثمانيين السنوية كالسيف المسلط على النمسا حتى حصار عام ١٦٨٣ (٥٦).

وقد كتب للخط الفاصل الذي رُسم في هنغاريا أن يبقى قرناً ونصف القرن، جاعلاً من فيينا حدود الغرب المسيحي، وبودا حد الشرق المسلم " وقد مثل حصار فيينا عام ١٥٢٩، والفشل في دخولها حدثاً فاصلاً في تاريخ العثمانيين، وللمواجهة مع أوربا، فكان ذروة عظمة الامبراطورية العثمانية وأعلى نقطة في انتصاراتها " (٥٧).

وبنهاية سنتي ١٥٣٣ ــ ١٥٣٦ حصل سليمان على أقاليم جديدة في أوربا، وبسط سلطانه على الساحل الجنوبي للمتوسط، وعلى الحافة الشرقية، وفقد المسيحيون رودس وبحر إيجة، والحافة الشرقية للأدرياتيكي، وإن سليمان لم يقبل الصلح مع (فرديناند) عام (١٥٣٣) إلا بعد تسليمه مفاتيح مدينة (جران)، ولم يتردد (فرديناند) عن إبداء كل آيات الخضوع، فعند التسليم الرمزي لمدينة جران (= كران) بتقديم مفاتيحها، خاطب سليمان على لسان ممثله: " إن الملك فرديناند، ولدكم يعد (= يعتبر) كل مايعود له، كأنه عائد لكم، ويعدكم أباً له، ولم يعلم برغبتكم بامتلاك هنغاريا، ولو كان عرف ذلك لما أثار حرباً من أجلها مطلقاً" (٥٨).

وفي أثناء انهماك سليمان، في إطار استراتيجيته الكونية، في تهيئة أساطيله في السويس للانقضاض على الأساطيل البرتغالية في بحار العرب والمحيط الهندي، وفي طرد الصفويين من بغداد. بعد أن أعدم هؤلاء الصفويون كبار فقهاء السنة، ودمروا مزاراتهم بما فيها مزار (أبي حنيفة النعمان، وعبد القادر الجيلاني) وعرقلوا مرور التجارة بين الشرق الأقصى وأوربا، في وقت حولت فيه سيطرة البرتغاليين على البحار الشرقية إلى حصار عام لكل الطرق القديمة بين الشرق والغرب عبر البلاد العربية. أثناء انهماك سليمان في الشرق، سيعين (خير الدين بربروسا) قائداً عاماً للأسطول عام (١٥٣٣) ليشاغل بدوره أوربا في المتوسط. فبعد أن نفذ الأسطول الإسباني بضع هجمات فاشلة على مدن شرشال والخميس.. لحقت بهم هزيمة كبرى مع الأسطول العثماني عند الشواطئ اليونانية الغربية "تمكن خير الدين من تحطيم الأسطول المشترك لإسبانيا والبندقية، فغير ذلك الانتصار الباهر ميزان القوى في البحر، وأدى إلى بسط السيادة العثمانية على الجزء الغربي من حوض البحر الأبيض المتوسط " (٥٩).

تنامي القوة العثمانية في البحر والبر، سيتيح لها أن تلعب دوراً خطيراً في ميزان القوى الأوربي، وهو مما مكن لفرنسا البروز كدولة قومية خلال القرن السادس عشر، فالأسطول التركي في غرب المتوسط، كان يحمي جناح فرنسا الجنوبي، ضد أي هجوم يشنه أعداؤها، مما أتاح لملوكها تركيز قوتهم في الشمال، وتأمين حدود فرنسا القومية (٦٠).

في عام ١٥٣٥ ــ ١٥٣٦، ستتوصل فرنسا والدولة العلية على اتفاق يشتركان فيه بهجوم مشترك على إيطاليا: العثمانيون بحراً من الجنوب والفرنسيون براً من الشمال. فتنتقل الدولة العلية وجهتها من الجبهة النمساوية إلى بلاد نابولي، وصقلية، وإسبانيا. وتدخل إيطاليا من جهة إقليم بيمونت شمال إيطاليا (٦١).

نفذ سليمان الجزء المتعلق به، فنزل (بربروسا) جنوب إيطاليا في ميناء اوترانت، وتوغلت الجيوش العثمانية في إيطاليا، متقدمة نحو الجبال، ونحو نابولي، ولكن، للمرة الثانية، غدر الحليف المتقلب فرنسوا الأول بالسلطان سليمان. فبدل أن تغزو فرنسا (ميلان) وقّعت هدنة مع شارل، فوجد نفسه سليمان وحيداً في مواجهة الامبراطورية، والبندقية، والبابوية، فتراجع الجيش العثماني.

ولقد اقترن الاتفاق العسكري الفرنسي ــ العثماني، باتفاق اقتصادي سُمي فيما بعد (الامتيازات الأجنبية). فقد منح سليمان من موقعه القوي والمقتدر امتيازات (لرعايا ملك فرنسا النازلين بأراضي الممالك المحروسة) وبمقتضى هذه الامتيازات، منح سليمان أساطيل الفرنسيين التجارية امتيازات إعفاء من الرسوم، وسُمح للعثمانيين بالتجارة في جميع الممتلكات الفرنسية. واحتفظوا في الوقت نفسه بامتيازات للأجانب: فكنائسهم، ومحاكمهم، وكل قضاياهم الشخصية تكون مستثناة على الأراضي العثمانية مصونة تحت العلم

الفرنسي. فأعطت هذه الامتيازات لفرنسا المركز الأول في الدولة العثمانية، وجعلت من الأخيرة أول منفذ لفرنسا فيما وراء البحار (٦٢) وكانت تهدف هذه الامتيازات بالنسبة لفرنسا، في ذلك الحين، تغطية اتفاقها العسكري مع سليمان، وكانت مكافأة بالنسبة لسليمان، يقدمها إلى (حليفه) فرنسوا الأول، لتقوية موقعه السياسي الأوربي، ولتشجيع الفرنسيين للاتجار مع الدولة العثمانية، بعد محاولة الحصار البرتغالي لتجارتها الشرقية، ولقد اعتادت الدولة العثمانية ــ كما يقول أحمد عبد الرحيم مصطفى ــ استغلال ثروتها لمساندة حلفائها الأوربيين " فالامتيازات الممنوحة لفرنسا في عام ١٥٣٦ و ١٥٦٩ ثم للهولنديين والانجليز كانت تستهدف دعم هذه الدولة خلال نضالها ضد بابا روما وهابسبورغ النمسا " (٦٣).

هذه الامتيازات التي أتت على شكل منحة، أو هبة سلطانية، ومن موقع القوة والاقتدار الأكيدين، ستتطور مع الوقت لتتحول إلى قيود تعطي الشرعية للتدخل الخارجي، والاختراق الخارجي لجسم الدولة العثمانية *. وقد تعززت هذه (الامتيازات) التي أعطيت عام ١٥٣٦ لفرنسوا الأول، عندما يضيف إليها سليمان بنوداً جديدة في عهد هنري الثاني ابن فرنسوا عام ١٥٥٣، هي الأخطر من كل ماسبق، إذ سيسمح سليمان بظهور تقليد جديد، أتاح لسفير فرنسا المسيو (جبريل درامون) زيارة بيت المقدس، ومقابلة الرهبان والقساوسة، وجعل جميع الكاثوليك المستوطنين بأراضي الدولة العلية تحت حماية فرنسا (٦٤).

---

* يُرجع (برنار لويس) أصل الامتيازات " إلى عصر استعلاء إسلامي وليس أوربي، وعندما كانت الدول الإسلامية في أوج قوتها وكان التجار الأوربيون وممثلوهم الديبلوماسيون يُعدون كعنصر أدنى درجة " لغة السياسة في الإسلام، ترجمة:ابراهيم شتا، دار قرطبة، ١٩٩٣، ص١٣١.

فعلى الرغم من التفوق العثماني الظاهر، والاعتراف الفرنسي بهذا التفوق والتسيّد والتميّز، وبفضل العثمانيين على ملوك فرنسا: فرنسوا، هنري الثاني. تذهب الأمور على غير ماهو متوقع: " فبدل أن يحصل السلطان سليمان من فرنسا على امتيازات لقاء ماقدمه من خدمات لها، حدث العكس، عندما وافق على منحها امتيازات تجارية كان لها آثار سياسية وقانونية، سُمِّيت منذ ذلك الوقت بـ (نظام الامتيازات الأجنبية) " (٦٥).

مرة أخرى، في عام ١٥٤٠، رضي سليمان أن يتعاون مع فرنسوا الأول، في حملة أخرى على شارل، وعرض على الملك الفرنسي أن لاصلح مع شارل إلاّ عند تسليم جنوه، وميلان، وفلاندر إلى فرنسا.. فرد شارل على ذلك بتكوين حلف يضم الامبراطورية والبندقية والبابا وفرديناند ملك النمسا، فعانت البندقية وطأة الهجوم العثماني، وفقدت ممتلكاتها في بحر إيجه، وشاطئ دلماشا، واضطرت لتوقيع صلح منفرد مع العثمانيين عام ١٥٤٠ (٦٦).

وفي عام ١٥٤٢، وبعد أن فشلت حملة شارل على الجزائر، سمح فرنسوا للأسطول العثماني بقيادة (بربروسا) بقضاء الشتاء في ميناء (طولون) حيث باع الجنود العثمانيون عبيد مسيحيين، تحت أنظار فرنسا، واشترط (بربروسا) أن لايسمع، طوال فترة إقامته في طولون، أصوات أجراس الكنائس.

استمر التعاون العثماني ــ الفرنسي حتى بعد وفاة فرنسوا الأول عام ١٥٤٧ حيث استمر ابنه هنري الثاني على نهج والده، ومع استمرار اعترافه بفضل العثمانيين على فرنسا، وفي ضعف موقعه أمام موقع سليمان، وهذا مايظهر جليا في رسالته إلى السلطان سليمان إذ يقول: " لم يبق لدى فرنسا أي أمل بالمساعدة من أي مكان آخر عدا حضرة سلطان العالم، حيث أن حضرة سلطان العالم، قد قدم من قبل مساعدات لمرات عديدة. إن فرنسا

ستكون ممتنة إلى الأبد لوسوعدت بمقدار من النقود والبضاعة، وإن هذه المساعدة تعتبر لاشيء بالنسبة إلى سلطان العالم "(٦٧).

وبناء على معاهدة ١٥٥٣ حاربت العمارة البحرية للدولتين معاً في إيطاليا، وفتحت جزيرة كورسيكا وصقلية، لكن لوقوع خلاف بين قائدي العمارتين، لم يستمر احتلالهما.. وكانت هذه آخر مرة حارب فيها العثمانيون والفرنسيون كتفا لكتف حتى حرب القرم(٦٨).

٢ ـ ميول جديدة للسياسة العثمانية في نهاية القرن السادس عشر:

مات السلطان سليمان القانوني عام ١٥٦٦ الذي لخص عهده مكامن القوة والازدهار والانضباطية في النظام العثماني، كما لخص، في الوقت نفسه، نقاط الضعف وميول التدهور في الزمن اللاحق. والتي ستغذي التراجع العثماني لاحقاً. مات مخلفاً وراءه دولة مترامية الأطراف، تتعدى مسؤولياتها عالم المتوسط القديم، لتنسج ساسة كونية، إحدى أهدافها البينة حماية (ديار الإسلام) من الهند حتى غرب المتوسط. ترتكز على ثلاثمائة وخمسين ألفاً من الجند النظاميين، مع مايرادفهم من قوات غير نظامية، وبين أيديهم ثلاثمائة مدفع، وثلاثمائة سفينة حربية تجوب بحار المتوسط، والأسود، والأحمر والخليج العربي، والمحيط الهندي (٦٩).

لقد ترك وراءه أكثر الدول استقراراً وأمناً، وثراء وغنى، وأكثرها قابلية للركود، وترك وراءه فوق كل هذا خططاً استراتيجية، تستهدف بشكل رئيسي التوسع على حساب طرفي الامبراطورية الرومانية المقدسة: جبهة النمسا، وضرب الطرف الإسباني واسترجاع مواقع المسلمين في الأندلس. مما يساهم في ضرب محاولة تطويق الإسلام من البحار الشرقية، المنطلقة من شبه الجزيرة الايبيرية، ويقلب أوراق اللعبة السياسية العالمية رأساً على عقب.

إن هذه القوة الهائلة، وتلك السطوة الامبراطورية العظيمة بكل المقاييس لو قبض على خيوطها المتشابكة بلانهاية، رجل واحد لأهله هذا التدخل التأثير السلبي أو الإيجابي، في مسار أحداث التاريخ. لكن من سوء الأقدار، وقد ساهم في ذلك غياب مؤسسات حقيقية لضبط الشرعية، أن استقر الأمر بعد سليمان إلى أقل أبنائه موهبة، إلى السكير سليم الثاني (١٥٦٦ ــ ١٥٧٤)، بعد أن استطاعت شبكة الدسائس التي حاكتها زوجة سليمان روسلانة، الجارية ذات الأصل الروسي * أن تدفع سليمان لقتل ولديه الأكثر مهارة وجدارة، واللذان يتحليان بنفس مواهب والدهما وقدراته وطموحاته: مصطفى وبايزيد.

وهكذا، استقر الأمر لسليم، الذي قضى أيامه في جناح الحريم، بحثاً عن الملذات، تاركاً أمر تدبير شؤون السلطنة إلى رجال توارث بعضهم عن إدارة أبيه، وربما كانت هذه فضيلته الوحيدة، التي سمحت باستمرارية معينة لتقاليد الدولة العثمانية، ولعمل مؤسساتها الموروثة.

عند استلام هذا السلطان، كان الخيار الذي يواجه العثمانيين هو السؤال عن اتجاه الضربة التي يجب أن يوجهوها، إلى إسبانيا أو إلى الشرق. وكان خيار توجيه الضربة لإسبانيا، هو خيار الدولة العثمانية منذ محمد الفاتح، تبعاً لرأي (رنكه)، ولقد لخص هذا المؤرخ الألماني الموقف، عند استلام سليم الثاني: " كانت الوجهة الأولى منهما ضد إسبانيا، عدوة الإسلام الأولى، والوجهة الثانية شطر قبرص الجزيرة التي كانت تابعة للبندقية فأهمل السلطان الأولى، رغم ماكان يقدر لتلك الحملة من النجاح الأكيد، من جراء ثورة كان المسلمون قد أضرموها هناك* واختار الثانية التي جرّت عليه المتاعب " (٧٠).

---

* البعض يقول: إن أصلها يهودي.

* هؤلاء المسلمون الذين طالب (سرفانتس) صاحب (دون كيشوت) بطردهم تخوفاً من ارتفاع نسبة مواليدهم. راجع: ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الثاني من المجلد السابع، ص٩٩.

لقد هيأ سليمان كل الظروف للانقضاض على إسبانيا، ولو هوجمت إسبانيا لما تحركت فرنسا، وانكلترا وهما على خصومة معها، ولما تجرأت البندقية على التدخل وهي دولة جوار، وتربطها مصالح اقتصادية جدية مع العثمانيين تجعل منهم في خندق واحد ضد البرتغاليين، الذين قضوا على دورهم الوسيط في تجارة الشرق الأقصى. وكان من المجدي بالنسبة لسليم أخذ تلك الظروف كلها بعين الاعتبار. لكن سليم ضرب بكل تلك الاعتبارات المنطقية والسياسية، كما ضرب بكل خيارات والده، وانقض على قبرص التابعة للبندقية، ليدفع هذه الأخيرة في أحضان إسبانيا والبابوية.

وحتى في ديوان السلطان، في بلاط سليم الثاني نفسه، لم يكن هناك اتفاق حول هذا الخيار: فكان هناك مجموعة بزعامة الصدر الأعظم (محمد بسوقولو) وقفت مع الخطة (الأندلسية)، وأصرت على تركيز الجهود في الغرب، والتحالف مع الحركات المناهضة للكاثوليكية، واحترام حياد البلدان التي تنتهج سياسة حيادية، أو حذرة تجاه الدولة العلية، ولاسيما البندقية، أما المجموعة الثانية فلم تراعي شعبية الخيار (الأندلسي)، فكانت تعتبر أنه يجب البدء بالتخلص من العدو الأضعف في الشرق، ثم التفكير بعد ذلك بفتح إسبانيا، وتزعَّم سليم الثاني تلك السياسة "السانجة القصيرة النظر" على حد تعبير بروديل. ويقف معه مربي السلطان سرعسكر مصطفى باشا، وقابودان باشا بيالي صهر سليم الثاني. وأخيراً رئيس المخابرات العثمانية في أوربا (ميكاس) واسمه الأصلي يوسف ناسي " ذلك اليهودي العظيم" على حد تعبير بروديل(٧١).

ولوجود هذا الانقسام في (البلاط)، بدت السياسة العثمانية قلقة مترددة وجلة، تفتقد وحدة الإرادة والعزم. فهم تابعوا تقديم المساعدة لانتفاضة كورسو، والبروتستانت، وحركة الأيقونيين في هولندا، وللمسلمين في غرناطة

تهيئة للانتفاضة المنتظرة. وكان سليم الثاني يدعو أعيان الأندلس، وبكوات فلاندر وغيرها من الولايات الإسبانية لتدعيم التحالف اللوثري الإسلامي، وتنسيق مواقفهم لتنظيم هجوم عام على البابوية، إلا أنه في نصائحه الشفوية، كان يدعوهم إلى عمليات دفاعية (٧٢). أما مجموعة محمد سوقولو، فقد ارتأت: إنه لا بد من القتال، وبأسرع ما يمكن ضد الإسبان. وقد عين (سوقولو) (علج علي) بكلربك، على الجزائر، في إفريقيا العربية، بسبب حماسه (للخطة الأندلسية)، وأمره بتهيئة الظروف للهجوم المرتقب (٧٣) وفي ليلة عيد الميلاد عام ١٥٦٨ قام المغاربة بالانتفاضة في غرناطة، فأيدها (علج علي) فوراً، وأرسل أربعين مركباً محملاً بالسلاح والمتطوعين، التي حرمتها عواصف الشتاء من الوصول. وكرر المحاولة عام ١٥٦٩، فلايصل منها سوى ستة مراكب تحمل العتاد والرجال. كانت أثناءها (مدريد) تعيش ذعراً من احتمال وصول القوات النظامية العثمانية، وأعلن المسؤولون الإسبان، أثناء حوارهم مع البابا " إنه إذا حصل تدخل من جانب العثمانيين، فإن إسبانيا قد تسقط في أيدي المسلمين " (٧٤). ولكن الأمور كانت تجري في العاصمة العثمانية على غير هذا الاتجاه. إذ مدد سليم الثاني، في شباط ١٥٦٨، الهدنة مع النمسا حليفة إسبانيا، والتي كانت تجمعهما، تواً، امبراطورية واحدة، وانسحبت الجيوش العثمانية نحو الشرق، واحداً تلو الآخر، أُرسل أحدها عام ١٥٦٩ إلى اليمن، وأُرسل جيش آخر لتنفيذ حملة الدون، بهدف وصل الدون بالفولغا، وشن الهجوم على الروس لاسترجاع استراخان وقازان. وحتى تستكمل المأساة فصولها، ستغرق الدولة العلية في صراع مع البندقية عام ١٥٦٩ من أجل قبرص. فتورط العثمانيون في حروب الشرق إبان أدق ظروف الانتفاضة الأندلسية في الغرب.

في عام ١٥٦٩، وانتفاضة غرناطة على أشدها، قام عملاء اليهودي (ميكاس)* رئيس الاستخبارات العثمانية بإحراق ترسانة عسكرية في البندقية، وانتشرت حملات الاعتقال (للبنادقة) في أرجاء السلطنة. وأعلن العثمانيون حقهم التاريخي في قبرص وطالبوا البنادقة بالتخلي عن قبرص، التي كانت تعد أثمن ممتلكاتهم، إذ تنتج القمح والقطن والزيت والسكر والملح (٧٥) مما أجبر البندقية، بعد أن كانت مترددة، على دخول (الحلف المقدس)، الذي يضم إسبانيا وجنوه، ونابولي والدويلات الألمانية ودوقية سافوا، وتوسكانيا، والذي كان قد دعا إليه البابا بيوس الخامس " الذي كاد أن يقضي كمداً لكون العثمانيين سادة الموقف في المتوسط " (٧٦).

وفي ٧ تشرين الأول ١٥٧١، جرت في الخليج (ليبانتو)، أهم المعارك البحرية في التاريخ فصلاً، تمكن فيها الأسطول الموحد (للحلف المقدس) من تحطيم الأسطول العثماني المكون من (٢٣٠ سفينة) بقيادة قابودان باشا بيالي، قتل ثلاثون ألف عثماني، وثمانية آلاف من الفرنجة(٧٧)، وكان من بين جرحاهم (سرفانتس) الذي فقد ذراعه اليسرى، والذي رأى " إن برنتانو بددت ظن الشعوب الأوروبية بأن القوة العثمانية لاتقهر " (٧٨).

سيترتب على هزيمة (ليبانتو) آجلاً ـــ وإن لم يكن عاجلاً ـــ نتائج تتعلق بالموقع الاستراتيجي للبحرية العثمانية، وبخطها الهجومي، حيث ستفقد البحرية العثمانية زمام المبادرة في المتوسط، بل وفي البحار جميعاً.

---

* يعلل إيفانوف موقف (ميكاس) المعادي للبندقية، لاحتجاز حكامها ثروة ابنة أحد المصرفيين اليهود، التي هي زوجته، وبأن ميكاس كان يطمح لتأسيس مستعمرة يهودية في قبرص. راجع الفتح العثماني للبلاد العربية، ص٢٤٢. راجع أيضاً: أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني.. ص ١٤٦.

صحيح أن (علج علي) استطاع إنقاذ سفنه الحربية من المعركة، ومُنح لقاء ذلك قابودان باشا، وجهز سفنه برماة مسلحين بالبنادق والمدفعية " فأفسد على المسيحيين استثمار تفوقهم العسكري التقني السابق " (٧٩) وإن الصدر الأعظم (محمد صوقولو) جهز في الشتاء (٢٥٠ سفينة جديدة). وستوقع البندقية بعد سنة من المعركة على معاهدة، تقبل فيها بشروط المهزوم، فتتخلى عن قبرص، وتدفع غرامة حربية ثلاثمائة ألف دوكا تعويضاً لما تكبده السلطان من نفقات في فتح الجزيرة (٨٠). إلا أن كل هذا لن يخفي، في العمق، هول الهزيمة ونتائجها الخطيرة، ليس على مصير الأندلس، وإسبانيا، وعالم المتوسط، وعلى مصير المعركة مع روسيا على استراخان، وقازان، وعلى المعركة الدائرة في البحار الهندية والعربية في الشرق، بل إن (برنتانو) ستكسر نهائياً مرحلة الصعود العثماني ــ الإسلامي، والطابع الهجومي للاستراتيجية العثمانية في المتوسط، وفي العالم المتوسطي. وأنهت نهائياً فكرة الهجوم العثماني على إسبانيا، وعلى خطط استرداد الأندلس، وأسست لنوع من التوازن الاستراتيجي النسبي بين أوربا المسيحية، وعالم الإسلام(٨١)، ذلك التوازن الذي سيبدأ من نهاية القرن السادس عشر، وينتهي مع نهاية القرن السابع عشر وسيكون لهزيمة العثمانيين أمام (فيينا) عام ١٦٨٣ إشعاراً بنهاية هذا التوازن، وبداية التفوق الأوربي ومنذ تلك المعركة ولفترة طويلة لم تعد القوات البحرية العثمانية بمستوى البحرية الأوربية التي تجوب المتوسط. واتفق الخصمان الكبيران، العثماني والإسباني على وضع حد لهذا الصراع.. وتم عقد هدنة عام ١٥٧٧سيجددونها مرات عدة حتى عام١٥٩٣، وحده البابا استمر في التفكير بالحملات الصليبية (٨٢). فكانت (ليبانتو) كما أكد بروديل "خاتمة لمركب النقص الحقيقي عند المسيحيين، وخاتمة للتفوق العثماني".

٣ ـ مقارنات أوضاعهما التاريخية:

حتى نهاية القرن السادس عشر، لا أحد كان يستطيع التكهن بالمآل الأخير للمغالبة القائمة بين المسلمين بقيادة العثمانيين وأوربا المسيحية بقيادة الامبراطورية الرومانية المقدسة، وبعدها إسبانيا التي ستتولى الموقف القيادي لأوربا في النصف الثاني من القرن. فلقد تم للعثمانيين ترتيب البيت الإسلامي، وتقوية موقعهم في المتوسط، جنوباً، عندما ضموا بلاد المغرب العربي، وشرقاً عندما ضموا بلاد الشام ومصر، وشمالاً بحر إيجه، والطرف الشرقي للأدرياتيكي، واخترقوا أوربا من وسطها حتى أصبحت روما، وفيينا تحت التهديد الدائم، وفرضوا الجزية على البندقية سيدة البحر المتوسط سابقاً، وعلى امبراطورية هابسبورغ سيدة أوربا براً.

وعلى الرغم من الاختراق البرتغالي لبحار المسلمين شرقاً، بعد اكتشافهم طريق الرجاء الصالح، إلا أن العثمانيين، في النهاية، فرضوا حمايتهم على البحر الأحمر، وحموا الأراضي المقدسة، وشواطئ شبه الجزيرة العربية، وكانت لهم السيطرة على البر حتى نهاية القرن الثامن عشر، وإن فقدوا السيطرة منذ نهاية القرن السادس عشر على الخطوط التجارية البحرية الشرقية، وضعفت سيطرتهم في المتوسط.

حتى على مستوى بناء الدولة وعملها، وعلى المستوى الثقافي والذهني، وعلى صعيد البناء الإجتماعي، فقد كان التميُّز لصالح ديار الإسلام في أكثر المجالات اتساعاً وشمولاً: تنظيم المدرسة العثماني، مؤسسات التعليم، نزاهة القضاء وسرعة اجراءاته وبساطتها، الأخلاق العامة، إدارة الحكم والنظام والأمن والاستقرار، البناء والحرفة، والميزان التجاري. وإن بدأت أوربا تسجل نجاحاتها في بعض النقاط (الاستراتيجية): العلم، البحث التجريبي،

اتساع دائرة الرؤية الجغرافية، والفلك، الإحياء الثقافي، صناعة السفن، فن الملاحة والذهنية الاقتصادية.

مع النصف الثاني للقرن السادس عشر، أوربا ستعزز موقعها بالتفافها حول العالم العربي ــ الإسلامي، لتستحوذ على ثمرات التجارة الشرقية، وذهب وسكر وقهوة أمريكا، تلك القارة التي اكتشفوها، مصادفة، وهم في طريقهم إلى الهند.

ولقد بدأت أوربا، تواً، طريقها الانتقالي العسير والمضني من (العصور الوسطى إلى العصور الحديثة)، من الفوضى الشاملة إلى الدولة ــ الأمة: هناك فرنسا، انجلترا، أما هولندا فلن يتأكد استقلالها إلاَّ مع القرن السابع عشر، وإيطاليا، ألمانيا فلاتزال وحدتها القومية في علم الغيب. لكن أوربا ستنتقل من مواقع الدفاع أمام الهجوم الإسلامي الشامل الذي بدأ مع الفتح العربي ــ الإسلامي في القرن الثامن، واستكمله العثمانيون في القرن الخامس عشر والسادس عشر، إلى موقع الهجوم الاستراتيجي الذي ستكون الحملة الفرنسية ١٧٩٨ فاتحته الكبرى على البر، بعد أن كانوا يسجلون تقدمهم إلى ساعتها على الماء.

التفوق الأوربي لم يكن سوى ميول من الصعب استقصاء نتائجها حتى ونحن في منتصف القرن السابع عشر، ولم يكن بالإمكان التكهن بما ستؤول إليه الأمور، انطلاقاً من أي نقطة زمنية في هذه الحقبة. التفوق الأوربي سيتأكد فقط في القرن الثامن عشر، وخاصة في نهايته مع اكتشاف الطاقة البخارية واستعمالها الواسع لاحقاً.

نعم هناك تجري تحولات على بعض السلوكيات الاجتماعية، تراكم للثروات، بوادر غنى مع توسع السوق التي غدت عالمية، تحسين في التقنيات

الحرفية، الانفتاح على التفكير العقلاني الرياضي، يوازيه تعزيز النزعة التجريبية، اتساع دائرة المعارف بالتاريخ: دراسة مقارنة للأديان، للجغرافيا البشرية. إلا أن هذه المكتسبات ظلت جزراً صغيرة يغمرها المحيط الهمجي الجاثم على الثقافة والاجتماع الأوربيين. لم يكتسب بها الغرب تفوقه الحاسم. كانت هناك مباراة قائمة، تغالب، تقدم يحصل هناك، وتراجع يحصل هنا، ولن تدق ساعة التفوق الأوربي الحقيقية إلا مع اكتشاف طاقة البخار. هذا التفوق، الذي لن تستخدمه أوربا لتعزيز التكامل والتعاون الإنسانيين، بل ستستغله وتحتكره لتهميش بقية شعوب الأرض، بقوة الحديد والنار والعلم والأسطورة والايديولوجيا، وفي مقدمة كل ذلك التقنية والآلة، تغلف سطوتها العالمية بمعايير إيديولوجية تجعل من أوربا مركز العالم.

المفاعيل الفكرية للنهضة لم تشكل بعد الوعي الاجتماعي السائد. لم تكن سوى إشارة (بعدية) لما سيحصل لاحقاً. إنها نزعة ثقافية وليست حركة اجتماعية، على عكس ماكان عليه (الإصلاح الديني) الذي ظهر كحركة شعبية واسعة التأثير. والانسانيون " إنهم ليسوا بالحقيقة طلائع البحث العلمي الحر الحديث، بل هم معلمون دنيويون مغترون " (٨٣). وكان تأثير النهضة أوسع من تأثير النزعة الإنسانية، التي اقتصر تأثيرها على المفكرين الباحثين، وستعاصر الحركة الإنسانية، في ألمانيا ودول الشمال، وانكلترا ــ كما يقول راسل ــ الإصلاح الديني (٨٤). الإصلاح الديني الذي سيفتتح حقبة الحرب الأهلية المذهبية لمئة وخمسين عاماً، سيكون له وحده طابعاً شعبياً واسعاً، أما حركة النهضة فلم تكن في زمنها سوى مركز اهتمام حلقة المثقفين والارستقراطية. وكما يقول فروم " لم يكن عصر النهضة حضارة أصحاب المحلات الصغيرة والبرجوازية الصغيرة، بل حضارة النبلاء والأثرياء " (٨٥).

ويذهب (فروم) إلى أن عصر النهضة مثّل تطوراً نسبياً للرأسمالية التجارية، وكونت مجتمعات حكمت فيه جماعة صغيرة من الأفراد والأثرياء والأقوياء، " وشكلت القاعدة الاجتماعية للفلاسفة والفنانين، الذين عبروا عن هذه الحضارة، بالمقابل كان عصر الإصلاح الديني، أساساً ديانة الطبقة الوسطى والحضرية، والطبقات الدنيا والفلاحين " (٨٦).

وحركة الإصلاح الديني إذا عايناها من زاوية ما حاربت ضده، فلم تُعط إلاَّ التعصب وإنكار الآخر وهما الوقود الحقيقية لحروب أهلية مذهبية ستدوم حتى ١٦٤٨. أما النتائج النهائية لهذا الإصلاح فلم تكن نتاجاً منطقياً لقراءة مفاهيمه الضمنية، بقدر ماكانت خلاصة دروس الحرب المذهبية الأوربية التي دامت أكثر من مائة وخمسين عاماً. وأجبرت الجميع على البحث عن سبيل لتجنب مآسي الحروب الدينية التي أنهكت أوربا، عندها، في منتصف القرن السابع عشر، سيجري البحث لإقرار مبدأ إزاحة الدين عن السياسة، والمقدس عن الدولة، وسيتم، تحت تهديد السلاح وانفتاح دم الحرب الأهلية، الإقرار (بعقد اجتماعي جديد) يجنب الناس الحرب، من خلال القبول بمبدأ جواز الاختلاف، وبإمكانية التعايش، وواجب أن تلقى الدولة القبول الاجتماعي (٨٧).

تنطبق القاعدة نفسها على (الإحياء و النهضة) التي لم تكن في زمنها إلا صورة لسلوك الترف والبذخ الدنيويين، لبلاطات حكام فلورنسا، والبندقية، وجنوه، ولروما البابوية. أو لنزعة ثقافية لحلقة ضيقة من المثقفين، لم يكن لها تأثيرها الفاعل على الوعي الاجتماعي السائد، إلاّ لاحقاً، عندما استخلص الناس في القرون التالية بين سطورها ما يريدون هم أن يستخلصوه، فعزّزت، في بعض جوانبها، المشاعر الدنيوية، واستُخلص منها أسلوبين في الإدراك:

أما اتباع نظرة موضوعية فظة (كلبية) على طريقة مكيافيلي (١٤٦٩ ــ ١٥٢٧)، نظرة كلبية بالقدر الذي فيه الواقع نفسه يبدو كلبياً (واقع مدن ــ دول إيطاليا القرن السادس عشر)، أو اتباع أسلوب غروتيوس، وهوبز، وبودان، في الإدراك، في نهاية القرن السادس عشر، الذين أبرزوا فكرة (العقد الاجتماعي) اليوتوبي المتخيل، يربط الأفراد بالدولة، وتستقى منه الحقوق والشريعة، وسيكون لهذه الفكرة، مع فكرة الحق الطبيعي دورها الأكبر في القرن الثامن عشر(٨٨).

وقائع الحياة، والتوازنات الاجتماعية، وخبرة الصراعات الاجتماعية، وتقدم العلم والذهنيات، هو الذي سيقود إلى قراءات جديدة للنهضة والإصلاح الديني. في القرن السابع عشر والثامن عشر.

وليس حقيقياً أن عصر النهضة وعصر الإصلاح عملا بتناسق في سبيل أهداف واحدة "فالكالفاني (بروتستانتي من أتباع كالفن) الصالح، عليه أن يخشى فنان عصر *النهضة الذي* ينحت *التماثيل* نقلاً عن *النماذج العارية*، ويعيش بطيش وإسراف.. كما أن لوثر يكره إيراسموس، وهو شعور متبادل بينهما"(٨٩).

بالتوازي مع هذا، تم التقدم في بعض الميادين العلمية أهمها اكتشاف نظام مركزية الشمس على يد كوبرنيكوس عام ١٥٤٣، وظهر نوع من الثقة بالإنسان وقدراته، مع عودة إلى فيثاغورث وأفلاطون والرأي القائل بأن العالم مبني على أساس نموذج رياضي، ولكن، على الرغم من النهضة والإصلاح الديني " إلاَّ أن هذا لم يعتق الناس من مختلف ضروب الخرافة القديمة، واكتسب التنجيم شعبية واسعة.. أما السحر فكان الاعتقاد به واسعاً بدوره.. وأحرق مئات الأبرياء ذوي الأطوار الغريبة وهم أحياء " (٩٠).

من الخطأ التوهم، مثلما هو شائع، على أن الحياة الأوربية قد ارتقت كثيراً عن (همجية) القرون الوسطى، في القرن السادس عشر، لمجرد التذكير بظاهرة عصر النهضة والإصلاح الديني. أو أنها ارتفعت عن الحياة الاجتماعية والثقافية السائدة في ديار الإسلام، بل إن بعض جوانب تلك الحياة تميل لصالح بلاد الإسلام: العثمانيون، الفرس، امبراطورية المغول في دلهي.

فعلى مستوى القوة المجردة العسكرية، فقد ظل العثمانيون خطراً جدياً على أوربا بأكملها حتى نهاية القرن السابع عشر، وإن شهدت أوربا بعض التقدم، أو السبق في التقنية العسكرية في عدة مجالات: صناعة السفن، الملاحة، والدراية الجغرافية، ورسم الخرائط، وإنه سيكون لهم اليد الأولى في مياه المتوسط في القرن السابع عشر بعد أن سيطروا قبلاً في القرن السادس عشر على ملاحة البحار الشرقية. ويذكرنا هودجسون، بأن الفترة مابين (١٥٠٠ ــ ١٨٠٠) كانت الفترة التي لعب فيها العالم الإسلامي أوسع أدواره في تاريخ الحضارة العالمية علماً. إن أقل من خمس سكان العالم كانوا مسلمين.. فالدولة الإسلامية شكلت عالماً دبلوماسياً شاسعاً جداً.. والقوى البحرية الأوربية المتوسطية، في القرن السادس عشر لم تفعل شيئاً لزعزعته (٩١).

وقد تساءل لوثر بصيغة التأييد: " يقال انه لم يكن ثمة حكومة زمنية أفضل من حكومة الأتراك " (٩٢) فكانت الدولة العثمانية من ناحية التنظيم الداخلي لمؤسساتها، أو من جهة علاقتها بالسكان، ورعايتها للأمن، والاستقرار، واحترامها للتعددية الاثنية والدينية، وقوننة الأنظمة، وترتيب امور القضاء أفضل حالاً من أوربا، ومن المسلم به ــ كما يقول عبد الرحيم مصطفى: " إن الامبراطورية العثمانية كانت طيلة القرن الذي تلا سقوط القسطنطينية تحظى بحكم أفضل مما كانت ترزح تحته معظم أوربا المسيحية،

كما كانت أكثر من أوربا رخاء، ورعاياها ـ مسلمين ومسيحيين ـ كانوا يتمتعون بقسط من الحرية الشخصية، ومن نتاج كدهم يفوق ذلك الذي كان ينعم فيه رعايا الدول الأوربية " (٩٣).

ومن المقارنات التي يعقدها ديورانت لحياة الدولة والسياسة الأوربية والعثمانية: " يفترض وجود ديمقراطية مباشرة في الحكومة العثمانية... فإن الطريق إلى الرفعة والمكانة العالية، فيما عدا السلطنة، كان مفتوحاً أمام جميع المسلمين.. وحيث لم يكن هناك أية حكومة معاصرة احتفظت بمثل هذا المستوى العالي من المقدرة والكفاية لأمد طويل، كما كان الحال في العرش العثماني " (٩٤).

ولقد تم في عهد سليمان القانوني التأكيد على حماية الأرواح والأملاك وشرف الأشخاص، وأعاد تنظيم الإدارة وحذر الموظفين من الافتئات على حقوق الرعايا وجعل الكفاءة أساساً للتعيين والترقية، وأصدر القوانين التي حددت عمل الحكومة، وحقوق وواجبات الحكام والمحكومين (٩٥).

ومن الخطأ اعتبار السلطان (طاغية) فهو بالإضافة إلى تقيده بالشريعة، فإن الكثير من الحياة العثمانية كانت مستقلة في الواقع عن السلطة المركزية، كالطوائف (الملل) والحرف، والمؤسسات والجماعات الدينية، إلى غير ذلك من الهيئات التي شكلت (البنيان التحتي) التعاوني للمجتمع العثماني (٩٦).

ويرجّح ديورانت أن تكون البيروقراطية العثمانية، أقدر ماوجد من نوعها في القرن السادس عشر، وأليست تلك البيروقراطية، من أمّن الاستمرارية لأداء هذه الدولة حتى بعد انتهاء عصر السلاطين العشر العظام بموت سليمان ١٥٦٦ ؟!

ولقد لاحظ أحد المراقبين الفرنسيين نشاط المحاكم العثمانية، وسرعة البت في المحاكمات، وكما اعتقد مؤرخ انكليزي: إن سير القضاء في عهد

السلاطين العثمانيين الأولين كان أفضل منه في أية بقعة في أوربا.. وإن الجرائم كانت أندر (٩٧).

وفي مجال التعليم وتنظيمه، فبالإضافة إلى المدرسة السلطانية المخصصة لتخريج النخب البيروقراطية، والانكشارية، التي تعد، في مستوى التعليم الذي تقدمه، أفضل من أية جامعة في أوربا كما يقول إيفانوف. فقد قضى سليمان القانوني وقتاً طويلاً في إعادة تنظيم المدارس العامة وتحسينها، وتنافس الوزراء وسادتهم السلاطين في إغداق الهبات على هذه الكليات أو المدارس الملحقة بالمساجد، ونعم المدرسون في هذه المدارس ـ كما يقول ديورانت ـ بمراكز اجتماعية ومالية أعلى من نظرائهم في العالم المسيحي اللاتيني. وكانت محاضراتهم تنصب رسمياً على دراسة القرآن، والآداب، والرياضيات والفلسفة.. وساروا جنباً إلى جنب مع الغرب في الهندسة وفن الحكم (٩٨). ويحدثنا ديورانت انه في القرن السادس عشر، وحتى القرن السابع عشر، سادت حياة عقلية نشيطة.. وربما كانت نسبة معرفة الكتابة والقراءة في القرن السابع عشر أعلى مما كانت عليه في العالم الأوربي (٩٩) وأنشأ سليمان كثيراً من المدارس والكليات وأجرى التعديلات في نظام العلماء ورتبهم وإعفائهم من الضرائب، وسهل عمليات انتقال ضياعهم من الأب إلى الابن، ومنع مصادرتها، وبذلك "أصبحت أرستقراطية العلم هي الارستقراطية الوحيدة في الدولة " (١٠٠).

وظل العهد العثماني حتى القرن السادس عشر ينتج الروائع في فن البناء كمسجد سليمان الذي وضع تصميمه (سنان) مع عدة مساجد ومبان أخرى، فقد تميز عهد سليمان بعظمة المباني التي زين بها الآستانة وبغداد وقونية ودمشق وغيرها من المدن. وبتشييد المرافق العامة في شتى ربوع

الامبراطورية (١٠١) ولم تتفوق أية حضارة ــ كما يقول ديورانت ــ على الإسلام في صنع التربيعات القرميدية الجميلة، ورسم المنمنمات، والخط، ونسيج السجاد.

ولكن في مجال الذهنيات، والحياة العلمية والثقافة العالمة، ندر الابتكار والإبداع، فخضع التأليف النظري لإعادة صياغة نفس القوالب القديمة، فكثرت التصانيف، والشروح " والواقع أن فضيلة العلماء العثمانيين ليست في عمق التفكير وجرأته، ولكنها في الذاكرة الجامعة والتطبيق الجلد الصبور " (١٠٢). وإن بقي التأليف التأريخي حياً، يواكب سيرة سلاطين الدولة، أو إخباري لتدوين الحياة اليومية، أو كتب التراجم، أو كتب التاريخ الشامل، فكنا لانزال نسمع، في القرن السادس عشر، أسماء مؤرخين كبار، مثل: ابن إياس، ومحمد بن طولون، وقطب الدين النهرواني، ومحمد ابن أبي السرور البكري الصديقي، وشهاب الدين أحمد المقري. ولكنماينقصهم جميعاً الوعي الكوني، وإدراك التاريخ العالمي، الذي بدأ ينسج خيوطه بتصاعد مع بداية القرن، وظلوا عندما يريدون تأرخة (الغير) الأوربي، يعتمدون على المعلومات الشفوية، أو الموروثة من التأليف القديم، على الرغم من أن أوربا أصبحت وراء تخومنا. ولكن أوربا كلها لاتزال (مسألة خارجية) بالنسبة للمسلمين والعرب، ولم تتحول بعد إلى مسألة داخلية تقض المضاجع. وتفرض نفسها على الوعي وتجبره على أن يجيب على أسئلتها المحيرة، الجدية والمصيرية بنفس الوقت.

وظهرت أسماء لامعة في (الجغرافيا) حاولت أن تسد ثغرة في الجغرافيا البطليمية، المتوارثة، ذات العوالم السبع، وتواكب ما تعلمته أوربا في غزوها للبحار، فقائد الأسطول العثماني (سيد علي) ألف كتاباً هاماً (المحيط في علم الأفلاك والأبحر)، قدم معلومات جديدة حول البحار والبلدان

بما فيها أوربا، على الرغم من تأثره بالنظرية الجغرافية التقليدية، فعندما يشير إلى أمريكا يقول "أنها غير داخلة في الأقاليم السبعة"(١٠٣)، ومع (بيري رئيس) وهو قائد آخر للأسطول العثماني، نقترب أكثر من الوقائع الجغرافية المكتشفة، قدم لنا وصفاً لشواطئ المتوسط، يتابع بذلك تقاليد الرحالة العرب: الإدريسي، ابن بطوطة.. ويجمع معلومات عن الاكتشافات الإسبانية في أمريكا ــ أثناء استعداده لقتالها ــ ويرسم عام ١٥١٣ خريطة موضوعة على أساس خريطة كولمبس، تمثل الأطلسي مع أمريكا والشواطئ الغربية في أوربا. وقدم خريطة للسلطان سليمان عام ١٥٢٩ تمثل اكتشافات البرتغال في أمريكا الجنوبية والوسطى في الأراضي الجديدة، ولكن إنجازه هذا ظل يتيماً، ووضع في طيّات الأدراج، ولم يستفد منه أحد(١٠٤) وكأن الطاقات الخلاقة في الجانب الإسلامي قد استنفدت في نهاية القرن السادس عشر.

جرى نفس الأمر حين أُجهضت محاولة بناء مرصد في نهاية القرن السادس عشر، في عهد مراد الثالث (١٥٧٤ ــ ١٥٩٥)، إذ تأتي الأوامر بتدميره، البعض يُعزيه إلى ثورة العامة(١٠٣) والبعض يُرجعه إلى أن المفتي (قاضي زاده أفندي) أقنع السلطان بتدمير المرصد(١٠٤) في وقت بدأ فيه (غاليلو) يحدق في القبة السماوية. ولقد تأخر المسلمون عن أوربا في نشر (الطباعة الآلية، فانتظروا حتى القرن الثامن عشر بينما أوربا مارست طباعة الكتب منذ القرن السادس عشر وعلى نطاق واسع. وإن كان تم هذا في ظل رقابة مشددة.

بعد تعميم الطباعة الآلية في أوربا، ستنتشر الثقافة، ويصبح الكتاب أرخص وأكثر اقتناءاً، سيعقبها صدور الصحف الإخبارية: في ألمانيا عام (١٥٠٥) تصدر صحيفة من ورقة واحدة، وما أن جاء العام ١٥٩٩ حتى كان هناك ٨٧٧ نشرة من هذا النوع وكلها غير منتظمة، في عام ١٦٠٩ ستصدر أول صحيفة أسبوعية

منتظمة في (اوجزبرغ)، وأخرى مماثلة في فيينا عام ١٦١٠ (١٠٥). وكانت "دولية العلوم والثقافة " تحاول أن تضع نفسها خارج النزاعات وتكافح من أجل الاقتراب إلى الواقع. وهذا كله يشير إلى حقائق المستقبل، فغاليلو في نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر، سيبشر بقانون الجاذبية، ويضع أسس الفيزياء الرياضية، والطابع الهندسي والكمي للعالم. سيخرج من معطف هذا النموذج: نيوتن، ديكارت،وفلاسفة الأنوار، وانشتاين، في أزمنة آتية.

هناك نقطة أخرى ستسجل مستقبلياً، كاتجاه للتطور، لصالح أوربا. فالدولة العثمانية كانت الأكثر غنى في العالم المتوسطي، ميزانيتها ضعفي ميزانية الامبراطورية الرومانية المقدسة التي كانت تضم ألمانيا وإيطاليا وإسبانيا، الأراضي المنخفضة. ولكنها، وخلافاً لمعظم الدول الأوربية التي تبنت سياسة مركانتيلية مركزة اهتمامها على الانتاج وتصدير البضائع، والتوسع التجاري، ثم يأتي اهتمامها بالاستهلاك. الدولة العثمانية سارت في اتجاه معاكس، فتحت الأسواق على مصراعيها أمام البضائع المستوردة إذ " آمن رجال الدولة العثمانية أن بحبوحة وراحة الشعب تتوقفان على وفرة البضائع الاستهلاكية، بأثمان بخسة في السوق الداخلية، ووفقاً لهذا الاعتقاد أخذ الباب العالي يشجع على الاستيراد ويحد من التصدير بكل الوسائل"(١٠٦) وقدم للتجار الأجانب مختلف التسهيلات والامتيازات، أو الاعفاءات الجمركية التي تستنزف الاقتصاد، وتضعف الموقع التفاوضي للحرفي المحلي. وظلت الدولة حتى فترة (الإصلاحات) التي شهدها القرن التاسع عشر " متمسكة بنظام طوائف الحرف ومعارضة للتطورات التي كان يحتمل أن تؤدي إلى بروز الرأسمالية الصناعية " (١٠٧).

فلم تهتم الدولة العلية بالميزان التجاري، قدر اهتمامها بتوفير السلع للسوق الداخلية، وتمسكت بنظام طوائف الحرف، عندما كانت أوربا تعتمد

سياسة (الانتاج ـ للتصدير) كوسيلة للوصول إلى المعادن النفيسة: الذهب والفضة، وتشرف دولها على الشؤون التجارية وتأمين الأسواق، وعلى الصناعة ووفرة الإنتاج (١٠٨). بينما ركزت الدولة العثمانية على الفلاح والقرية، وليس على التجارة وصناعة التصدير، لاعتقادها الخاطئ أن الأرض، والفلاح هما مصدر موارد الدولة.

إن تلك السياسة، وهذه الطريقة في الإدارة، لم يتكشف ضررها عندما كانت الدولة العثمانية في عز أيامها، ولكن في المستقبل ستظهر النتائج البائسة، عندها يكون قد فات الأوان. فسياسة لاتعتمد أو لا تكرس نفسها لتشجيع الإنتاج المحلي، وتتصرف فقط إلى ضمان الوفاء بحاجات المدن، وخاصة العاصمة بالمؤن، وتستمر في فرض الضرائب الباهظة على المشاريع المحلية، ورسوم على الصادرات أكثر من تلك المفروضة على الواردات، وتترك النقل البحري الساحلي يقع في أيد أجنبية، وتعفي الأجانب من الرسوم التي يدفعها الرعايا(١٠٩). لايمكن أن تقود هذه السياسة في ظروف المباراة الكبرى مع أوربا، إلاَّ في تراجع الموقع العثماني. فعندما أطلّت الأزمة النقدية، وأزمة ارتفاع الأسعار خاصة بعد عام ١٥٨٠، مع تدفق ذهب المكسيك والبيرو، وأطلَّ معها تبدل الوضع الجديد للنظام الاقتصادي مع تراكم الثروات من التجارة الشرقية على أوربا وتدفق الذهب والفضة من غرب المتوسط المكتشف توا، سيستطيع الأوربيون كبح جماح هذا التطور واستيعابه واستخدامه في تطوير نظامهم الاقتصادي، في حين عجز المسلمون عن ذلك(١١٠)، مما يشير إلى قتامة المستقبل رغم غنى الحاضر. لقد تمت التضحية بالمستقبل، وبالطموحات المشروعة للفرد، لصالح فكرة عن التوازن الاجتماعي، لن تخدم في النهاية سوى الركود.

برع العرب، منذ زمن بعيد، في إنشاء الخزانات والسدود للسقاية. واستعملوا وسائل متعددة لرفع المياه من القنوات والأنهار: كالشادوف ومسمار أرخميدس، واستعملوا أيضاً (طاقة) الطاحونة الهوائية لإدارة رحى طحن الحبوب. وأهم الأدوات الزراعية لديهم: المحراث البدائي، والرفش ذو الشفرات المثلة، والجاروف والمنجل، والشوكة والمدقة والمعزقة، والنورج لدرس الحبوب (١١١). ولقد بقيت تلك الأدوات عندهم مستعملة في الزراعة، بدون تغيير تقريباً، حتى القرن الثامن عشر. وأوربا لم تكن أكثر تقدماً في هذا المجال، وكما تقول سميليا نسكايا: " يلاحظ أن الزراعة الأوربية التي تأخرت في تطوير التقنية القديمة، وكانت في بعض النواحي، على مستوى واحد مع الزراعة في الشرق الأوسط لم تشهد تغييرات جذرية إلا مع تطور الرأسمالية " (١١٢).

ولقد لاحظ (ديورانت) أن أساليب الزراعة وعلومها في الدولة العثمانية خلال القرن السادس عشر " كانت على الأقل تضارع ماكان منها لدى الغرب" (١١٣). وإن كانت أوربا قد بدأت في نقل بعض الزراعات الاستوائية، واحتكاكها بأساليب زراعية جديدة في العوالم المكتشفة.

حافظ العرب ـــ المسلمون على تفوقهم التقني في مجالات حرفية متعددة: مثل صناعة الخزف، والفخار، والزجاج والنسيج. " ويُذكر أن نهضة صناعة الحرير في المدن السورية تعود إلى نهاية القرن السادس عشر. وتشير المعطيات التاريخية إلى الانتشار السريع لانتاج منسوجات الحرير في ضواحي دمشق وحلب في مطلع القرن السابع عشر " (١١٤). وحسب ماجاء في " قاموس الصناعات الشامية " لمحمد سعيد القاسمي، فقد بقيت الشام تحافظ على /٤٠٤/ حرفة حتى القرن التاسع عشر. مما يدل على اختصاص متطور، خاصة إذا عرفنا أن في (روما) القديمة /١٥٠/ حرفة، وفي مصر

في العهد البيزنطي ١٨٠ حرفة، وفي المدن الروسية في القرن السادس عشر ٢١٠ حرف، وفي استكهولهم في القرن الخامس عشر /١٠٠/ حرفة، وفي نورمبرغ في القرن السابع عشر /١٥٠/ حرفة (١١٥). إلا أن أوربا قد بدأت تتفوق في عدة تقنيات جديدة ستمهد لنوع من السبق التقني الأوربي عن الأسلام. فبالإضافة لاختراعهم لساعات الحائط ذات الآلية المعقدة، والطباعة الآلية، والنظارات، واستخدامهم (طواحين المياه) في صناعاتهم النسيجية، والمعدنية، والخشبية (١١٦) فإنهم أدخلوا عدة أدوات صناعية وأصناف جديدة، كالمكابس لضغط الأجواخ بدلاً من ضغط القدم، واختراع الراهب (وليم لي) عام ١٥٨٩ للآلة الناسخة التي زادت سرعة النسيج من ١٠ ــ ١٥ ضعفاً (١١٧). وفي عام ١٥٤٠، وبدلاً من النزول إلى عمق عدة أمتار في المناجم، بدأوا بالنزول إلى (٢٥) وأحياناً خمسين متراً، مما اضطروا معه إلى فتح خنادق ودهاليز وسراديب تحت الماء.

وباشروا في صنع بكرات ضخمة لرفع الأثقال الكبيرة، تأتيها الحركة من محرك يدور على عجلة.. وكرات ضخمة مجهزة بمطرقة تتحرك بقوة الماء لتكسير فلزات المعادن، ومصاهر ضخمة للحديد تعمل على فحم الحطب.. ومنذ عام ١٥٤٠ أنشئت مصاهر حديد علو الواحد منها /٣٠/ قدماً، وبعرض /٢٠/ قدماً (١١٨). وفي عام ١٥٣٣، أضاف (جوهانجورجن) إلى عجلة الغزل ــ التي كانت تُدار باليد ــ ذراعاً (=دوسيه) تدار بواسطة القدم، فأطلقت يد الغزل، وضاعفت الإنتاج (١١٩).

من الخطأ الظن ــ كما قلنا سابقاً ــ إن الحياة السياسية أو الاجتماعية في أوربا المسيحية أفضل حالاً مما هي عليه في ديار الإسلام، وفي الدولة العثمانية. فلقد سادت أوربا منذ القرن السادس عشر ظاهرة الحكم المطلق،

فكانت إيطاليا وألمانيا مقسمتين إلى أرقاع صغيرة من الإمارات الاستبدادية، وفي إسبانيا جلَّل ملكية فيليب الاستبدادية، سطوة محكمة التفتيش الرهيبة، ولم تكن روسيا أحسن حالاً، ولم يصل العرش الانكليزي إلى مثل قوته آنذاك، حتى إذا بلغنا بداية القرن السابع عشر ستبلغ الملكية الاستبدادية الفرنسية ذروة مجدها. وكانت أوربا في هذه الحقبة أبعد ماتكون عن التسامح، أو احترام الخلاف في الرأي أو المذهب. فلم يكن اضطهاد المسلمين في إسبانيا والبرتغال، وتصفية وجودهم كبشر ودين سوى فصلاً مخزياً أولياً، للحروب الدينية داخل الجسد المسيحي التي ستبدأ في بداية القرن السادس عشر ولن تنتهي إلا مع النصف الثاني للقرن السابع عشر.

ففي الوقت الذي كانت فيه الحروب الدينية المرعبة تحصد أوربا: فرنسا، الأراضي المنخفضة، النمسا، اسبانيا، انكلترا " تمتع المسيحيون في العالم الإسلامي بتسامح ديني ماكان حاكم مسيحي ليحلم بمنحه للمسلمين في أي بلد مسيحي " (١٢٠).

وذهب (صمويل بيبس) في يومياته إلى أن معظم المجر استسلم للأتراك لأن البلاد نعمت في ظل الحكم العثماني بحرية دينية أكبر مما نعمت به في ظل الأباطرة الكاثوليك. ويشير توماس أرنولد أن الكالفينيين في المجر وترنسلفانيا.. آثروا الخضوع للأتراك على الوقوع تحت قبضة آل هبسبورغ المتعصبة، وإن البروتستانت في سيليزيا تطلعوا إلى الأتراك (١٢١).

ويقول فيشر، بنفس المعنى: " الكثير من بروتستانت ترنسلفانيا والمجر فضل العيش تحت لواء الهلال على أن يقعوا في قبضة الجزويت. وكان هناك ترجيح للأتراك من سجية التسامح الديني، وأكثر معاكسة للنمساويين من اضطهادهم بروتستانت بوهيميا " (١٢٢).

ويخبرنا لوثر (١٤٨٣ ـ ١٥٦٦): " سمعت بعض الناس، على الأراضي الألمانية، يرغب بمجيء العثمانيين وحكمهم " (١٢٣) وانتشرت الرغبة بالحياة تحت حكم العثمانيين بين السكان الأرثوذكس، وخاصة في أوكرانيا، وفي عدد كبير من بلدان حوض المتوسط، كما يشير إلى ذلك إيفانوف.

وكان رافضو الإيمان بالثالوث الأقدس والطوباويون والحركات المناهضة للإقطاع عامة، في القرن السادس عشر، يطالبون بمجيء العثمانيين.

وقد تميز أيضاً القرن السادس عشر بظاهرة نزوح الجماهير الأوربية إلى الإسلام، ولقد أكد (بروديل) أن المسيحيين، المجاورين للبدان الإسلامية، أصيبوا بدوار الردة، وبدأوا ينتقلون إلى الإسلام أفواجاً أفواجاً طوال القرن السادس عشر ومطلع القرن السابع عشر، ولم يحدث العكس (١٢٤).ويورد برنارد لويس:" إن حركة اللاجئين في القرنين الخامس عشر والسادس عشر كانت من الغرب إلى الشرق.. فهروب اليهود الإسبان إلى تركيا معروف للجميع"(١٢٥).

لذا. ليس بالمصادفة، أن ينصح الفيلسوف الطوباوي الاجتماعي (ت. كامبانيلا) بالاقتداء بالمسلمين، وتطبيق عدد من الإصلاحات على النمط العثماني. وكان التطلع إلى إعادة بناء المجتمع وفق النموذج العثماني برز واضحاً في مشاريع البيرغاتي، ولـ. تسوكرلو، وغيرهما من الطوباويين الإيطاليين في القرن السادس عشر ومطلع القرن السابع عشر (١٢٦). لذا نجد أن سياسة الطرفين، الإسلامي والمسيحي، تجاه الأقليات الدينية والمذهبية، سيكون لها نتائج متعاكسة: " فعندما انتهى الحكم العثماني في

أوربا، كانت الأمم المسيحية، التي حكمها العثمانيون خلال عدة قرون، لاتزال هناك. بالمقابل، في إسبانيا وصقلية لم يبق فيهما اليوم مسلمون أو ناطقون بالعربية " (١٢٧).

ستدفع أوربا ثمناً باهظاً لتعصبها المذهبي، وللحروب المذهبية التي قادها إليها هذا التعصب، ولولا الهجرات الجماعية لقسم من سكانها إلى ماوراء البحار: إلى أمريكا ـ شمالها، وجنوبها ـ لكان الثمن أغلى، والمصير مختلف.

أثناء تلك الحروب الطائفية الأوربية التي دامت مائة وخمسين عاماً ستضرب البغضاء بالمجتمعات الأوربية، وستذهب دعوات المثقفين، أمثال الفيلسوف (ليبنتز) لتوجيه تلك العداوات ضد الإسلام سدى. سينتشر الدمار، والقتل في كل مكان. فينال كل هذا من الحياة الأخلاقية، والقانونية (للجماعة الأوربية). ولن تتوقف تلك الحروب إلا عندما يكتشف الجميع، وبعد أن استُنفذت قواهم، أن ليس هناك غلبة لأي طرف في هذه الحروب المجنونة.

في الوقت الذي كان فيه المسيحيون يديرون حياتهم الدينية والذاتية بأمان، يضمنها الشرع العثماني النافذ، كانت أوربا تغرق في الدم. وسيدفع الألمان قرباناً لهذا الصراع المذهبي، المندمج بطابع اجتماعي وقومي، مئتي عام من التأخر التاريخي كما يشير إلى ذلك فريدريك أنجلس.

الصراع الديني المذهبي لن يقتصر على الكاثوليك والبروتستانت، صار الصراع بين الكالفنيين واللوثريين لايقل مرارة عن الأول، وانتشرت أشد النعوت والتحريمات، وأشد الأفكار ضغينة وحقداً بين كل الأطراف.

ودخلت "قاموس اللاهوت (التنابذي) ألفاظ كالروث، والنفاية، والحمار، والخنزير، والبغي.. ففي عام ١٥٦٥ اتهم الكاتب الكاثوليكي (يوهان فاس)

اللوثريين بممارسة القتل والسرقة والكذب، والغش والشره والسكر، ومضاجعة المحارم والجريمة، لأن إيمانهم ــ في زعمه ــ يبرر لهم كل شيء، ورجَّح أن تكون كل امرأة لوثرية مومساً"(١٢٨). وبالمقابل، الواعظ اللوثري (اندرياس لانج) عام ١٥٧٦، كتب بثقة: "إن البابويين (= الكاثوليك) كغيرهم من الترك (كذا !) واليهود والوثنيين خارج نطاق النعمة الإلهية"(١٢٩).

عندما اضطر الفرقاء لعقد صلح (اوجزبرج) في عام ١٥٥٥ أقرّ هذا الاتفاق، كخطوة تراجعية لصالح البروتستانت، أن يكون لكل أمير حرية في اتباع مذهب لوثر، ويكون رعاياه تابعين له، بمعنى ما أقر بمبدأ " إن الناس على دين ملوكهم ". فكم كانت أوربا في ذلك الوقت بعيدة عن مناخ الديمقراطية، والتسامح، وبكل الأحوال لن يغير هذا الصلح كثيراً من مناخ الحرب المذهبية، ومن أجواء العداء.

في عام ١٥٦٦، صار أنطونيو جيسلبري، رئيس محكمة التفتيش، بابا الكنيسة الكاثوليكية، فحرم على الفور اليزابيت (ملكة انكلترا)، وأحلّ الكاثوليك الانكليز من الولاء لها، وحض ملك فرنسا شارل التاسع على مواصلة اضطهاد الهيجونوت، وامتدح الأساليب الوحشية التي اتبعها الدوق (إلبا) في الأراضي المنخفضة، وشجع (محكمة التفتيش) على إشعال مواقدها. أما البابا سكستوس الخامس (١٥٨٥ ــ ١٥٩٠) ففي عهده انتشرت، فوق أرجاء الريف، الجثث المتأرجحة. وكلمنت الثامن (١٥٩٢ ــ ١٦٠٥) فقد أمر محكمة التفتيش بحرق (جوردانو برونو) شهيد الفلسفة الحديثة، في عام ١٦٠٠ (١٣٠).

فرنسوا الأول ملك فرنسا، المتذبذب بين مسيحيته ومصلحته، بين الامبراطور شارل والسلطان سليمان القانوني، بين تأييده للبروتستانت في

الخارج واضطهادهم في الداخل، وقَّع مرسوماً، ينص على إعدام (الوحدانيين). خلال أسبوع من هذا المرسوم، أحرقت بضع قرى، في إحداها ثمانمائة رجل وامرأة، وفي مدة شهر أزهقت أرواح ثلاثة آلاف نفس، وهدمت اثنتان وعشرون قرية، ولقيت خمسة وعشرون امرأة، لجأن إلى كهف، حتفهن خنقاً بنار أُشعلت عند المدخل (١٣١). تابع هنري الثاني بن فرنسوا اضطهاد البروتستانت، وأرسل من أُدين إلى المحرقة، وأعدم من أصر على آرائه البروتستانتية، فتم حرق ستين بروتستانتياً خلال ثلاث سنوات (١٣٢).

واستخدم الامبراطور شارل الخامس محكمة التفتيش في الأراضي المنخفضة وأصدر تعليمات بشأن البروتستانت: الرجال تقطع رؤوسهم بالسيف، والنساء يُدفن أحياء... فقدر سفير البندقية في بلاط شارل، أن ثلاثين ألف شخصاً هلكوا عام ١٥٤٦ في هذه المذبحة الامبراطورية الطويلة(١٣٣).

وفي فجر ٢٤ أغسطس عام ١٥٧٢ يوم القديس بارتلومي دُقت أجراس قصر العدل في باريس فكانت إشارة البدء في المذبحة، التي خطط لها الملك الفرنسي بنفسه، لم تقتصر المذبحة الوحشية على باريس، حيث قُتل حوالي ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف من الهيجونوت، بل تعدتها إلى الأقاليم.. جُر الهيجونوت وأبناؤهم إلى الشوارع وذُبحوا ذبح الأنعام، وانتزعت الأجنة من بطون أمهاتهم، وهُشموا، وارتُكبت المذابح الجنونية في ليون وديمون وأورليان، ودبلو، وتور، وبورج، وانجيه، وروان، وتولوز، كما يشهد على ذلك فيشر، وديورانت(١٣٤).

أقام فيليب ملك إسبانيا صلاة شكر للمسيح بمناسبة تلك المذبحة، وحينما وصل النبأ المروع إلى روما، نفح كردينال اللورين حامله ألف كراون وهو يهتز طرباً، وأضيئت روما كلها، وأطلقت المدفعية من قلعة سانت أنجلو،

وقرعت أجراس الكنائس ابتهاجا، وحضر غريغوري الثالث عشر وكرادلته قداساً مهيباً لشكر الله " على هذا الرضى الرائع الذي أبداه للشعب.. وأمر البابا بضرب ميدالية خاصة لهذه الذكرى العزيزة " (١٣٥).

في تلك الحقبة من القرن السادس عشر لايمكننا الحديث عن أي جامع للأخلاق بالسياسة، فكان مكيافيلي خير معبر عن سياسة هذه الحقبة، فملوك فرنسا الكاثوليك والذابحون للبروتستانت في الداخل، قدموا المساعدة والعون للإمارات البروتستانتية في ألمانيا نكاية بالامبراطور شارل الخامس، ولكي يثبت هذا الأخير الفساد المروع للأخلاق السياسية الأوربية، وهو الكاثوليكي، حامي الكاثوليك والتابع مذهبياً لكنيسة روما، استقدم جنوده مع ظهور أول بادرة خلاف حول المصالح السياسية بينه وبين البابا، وهيأهم لإذلال هذا الأخير. وهكذا " دفع شارل الخامس جيش من المرتزقة اللوثريين شقوا طريقهم داخل مدينة روما واعتقلوا البابا.. وأطلقوا العنان طيلة ثمانية أيام لقصفهم وقسوتهم: نهب كنائس، قطع رؤوس الرهبان، اغتصاب الراهبات، تحويل كنيسة القديس بطرس إلى اصطبلات " (١٣٦).

بالمقابل، البابا، وهو رأس الكنيسة الكاثوليكية سيتردد في دعم إسبانيا مالياً ضد انكلترا البروتستانتية خوفاً من ازدياد وزن فيليب الثاني في المعادلات الأوربية. وسيأخذ نفس الموقف أمام الصراع البروتستانتي الكاثوليكي، في حرب الثلاثين عاماً.

ومادام هذا هو حال الأخلاق والسياسة والاجتماع، والعلاقات بين الجماعات المذهبية في أوربا، فلاعجب أن تكون العقوبات وطرائق المحاكمة ذات طابع همجي، بدائي ثأري، فقد اعتقد رجال الحكم أنه من الأفضل، والأقل تكلفة، للحد من الجرائم، فرض عقوبات بالغة الشدة، وتنفيذها علناً أمام الناس.

ستكون عقوبة ضرب العنق بدون ألم امتيازاً اختص به عادة السيدات وأفاضل الرجال. أما الأقل مكانة فيشنقون. والحرق للهراطقة وقتلة الأزواج. والسفاحون يشدون أطرافهم الأربعة إلى أربعة خيول يجري كل منها باتجاه مضاد، حتى يتمزق الجسد أشلاء..وأصدر هنري الثامن ملك انكلترا عام (١٥٣١) قانوناً يحكم فيه بالغلي حياً على من يدس السم لأحد.

وإذا صدقنا (بودان) فإن عدة أفراد أحرقوا لتناولهم اللحم يوم الجمعة.. وفي الجرائم الصغرى يُستعمل الجلد، أو قطع احدى الأيدي أو الأرجل، أو الأذن، أو تجدع الأنف، أو تفقأ العين فكانت العقوبات، كما يقول ديورانت، أشد قسوة منه في العصور الوسطى، وهو مايعكس الفوضى الأخلاقية في ذلك الحين من القرن السادس عشر (١٣٧).

فلعل الحكم العام الذي أصدره هودجسون على القرن السادس عشر، أقرب إلى الحقيقة عندما يقول: " برغم الشفافية العامة للغرب المصاحبة للنهضة. كان الأوربيون الغربيون سياسياً دون الامبراطورية العثمانية، وكان المسلمون لايزالون، على الأقل متكافئين معهم تجارياً في معظم أجزاء المعمورة. وثقافياً أيضاً، كان المسلمون في أبهى فترات تألقهم (....) تحولات القرنين السابع عشر والثامن عشر هي التي أسهمت في التمييز القاطع بين الغربيين وبقية البشر " (١٣٨).

وعلى أساس استشراف تاريخي غاية في الاتساع، أشار (هودجسون)، لو أن زائراً من المريخ أطل على الأرض في القرن السادس عشر، لظن، أن العالم على وشك أن يصبح مسلماً. حيث غدا القسم الغالب من البشرية يعيش تحت ظل الإسلام بعد ضم بيزنطة والهند. ولم تعد سوى كتلتان ثقافيتان تقاومان الهيمنة الإسلامية: الصين وأوربا الغربية. وإن البشرية بدت ــ حتى

بعد مئة سنة من النهضة ــ وكأنها محاصرة من كل الجهات بالإسلام، وكما يقول جعيط: " إسلاماً يحتل مكاناً مركزياً، لأنه الوحيد من بين جميع أقرانه العالميين، الذي عقد علاقات مستمرة مع كل واحد منهم. إلا أن الغرب المائل غرباً، المضغوط على ذاته في وضعية شبه جزيرية، ويتحرك ضمن مساحته، لايمكن أن يكون في علاقته مع الخارج إلا تحديداً بواسطة الإسلام " (١٣٩).

ولعل أوربا هذه، التي بدأت تتعرف على نفسها في هذا القرن (السادس عشر)، مع إسبانيا والبرتغال، لم تكشف دورها، وتتعرف على ذاتها، وقلاقي مصيرها التاريخي، إلا عبر الجدل مع الآخر، أي عبر المواجهة مع الإسلام "إن ولادة أوربا للتاريخ قد تمت ولايمكنها أن تتم إلا عبر الإسلام، في مرحلة أولى تراجع دفاعي، وفي مرحلة ثانية انفجار هجومي"(١٤٠).

إلا أن أوربا ستنتظر طويلاً، بعد القرن السادس عشر، لتصل إلى تفوقها المادي والذهني، ولتدرك وتعي هذا التفوق الذي غدا مبرهناً عليه " هذا الحدث يرجع بشكل تقريبي إلى عام ١٧٥٠، فمنذ ذلك الحين، تظهر فكرة تأخر شرقي (...) هذا التفوق يفسره الغربيون من زاوية العقل، وهو عقل له تاريخ، بل هو التاريخ نفسه، وهو قد ولد في مصر (حكمة)، وانتقل عبر الإغريق إلى الرومان (مواطنة) ثم عَبْر العرب (علوم) ووجد أخيراً مستقره النهائي في أوربا " (١٤١).

ومنذ ذاك التاريخ، لم تعد التبريرات (الصليبية) لاقتحام العالم الإسلامي كافية، أو مقنعة لأطراف اللعبة الكونية بعد أن تبدلت مواقع أطرافها. فقد كانت الشعارات الصليبية، والروح الصليبية تناسب علاقة مجتمعات تتسم أطرافها، إلى حد ما بالنديّة، ويستبعد وينكر كل منهما الآخر، ويجد لديه مايبرر نهب الآخر أو تصفيته، فالمقياس الذي كانت تنظر فيه أوربا للشرق

الإسلامي إنما يخضع لزوج المفاهيم: الإيمان / الكفر. من هنا مبعث نزعة تدمير الآخر، واستبعاده، وتصفيته، يعززها لديها الخوف من تدمير الآخر لها، أما الآن، وقد غدا التفوق الغربي مؤكداً، وتأكدت ضرورة دوام العلاقات بين الشعوب، بعد انخراط جميع الأمم في العلاقات التجارية الكونية، التي باتت أوربا تدعّم سيادتها عليها تدريجياً، وأصبح الإبقاء على هذه العلاقة، مع توطد السيادة الأوربية، ضرورة لاراد لها ولامحيص عنها. مما يدفع إلى إيديولوجيا جديدة، تؤكد على ضرورة تلك العلاقات القائمة بين أمم الأرض، الآن، بنفس الوقت الذي تؤكد فيه على الموقع السيد لأوربا على تلك العلاقات. وأن تطلب تلك الإيديولوجيا من البشر الانتظام في الدرجة المناسبة التي تحتلها كل أمة في سلم الحضارة " فنقد الاستعمار الذي صاغه (التنوير) قد نسف التبريرات الدينية المقدمة خلال تأسيس أول امبراطورية استعمارية أوربية (إسبانيا، البرتغال)، ولتبرير سيطرة جديدة، لابد من ايديولوجية جديدة ترتبط عضوياً بايديولوجيا التنوير " (١٤٢).

ستحتل أوربا ــ من وجهة نظر أيديولوجيا التنوير ــ موقع المعلم، المنور، الذي ينشر التنوير على العالم، يحمل راية العقل، ومعياره الوحيد للحكم على البشر هي هذه الثنائية: العقل / الجهل. أوربا / الشرق، حيث تجسد أوربا لديه، الرهافة والعقل، ويجسد الشرق الاستبداد والجهل. ومن روح تلك المقاييس المبتكرة، سيتم نسج روح الوصاية الأوربية على الأمم الأخرى، ومنها الإسلام، فيصبح للفتح الغربي مذاقه التنويري الخاص، تتحول فيه ايديولوجيا التنوير ــ على صعيد العلاقات بين الأمم، إلى ايديولوجيا استبدادية، تبرر الطغيان الأوربي باسم استنارة العقل، وواجب نشر الاستنارة الغربية.

هوامش:من رجحان الموقع الإسلامي إلى توازن القوى

١ ــ يقول هــ. ج.ويلز: " وانضم هنري الثامن والبابا، عملاً منهما بقواعد الاستراتيجية الماكيافيلية إلى جانب فرنسا عند ذاك. لمنع شارل من أن يصل إلى حد بالغ من القوة " معالم تاريخ الإنسانية، عبد العزيز جاويد، المجلد الثالث، الكتاب السابع، لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة، ط١، القاهرة، ١٩٥٠، ص٨٤٣.

٢ ــ تأليف: روسلان موسينيه، بإشراف: موريس كروزيه، تاريخ الحضارات العام، المجلد الرابع، ترجمة: يوسف أسعد داغر، فريد. م. داغر، منشورات عويدات، بيروت ١٩٦٦، ص٥٥٢.

٣ ــ هربرت فيشر، أصول التاريخ الأوربي الحديث، د. زينب عصمت راشد، د. عبد الرحيم مصطفى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٠، ص١٨.

٤ ــ يقول د. جلال يحيى: " لقد تفتت الوحدة المسيحية، تحت تأثير حركة الإصلاح الديني، فالمسيحية لم تعد إلا فيما يتعلق بعلاقاتها مع الإسلام، سوى مجرد كلمة، وإن مايهم وحده بعد ذلك، هي هذه الدول العديدة المختلفة، التي أصبحت تقسم المجتمع المسيحي " تاريخ العلاقات الدولية في العصور الحديثة، دار المعارف بمصر ١٩٨٢، ص١٣.

٥ ــ د. عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون، ط١، مكتبة أطلس، دمشق ١٩٧٤، ص٨١.

٦ ــ روسلان موسنييه، تاريخ الحضارات العام، المجلد الرابع، مصدر سابق، ص٥٤٧.

٧ ــ هارولد لامب، سليمان القانوني، شكري محمود نديم، شركة النبراس ــ بغداد ١٩٦١، ص ١٤٩.

٨ ــ محمد جميل بيهم، العرب والترك والصراع بين الشرق والغرب،دار النشر (مغفل) ١٩٠٧، ص١٠٦.

٩ ــ المصدر السابق، ص ١٠٧، ويقول الدكتور جلال يحيى: " بينما كانت البندقية وإسبانيا وفرنسا ممثلة بشكل دائم في القسطنطينية، كانت البعثات العثمانية لدى هذه الدول المسيحية مؤقتة واستثنائية ". تاريخ العلاقات الدولية.. مصدر سابق، ص٢٧.

١٠ ــ ستانلي لين بول، الدول الإسلامية، محمد صبحي فرزات، مكتبة الدراسات الإسلامية، مطبعة الملاح، دمشق ٧٤، ص٤٧٧.

١١ ــ ول ديورانت، قصة الحضارة، جزء خامس، مجلد سادس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، جامعة الدول العربية، ص١٢٨.

١٢ ــ ول ديورانت، قصة الحضارة، مصدر سابق، ص١٢٨.

١٣ ــ ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الثالث من المجلد السابع، جامعة الدول العربية، ص ١٧١.

١٤ ــ د. خالد زيادة، اكتشاف التقدم الأوربي، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨١، ص٧٤.

١٥ ــ هارولد لامب، سليمان القانوني، مصدر سابق، ص٨٦.

١٦ ــ هاملتون جب، هارولد بوون، المجتمع الإسلامي والغرب، الجزء الأول، د. أحمد عبد الرحيم مصطفى، دار المعارف، القاهرة، ص٦٧.

١٧ ــ أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، القاهرة، ط٢ ١٩٩٣، ص١١٩.

١٨ ــ مصدر سابق، ص١١٨.

١٩ ــ مصدر سابق، ص١٣٨.

٢٠ ــ هاملتون جب، المجتمع الإسلامي والغرب، مصدر سابق، ص٦٨. راجع أيضاً: ز.ي.هرشلاغ، مدخل إلى التاريخ الاقتصادي الحديث للشرق الأوسط، مصطفى الحسين، دار الحقيقة، بيروت ١٩٧٣، ص١٨. حيث يقول هرشلاغ: " لم يبدأ منح الإقطاعات مقابل الخدمة العسكرية إلا في سنة ١٠٨٧، في ظل الأتراك السلاجقة، على يد رئيس الوزراء نظام الملك " ويؤكد محمد فؤاد كوبريلي على هذه الحقيقة عندما يقول: " لقد احتفظ العثمانيون بمبدأ كان مُتبعاً أيام السلاجقة يقضي بأن تقسم الأراضي المفتوحة إلى إقطاعات تعطى أقلّها للسباهية لقاء خدماتهم العسكرية، وتعطى أحسنها: زعامات، أو خاص، للقادة الأكبر مركزاً، بشرط أن يسلحوا عدداً من الجند يتناسب مع إقطاعياتهم " قيام الدولة العثمانية، ترجمة أحمد السيد سليمان، دار الكاتب العربي، بدون تاريخ، ص١٨٩/١٩٠.

٢١ ــ هاملتون جب... المجتمع الإسلامي والغرب، الجزء الأول، مصدر سابق، ص٦٩.

٢٢ ــ المصدر السابق، ص ٧٠، راجع أيضاً: كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، نبيه فارس، منير بعلبكي، ط٤، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦٥، ص٤٥٨/٤٥٩.

٢٣ ــ هاملتون جب، المجتمع الإسلامي والغرب، مصدر سابق، ص٦٧.

٢٤ ــ لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، د. عفيف البستاني، دار التقدم، موسكو، ١٩٧١، ص١١، راجع أيضاً: الفضل شلق، تاريخ المجتمعات الإسلامية، قراءة في كتاب ا.لابيدوس، الاجتهاد، العدد السادس والعشرون، والسابع والعشرون، سنة سابعة، ١٩٩٥.

٢٥ ــ لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، مصدر سابق، ص٢٥، راجع أيضاً: ز.ي.هرشلاغ، مدخل إلى التاريخ الاقتصادي الحديث للشرق الأوسط، مصدر سابق، ص ١٩٧٣.

٢٦ ــ هاملتون جب، المجتمع الإسلامي والغرب، الجزء الأول، مصدر سابق، ص٩٣ / ٩٤. راجع أيضاً: عمر رضا كحالة، مباحث اجتماعية في عالمي العرب والإسلام، مطبعة الحجاز بدمشق، ١٩٧٤، ص٣١٩ / ٣٢٤.

٢٧ ــ هاملتون جب، المجتمع الإسلامي والغرب، المصدر السابق، ص٨٦.راجع أيضاً: أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، مصدر سابق، ص٢٩.

٢٨ ــ كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، مصدر سابق، ص٤٦٨.

٢٩ ــ د.جلال يحيى، تاريخ العلاقات الدولية، مصدر سابق، ص٢١.

٣٠ ــ هربرت فيشر، أصول التاريخ الأوربي، مصدر سابق، ص٢١.

٣١ ــ نيقولا إيفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية، يوسف عطا الله، الفارابي، بيروت ١٩٨٨ ، ص٢٦٣.

٣٢ ــ روسلان موسينيه، تاريخ الحضارات العام، المجلد الرابع، مصدر سابق، ص٥٤٩.

٣٣ ــ الجنرال ج.ف.ث.فوللر، أثر التسلح في التاريخ، دار اليقظة العربية، ١٩٥٤، ص٨١. راجع أيضاً: أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، مصدر سابق، ص ٩٠.

٣٤ ــ روسلان موسينيه، تاريخ الحضارات العام، المجلد الرابع، مصدر سابق، ص٥٤٩.

٣٥ ــ ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الخامس من المجلد السادس، ص٩٤.

٣٦ ــ ول ديورانت، قصة الحضارة، مصدر سابق، ص٩٥.

٣٧ ــ أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، مصدر سابق، ص١٥.

٣٨ ــ د. جلال يحيى، تاريخ العلاقات الدولية، ص٢٥٩.

٣٩ ـــ قيس جواد العزاوي، الدولة العثمانية، قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، مركز دراسات الإسلام والعالم، فلوريدا، الدار العربية للعلوم، بيروت ١٩٩٤، ص١٦.
٤٠ ـــ روسلان موسينيه، تاريخ الحضارات العام، المجلد الرابع، مصدر سابق، ص٥٥٤.
٤١ ـــ المصدر السابق، ص٥٥٤.
٤٢ ـــ قيس جواد العزاوي، الدولة العثمانية، مصدر سابق، ص٢٢.
٤٣ ـــ ول ديورانت، قصة الحضارة، محمد علي أبو دره، الجزء الثالث، المحلد السابع، ص ١١٣.
٤٤ ـــ د. عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون، مصدر سابق، ص٨٢.
٤٥ ـــ إيفانوف، الفتح العثماني للبلاد العربية، مصدر سابق، ص٤٩.
٤٦ ـــ المصدر السابق، ص٢٨٨.
٤٧ ـــ محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، مطبعة التقدم بشارع محمد علي، مصر، ط٣، ١٩١٢، ص٨٠.
٤٨ ـــ هارولد لامب، سليمان القانوني، مصدر سابق، ص١١٨.
٤٩ ـــ محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، مصدر سابق، ص٨٤.
٥٠ ـــ هارولد لامب، سليمان القانوني، مصدر سابق، ص١١٩.
٥١ ـــ جاك فريمو، فرنسا والإسلام، من نابليون إلى ميتران، هاشم صالح، الأرض للنشر، ط١، ١٩٩١، ص١٩.
٥٢ ـــ ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الخامس من المجلد السادس، مصدر سابق، ص ١٠٣.
٥٣ ـــ د. جلال يحيى، تاريخ العلاقات الدولية، مصدر سابق، ص٢٣٥.
٥٤ ـــ ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الخامس من المجلد السادس، مصدر سابق، ص ١٠٤.
٥٥ ـــ كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، مصدر سابق، ص٤٥٢.
٥٦ ـــ روسلان موسينيه، تاريخ الحضارات العام، مجلد رابع، ص٥٥٢.
٥٧ ـــ محمد خليفة، الإسلام والمسلمون في بلاد البلقان، مركز دراسات العالم الإسلامي، فلوريد، ط١، ١٩٩٤، ص٢٤.

٥٨ ــ هارولد لامب، سليمان القانوني، مصدر سابق، ص١٧١.
٥٩ ــ المصدر السابق، ص١١٣ / ١١٤.
٦٠ ــ قيس جواد العزاوي، الدولة العثمانية، مصدر سابق، ص١٨، راجع أيضاً: أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، مصدر سابق، ص٩٤.
٦١ ــ أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، ص٩٦. راجع أيضاً: محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، مصدر سابق، ص٩٧، وراجع هارولد لامب، سليمان القانوني، ص٢٠٠.
٦٢ ــ هارولد لامب، سليمان القانوني، ص١٩٩. راجع أيضاً: محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص٩٢ /٩٤.
٦٣ ــ أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، ص٩٤.
٦٤ ــ محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص٤٢.راجع أيضاً، قيس جواد العزاوي، الدولة العثمانية... ص٢٠.
٦٥ ــ قيس جواد العزاوي، الدولة العثمانية.. ص٨٦.
٦٦ ــ ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الخامس من المجلد السادس، مصدر سابق، ص ١٠٧.
٦٨ ــ قيس جواد العزاوي، الدولة العثمانية.. ص٢٤.
٦٩ ــ المصدر السابق، ص١٠٨.
٧٠ ــ محمد جميل بيهم، العرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب، دار النشر بدون، ١٩٥٧، ص١١٨.
٧١ ــ إيفانوف، الفتح العثماني للبلاد العربية، مصدر سابق، ص٢٤٢.
٧٢ ــ المصدر السابق، ص٢٣٩.
٧٣ ــ المصدر السابق، ص٢٤٠.
٧٤ ــ المصدر السابق ص٢٤١.
٧٥- المصدر السابق، ص٢٤٢.
٧٦ ــ روبير شوسو، المعارك البحرية الكبرى في التاريخ، عبد الرحمن حميده، دار طلاس، دمشق ط١، ١٩٨٨، ص٥٣.

٧٧ ــ المصدر السابق، ص٥٢.
٧٨ ــ إيفانوف، الفتح العثماني.. ص٢٤٥. يقول عمر اسكندري وسليم حسن: " وغاية ما أثرت (هذه المعركة) أنها برهنت لدى أوربا انه يمكن التغلب على الترك " تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى ماقبل الوقت الحاضر. ص٤٢.
٧٩ ــ روسلان موسينيه، تاريخ الحضارات العام، المجلد الرابع، مصدر سابق، ص٥٤٩.
٨٠ ــ ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الثالث من المجلد السابع، ص١٤٥. راجع أيضاً: د.جلال يحيى، تاريخ العلاقات الدولية، ص٩٩.
٨١ ــ يقول إيفانوف عن هذه الحرب: " أصبحت حداً فاصلاً في تاريخ الحروب البحرية في العالم، على أساسه قام، منذ ذلك الوقت، توازن عسكري بين الشرق والغرب استمر حتى عام ١٦٨٣ " الفتح العثماني، ص٢٤٥.
٨٢ ــ د. جلال يحيى، تاريخ العلاقات الدولية، ص١٠٠.
٨٣ ــ د. كرين برينتون، منشأ الفكر الحديث، الفن العالمي الحديث، دمشق بدون تاريخ،ص٣١.
٨٤ ــ برتراند راسل، حكمة الغرب، الجزء الثاني، زكريا ابراهيم، سلسلة عالم المعرفة، الكويت ١٩٨٣، ص٣٢١.
٨٥ ــ إريك فروم، الخوف من الحرية، مجاهد عبد المنعم مجاهد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٢، ص٤٦، راجع هربرت فيشر، أصول للتاريخ الأوربي، ص٤١.
٨٦ ــ المصدر السابق، ص٤٨.
٨٧ ــ يذكر أرنست بلوخ انه: " بعد مذبحة السان بارتيلمي الفظيعة، حيث مر السيف على جميع الهوغنوت في باريس، أعقبها حركة مقاومة، وإن تيودور روبينز الناطق باسمها سيعلن بعد المذبحة: أن الرعايا غير ملزمين بطاعة غير مشروطة للسلطة " فلسفة عصر النهضة، ترجمة الياس مرقص، دار الحقيقة بيروت ١٩٨٠، ص١٢٣.
٨٨ ــ أرنست بلوخ، فلسفة عصر النهضة، مصدر سابق، ص١٢١ / ١٢٢.
٨٩ ــ د. كرين برنيتون، منشأ الفكر الحديث، مصدر سابق، ص١٩.
٩٠ ــ برتراند راسل، حكمة الغرب، الجزء الثاني، ص٢٨.
٩١ ــ البرت حوراني، مارشال هودجسون و"مغامرة الإسلام " الاجتهاد، بيروت، العددان السادس والعشرون والسابع والعشرون، السنة السابعة، ص١١٣.

٩٢ ــ ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الخامس من المجلد السادس، ص١٢٥.

٩٣ ــ أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، ص٦٩.

٩٤ ــ ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الخامس من المجلد السادس، ص١١٥.

٩٥ ــ راجع: أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، ص٨٩.

٩٦ ــ المصدر السابق، ص١٠٩.

٩٧ ــ ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الخامس من المجلد السادس، ص١١٢.

٩٨ ــ المصدر السابق، ص١٢١.

٩٩ ــ ول ديورانت، قصة الحضارة، اندراوس، الجزء الثالث من المجلد السابع، ص ١٣٨.

١٠٠ ــ كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، مصدر سابق، ص٤٨٢.

١٠١ ــ د. خالد زيادة، تطور النظرة الإسلامية إلى أوربا، معهد الانماء العربي، بيروت، ط١، ١٩٨٣، ص٤٧.

١٠٢ ــ كارل بروكلمان،تاريخ الشعوب الإسلامية، ص٤٨٤، راجع أيضا، د. خالد زيادة، تطور النظرة الإسلامية إلى أوربا، ص٤٧.

١٠٣ ــ ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الثالث من المجلد السابع، ص١٤٦.

١٠٤ ــ ثريا فاروقي، الاجتهاد، العلم والعلماء والدولة،الاجتهاد، العدد الرابع، ١٩٨٩، ص١٩٢.

١٠٥ ــ ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الثاني من المجلد السابع، ص٢٣٠.

١٠٦ ــ إيفانوف، الفتح العثماني.. مصدر سابق، ص٢٧٥.

١٠٧ ــ أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، ص١٣٣.

١٠٨ ــ راجع: المصدر السابق، ص١٣٤.

١٠٩ ــ شارل عيساوي، تأملات في التاريخ العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩١، ص٨٩.

١١٠ ــ ز.ي.هرشلاغ، مدخل إلى التاريخ الاقتصادي الحديث في الشرق الأوسط، مصدر سابق، ص١٤. راجع أيضا: قيس جواد العزاوي، الدولة العثمانية، مصدر سابق، ص٣٤.

١١١ ــ لويس بونغ، العرب وأوربا، ميشيل أزرق، دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٧٩، ص٦٣ / ٦٤.

١١٢ ــ ايرينا سميليا نسكايا، البنى الاقتصادية والاجتماعية في المشرق العربي على مشارف العصر الحديث، يوسف خطار الحلو، الفارابي، بيروت ١٩٨٩، ص٨١.

١١٣ ــ ول ديورانت، قصة الحضارة، بدران، الجزء الخامس من المجلد السادس، ص١٠٨.

١١٤ ــ ايرينا سميليانسكايا، البنى الاقتصادية.... مصدر سابق، ص٢٠٦.

١١٥ ــ المصدر السابق، ص١٨٦.

١١٦ ــ شارل عيساوي، تأملات في التاريخ العربي، مصدر سابق، ص١١٧.

١١٧ ــ روسلان موسينيه، تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص١٣٤.

١١٨ ــ المصدر السابق، ص١٣٥ ــ ١٣٦.

١١٩ ــ ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الخامس من المجلد السادس، ص١٨٣.

١٢٠ ــ ول ديورانت، قصة الحضارة، محمد علي أبو رده، الجزء الثالث من المجلد السابع، ص ١٣٦.

١٢١ ــ المصدر السابق، ص١٣٧.

١٢٢ ــ هربرت فيشر، أصول التاريخ الأوربي، ص٣٧٤.

١٢٣ ــ عن إيفانوف، الفتح العثماني للبلاد العربية، ص٤٨.

١٢٤ ــ المصدر السابق، ص ٢٧٣.

١٢٥ ــ برنارد لويس، الحرب والسياسة، تراث الإسلام، قسم أول، تصنيف شاخت وبوزورث، ترجمة محمد زهير السمهوري، عالم المعرفة، الكويت، ص٢٨٦.

١٢٦ ــ إيفانوف، الفتح العثماني.. مصدر سابق، ص٤٧.

١٢٧ ــ برنارد لويس، الحرب والسياسة، مصدر سابق، ص٢٨٦ ــ ٢٨٧.

١٢٨ ــ ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الثالث من المجلد السابع، ص١٩٢.

١٢٩ ــ المصدر السابق، ص ١٩٢.

١٣٠ ــ ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الثاني من المجلد السابع، ص٢٣ ــ ٢٩

١٣١ ــ ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الرابع من المجلد السادس، ص٢٧.

١٣٢ ــ ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الخامس من المجلد السادس،ص ٥٣ ــ ٥٤

١٣٣ ــ المصدر السابق، ص٢٤٥ ــ ٢٤٧.

١٣٤ ــ هربرت فيشر، أصول التاريخ الأوربي.. مصدر سابق، ص١٩٢.وراجع ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الثاني من المجلد السابع، ص١٩٨ ــ ١٩٩.

١٣٥ ــ ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الثاني من المجلد السابع، ص٢٠١.

١٣٦ ــ هربرت فيشر، أصول التاريخ الأوربي... ص١٤٤.

١٣٧ ــ ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الخامس من المجلد السادس، ص١٩٢ــ١٩٣.

١٣٨ ــ مارشال هودجسون، التحول الغربي الكبير، الاجتهاد، العدد السادس والعشرون، والسابع والعشرون، السنة السابعة، ١٩٩٥، بيروت ص٦٧ ــ ٦٨.

١٣٩ ــ هشام جعيط، أوربا والإسلام، دار الحقيقة، بيروت، ط١، ١٩٨٠، ص١٢٧.

١٤٠ ــ المصدر السابق، ص١٢٥.

١٤١ ــ هنري لورنس، شارل جليسبي، جان ــ كلوجولفان ــ كلود ترووينكر، الحملة الفرنسية على مصر: بونابرت في مصر، ترجمة بشير السباعي، سينا للنشر، القاهرة، ط١ ١٩٩٥، ص١٧ / ١٨.

١٤٢ ــ المصدر السابق، ص١٧.

الفصل الخامس

بحار ـ تجارة ـ أساطيل

القسم الأول

البحار الداخلية

البحر الأسود / البحر المتوسط

١ ــ البحر الأسود:

أُصيبت "القبيلة الذهبية"، المغولية، التي بسطت سلطانها شمالاً حول قزوين والبحر الأسود، وفرضت الجزية على الإمارات الروسية، لعدة قرون، بضربة موجعة على يد (تيمورلنك) عام ١٣٩٥، مما سيؤدي إلى إضعافها وتشظيها خلال القرن الخامس عشر (١) في عام ١٤٣٨ انفصلت خانية (قازان) وهي في عمق السهوب الداخلية قرب (الفولغا)، وسيتبعها انقسام دولة (خانات القرم) بقيادة (آل جيراي) عام ١٤٤٠، شمال البحر الأسود على مصب نهر الدون، ثم يعقبها قيام دولة (اسطرخان) على مصب نهر الفولغا في بحر قزوين.

مع (محمد الفاتح)، الذي تعاون مع خانات القرم لتطهير شاطئ البحر الأسود من المستعمرات الجنوية، تحول هذا البحر إلى بحيرة عثمانية، وأصبح خانات القرم تابعين للامبراطورية العثمانية، وعلى الرغم من هذا الحدث الكبير، قوبل تفتيت (القبيلة الذهبية) بارتياح عظيم في موسكو، وانتهز (إيفان الثالث) فشل هجوم خانات القبائل العظمى على موسكو، لتعزيز موقعه في روسيا، وصار في وضع يستطيع به تقوية نفوذه في قازان، مستغلاً الخصومات المحتدمة (٢).

تقطعت العلاقات والصلات الجغرافية بين اسطراخان (خانات الفولغا) على قزوين، وخانات القرم على البحر الأسود، وبقي مايفصلها من أراضٍ واسعة دون حماية، مما سهل هجوم موسكو، وقوّى موقعها على هذا البرزخ. ووضع حاجزاً بين قزوين، والأسود، بين استراخان والقرم، بين الدولة العثمانية وخوارزم وكازاخستان وآسيا الوسطى ثم الهند.

تلك التقسيمات مكَّنت إيفان الرهيب، أمير موسكو، أن يحرر نفسه عام ١٤٨٠ من كل جزية وتبعية تجاه تلك الخانات. وكما فعل الإسبان والبرتغاليون، فقد انطلق الروس ليتعقبوا أسيادهم السابقين. وكانت سياسة (إيفان الرهيب) بسيطة وواضحة، فهو يريد أن يصل ويربط روسيا مابين بحر البلطيق وبحر قزوين (٣).

وبعد صراع مرير ضد تتر الفولغا، استطاع الروس، في النهاية، أن يحتلوا قازان عام ١٥٢٢، وكان من السهل عليهم، بعد هذا الإنجاز، أن يزحفوا حتى الفولغا ويحتلوا (استراخان) على قزوين بعد أربع سنوات ١٥٥٦، فأصبح نهر الفولغا قناة روسية، وسيطروا بذلك على طريق تجارة الفولغا، ووصلوا بحر قزوين، فأصبح الظرف مناسباً للزحف الروسي الكبير على آسيا، " ففي الوقت الذي كانت فيه القوى البحرية الأوربية تجول حول إفريقيا، وتوطد نفسها جنوب آسيا وجنوبها الشرقي، تقدم الروس براً إلى البحر الأسود وقزوين، وضموا الشعوب الإسلامية في القرم: داغستان، وأذربيجان الشمالية والفولغا، وكازاخستان، وآسيا الوسطى، ضمن ملكهم المترامي الأطراف " (٤).

كانت هاتان الحادثتان (السيطرة على استراخان وقازان) علامتين فارقتين لإنهاء النفوذ الآسيوي ــ الإسلامي في أوربا الشرقية. سيتعرض التتار بعدها لتغيرات جذرية، فقد عمد الروس إلى تنشيط التبشير المسيحي، وبالقوة إن اقتضى الأمر، وطبقوا نظاماً مالياً بحق التتار، ودفعوا بموجة عارمة من المهاجرين الروس ليحتلوا مكان السكان المسلمين في المدن والقرى، إلى درجة أن (قازان) أُخليت من سكانها المسلمين (٥) متجاهلين معاملة الأتراك العثمانيين لرعاياهم المسيحيين في البلقان المتسمة بالتسامح الديني. ويلاحظ (برنارد لويس) التشابه بين حركة الإسبان، وجهود الروس لاقتلاع المسلمين التتار من جنوب روسيا.

لم يشعر العثمانيون من ناحيتهم بخطر دوقية موسكو الكبرى حتى عام ١٥٣٠، حين اصطدمت هذه الدوقية مع خانات القرم، الذين قاوموا توسعها في اسطراخان وقازان. فقد بقي البحر الأسود في الشرق، بحيرة عثمانية، إذ تمتد سلطة سليمان القانوني لتشمل السهوب، من بدايتها في مصب الدانوب، وتحيط قوس الساحل الشمالي للبحر الأسود، وضمنه قلعته الطبيعية في القرم، ثم، إلى الحاجز العظيم، سلسلة جبال القفقاس الواقعة بين الأسود وبحر الخزر (٦) ولاتزال له روابط كثيرة مع أقوام السهوب الشرقية من الازبك والقرغيز وتتر الفولغا. ولم يتخل سليمان وخلفاؤه عن حلمهم باسترجاع استراخان وقازان، في الوقت الذي تمسكوا فيه بالبحر الأسود وحماية القرم، وأصبحت فيه (أوكرانيا) نقطة الحدود الفاصلة بين العثمانيين والمسكوف. ومازالت موسكو تخشى تحدي استنبول في اختبار بحري. وحتى في القرن السابع عشر عام ١٦٣٧ عندما انتزع قوزاق الدون (آزوف) من الحامية العثمانية، أعادتها (موسكو) فوراً إلى استنبول (٧). إلاّ أن الاحتلال الروسي لاستراخان شكل حداً فاصلاً لاتصال العثمانيين المباشر مع دولة خوارزم، وآسيا الوسطى، والعمق الهندي المسلم، بالإضافة إلى أنه سيحرمها من السيطرة على الطريق البري لتجارة الشرق الأقصى، بعد أن التف البرتغاليون على هذه التجارة في الطرق البحرية جنوب ديار الإسلام. وهكذا: " فقد كان المسلمون يخشون أن يؤدي استيلاء موسكو على الطرق التجارية والأسواق الكبرى إلى استحواذها على تجارة البلدان الإسلامية ــ هذا في الوقت الذي كانت فيه الدولة العثمانية تكافح لعرقلة اعتراض البرتغاليين لطرق التجارة والحج. وتسعى إلى إنعاش الطريق الذي يصل آسيا بأستراخان والقرم " (٨).

السلطان سليم الثاني بن سليمان قام بوضع مشروع لمنازعة القيصر الروسي على قازان واستراخان، فجهز حملة كبرى عام ١٥٦٩، بغرض

السيطرة على استراخان وجعلها قاعدة ارتكاز دفاعية عن المنطقة، وشق قناة بين الفولغا والدون تصل البحر الأسود بقزوين، وتمكين العثمانيين من مواجهة التوسع الروسي جنوباً، وطرد الفرس من القوقاز وأذربيجان والتقدم من هناك على حساب فارس، والاتصال مع الأوزبك أصدقائهم وبالتالي إحياء طرق القوافل القديمة المارة في أواسط آسيا من الشرق والغرب، فتقدم جيش يفوق عدده على مائة ألف رجل يعبر الحدود عند (اوكا) عام ١٥٦٩، معلناً بدء الحملة، إلا أن موقف خان القرم (الجيراي) المتردد خشية وجود حاميات عثمانية دائمة في استراخان وعلى طول الفولغا قرر المصير النهائي لهذه الحملة. وقد أمكنه، بمساعدة عثمانية، الوصول إلى موسكو، وتوجيه ضربة قاضية إلى مملكة إيفان الرابع، واستطاع العثمانيون، من جهتهم، شق ثلث القناة المقررة، إلاّ أنهم قرروا استعجال الوصول إلى استراخان، مما أدى إلى فشل تلك الحملة الكبرى (٩).

على أثر تحطم الأسطول العثماني في معركة (ليبانتو) عام ١٥٧٢ فقدت الخطة العثمانية لاسترداد استراخان وقازان وزنها وأهميتها، وطواها الزمان من ذهن (المخطّط) المسؤول.فضاعت استراخان وقازان إلى الأبد، ولم يبق من ممالك القبائل الذهبية سوى (خانية القرم) على البحر الأسود، وضاع الطريق التجاري الدولي، المار من آسيا الوسطى إلى البحر الأسود من أيدي المسلمين، وضعف موقع المسلمين التجاري العالمي، ومنذ ذلك الحين، وصاعداً، ستكون روسيا قاعدة تهديد دائم للعثمانيين والفرس وماحول قزوين. غير أن الروس ماتجرأوا على التقدم في اتجاه القرم والبحر الأسود إلا في نهاية القرن السابع عشر، عندما أعد (بطرس الأكبر) الطموح حملة عبر الدون للإستيلاء على بعض مناطق آزوف لكنه عاد خائبا، وأعاد الكرة في السنة التالية، بمساعدة القوزلق، مع ذلك ما

استطاع الاحتفاظ بمكاسبه (١٠) وللمرة الثالثة عام ١٧١١ قاد (بطرس الأكبر) جيشه المنتصر على السويد في معركة (بولتافيا) مجتازاً خطط الحدود على نهر الدنيبر، فقام العثمانيون بقيادة الصدر الأعظم (بلطه جي محمد باشا) بتطويق بطرس وزوجته كاترين، وجنحوا للسلم بشرط تقديم فدية عظيمة، والتعهد بإعادة آزوف للأتراك وإزالة التحصينات الروسية على هذا النهر، وقدمت كاترين إلى الصدر الأعظم كافة مجوهراتها (١١). وقد ترك هذا الاتفاق إشارة استفهام خطيرة على سلوك هذا الوزير العثماني، اتُّهم بالخيانة على أثرها. وحينما قام بطرس الأكبر بمحاولته الرابعة للسيطرة على القرم، تحطم أسطول تموينه في بحر قزوين، وعاد جيشه عاثراً.

أدى الصدّ العثماني الدائم للروس، وفشل (بطرس) المتكرر إلى توجه الروس، مجدداً، إلى البلطيق، وهناك أقاموا مدينة (بطرسبورغ) مع احتفاظهم بحلم فتح الأنهار الجارية إلى البحر الأسود، وفي عام ١٧٣٩ وافق الروس، بموجب معاهدة بلغراد على ألا تدخل سفنهم إلى آزوف أو البحر الأسود.

في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، أخذت كاترين الثانية زمام المبادرة، وراحت تذيع في أوربا " إن القضاء على قوة القرم، ماهو إلا في مصلحة الدول الأوربية الغربية، والحضارة الغربية ". وجاء انتصار روسيا على العثمانيين عام ١٧٦٨ ــ ١٧٧٤، وماتلاها من عقد معاهدة كوتشوك كنارجي (كوجك كنارجه) خاتمة مصير القرم، بموجبها نُقلت دولة القرم من العثمانيين إلى الروس (١٢).

وكان من أهم بنود تلك المعاهدة: استقلال بلاد القرم وبسارابيا عن الدولة العثمانية، وأن تكون للبحرية الروسية حرية الملاحة في البحر الأسود

والمتوسط، وأن تبني روسيا كنيسة بالآستانة، وأن يكون لها حق حماية جميع المسيحيين الأرثوذكس (١٣).

تم ضم شبه جزيرة القرم إلى روسيا رسمياً عام ١٧٨٣، هذا الضم الذي خول روسيا توسعاً عظيماً في الأراضي التي تمتلكها على شاطئ البحر الأسود، ولقواعدها الجديدة التي كانت قيد الإنشاء لأسطولها القوي (١٤).

في عام ١٧٩٢، أقرّت الدولة العثمانية امتلاك روسيا بلاد القرم نهائياً (١٥) فأجرى الروس تغيرات سكانية واسعة، وشجعوا حركة استيطان روسية كبيرة على حساب السكان المسلمين، مما أدى إلى تقليص المساحة المتبقية ودفع الكثير منهم نحو الهجرة(١٦)، فغدا مصير التتر لايختلف عن مصير (الأندلسيين) في إسبانيا، وعلى النقيض من مصير المسيحيين في البلقان، أو في أنحاء الامبراطورية العثمانية.

٢ ــ في البحر الأبيض المتوسط:

ماكانت أمريكا أو العالم الجديد، حتى عصر (هيجل) سوى "أرض المستقبل" حسب تعبيره، ومازال المتوسط يشكل، بطريقة ما، قلب العالم، الذي تتوزع منه الطاقات الخلاقة على الكون بأسره، ولازال هيجل بإمكانه أن يقول في القرن الثامن عشر: " البحر المتوسط كان باستمرار عنصر ربط، ومركز للتاريخ العام بالنسبة إلى ثلاثة أرباع الكرة الأرضية. فهاهنا تقع اليونان منارة التاريخ، وهنا أيضا القدس في سوريا، وهي مركز اليهودية والمسيحية، وفي الجنوب الشرقي تقع مكة والمدينة، مهد الديانة الإسلامية، نحو الغرب تقع دلفي وأثينا، وإذا سرنا أبعد في طريق الغرب، وجدنا روما، وعلى شاطئ المتوسط، وهو قلب العالم القديم، الذي يتحكم فيه ويشيع فيه الحياة (...) وآسيا الشرقية والبلاد التي تقع فيما وراء جبال الألب، تمثل الطرفين

الأقصيين لتلك البؤرة المضطربة للحياة البشرية التي تقع حول البحر الأبيض المتوسط، التي هي بداية التاريخ ونهايته، وظهوره وانهياره (١٧)".

على حواف هذا البحر، سيتلاقى الناس، ليتبادلوا المنافع، والأرزاق والتأثيرات الثقافية، وايضا ليتحاربوا. سيشهد هذا البحر، عبر التاريخ، تقلبات موازين القوى على أطرافه، فمن سيطرة الفينيقيين، إلى سيطرة المقدونيين ثم الرومان، وبعد تداول السيطرة بين بيزنطة ثم العرب المسلمين، توزع النفوذ قوى إسلامية ومسيحية: الأيوبيين في مصر والشام، والكومينيين في بيزنطة، والمرابطين في الأندلس، والتي ظلت، على اختلاف أوزانها، تتميز بطابع محلي، فلاجدال ــ كما يقول أرشيبالد: " إن هذه القوى الثلاث ظلت في عنفوانها من الناحية الحضارية ولكنها لم تهدد بصفة جدية سلطان غرب أوربا وسيادته على البحر المتوسط وتجارته، بل إن الذي نافس بيزا وجنوه والبندقية منافسة يعتد بها، كانت المراكز البحرية الجديدة في الغرب أمثال برشلونة ومونبلييه ومرسيليا. وصارت بعد عام ١١٠٠م.أنفذ منافسة من البيزنطيين، ومسلمي الأندلس ومصر. على أن هذه المراكز البحرية الجديدة لم تزحزح السفن الإيطالية والتجار الإيطاليين عن البحر المتوسط: فظل أهل بيزا وجنوه والبندقية حتى عام ١٥٠٠ على ماكانوا عليه في سنة ١١٠٠، أي أصحاب النصيب الأوفر من ملاحة المتوسط وتجارته ولم يتأثر مركزهم هذا إلا في القرن السادس عشر " (١٨).

إذ منذ عراك الحروب الصليبية حتى القرن السادس عشر ــ كما يشير إلى ذلك بروديل، صارت مراكب المدن الإيطالية سيدة على سطح البحر كله، دون منازع: البندقية، جنوه، بيزا...(١٩). فقط مع نهاية القرن الخامس عشر استعادت الدول البرية دون شك عزمها، فنشهد بروز قوة جديدة: إسبانيا،

فرنسا، الامبراطورية الرومانية، الدولة العثمانية * فلن يغدو لهذه المدن، حتى أقواها البندقية، وزن " أمام هؤلاء الضخام، وهكذا أخذت السياسة ثأرها من الاقتصاد " (٢٠).

تفضيل العثمانيين التوسع على حساب أوربا المسيحية سيدفعهم، مرغمين، على اتقان مهنة صناعة الأسطول. الذي هو الشرط اللازم لعبور الدردنيل، ولطرد البنادقة والجنويين من المناطق التي امتلكوها شرقاً، منذ الحروب الصليبية، أو للتقدم أكثر باتجاه بحر إيجه، وفي عرض البحر المتوسط لملاقاة مقادير الصراع مع القوى الأوربية البحرية: إسبانيا التي كانت الجزء الهام من الامبراطورية الرومانية حتى عام ١٥٥٩، والتي ظلت حتى نهاية القرن أبرز الدول البحرية الأوربية في المتوسط، وماوراء الأطلسي.

كان لعهد مراد الثاني دوره الافتتاحي في بناء نواة الأسطول العثماني، قلد فيه الطرائق الإيطالية في بناء السفن، والذي استطاع العثمانيون به طرد البنادقة من مناطق ساحلية منيعة في شبه جزيرة البلقان (٢١) وتنامت قوة الأسطول في عهد محمد الثاني، بمناسبة الاستيلاء على القسطنطينية، وقد حول البحر الأسود إلى بحيرة عثمانية. إلاَّ أنهم لم يتحولوا إلى قوة بحرية كبرى إلاَّ زمن (بايزيد الثاني) الذي ثبت نفوذه على شرق المتوسط، بعد أن أجبر البنادقة وفرسان رودس على عقد صلح عام ١٥٠٣، وسيأمر، بعدها، بإجراء تجديد شامل للأسطول، ومضاعفة عدد قطع الأسطول لتدارك مخاطر الظهور البرتغالي والصفوي في الخليج والمحيط الهندي، وقد اكتمل بناء

---

* يعزو البعض بروز قوة الدولة البرية إلى استعمال البارود في الحروب والتكلفة الهائلة لهذا الاستعمال مما يتطلب دولة مركزية كبرى. ارجع في ذلك إلى هودجسون، وإلى ج.ف.ث فوللر.

القطع الجديدة عام ١٥٠٥، إلاً أنه واصل إنتاج المدافع البحرية من الحديد والبرونز لإمداد السلطان سليم لمواجهة البرتغاليين (٢٢) وفي عام ١٥١٣، أمر السلطان سليم (١٥١٢ ــ ١٥٢٠) ببناء مائتي سفينة جديدة، واشترط على البندقية، لتجديد الإتفاقية معها، إعطاء اسطوله الحق في التزود من مرافئها عند الحاجة، وثابر في منح المماليك الذخيرة اللازمة، وربما لإدراكه عجز المماليك عن تحدي البرتغاليين (٢٣). وقد لامس الأسطول العثماني ذروة قوته ومكانته وفاعليته أيام (خير الدين بربروسا) في عهد (سليمان القانوني) حيث ستمخر سفنه عباب بحار العالم القديم جميعها.

تحت سطح أحداث الحرب والتجارة في البحر، كان هناك تسابق تقني في ورشات أحواض السفن. وفي القرن السادس عشر استمر المتوسط في استعمال السفينة التقليدية ذات المجاديف، من ذوات الثلاث صفوف التي تعلو بعضها، لذا، سُميت (ثلاثية) ويقوم بالتجديف عليها عادة رجال أسرى أو عبيد، بمجاديف طويلة، وتسمى تلك السفن (الشوان) أو (Galere) وتستعمل الشراع المثلث الكبير عند الإبحار الاعتيادي، وترمي من المدفع الثقيل الموجود على سطحها الأمامي، وتنطح بكبشها الضخم ذي الرأس البرونزي، ولكنها لاتتمكن من حمل أرزاق تكفي لثلاثة أيام أو أربعة في البحر، وكان رقيق (الشونة) المربوطون بالسلاسل إلى المجاديف يشكلون معضلة، إذ، ينبغي إطعامهم وحراستهم.

كانت هذه السفينة التقليدية لاتزال مُعتمدة عند العثمانيين والبنادقة في القرن السادس عشر (٢٤) في هذا الوقت بدأ الإسبان والبرتغاليون صنع السفن الشراعية، من عابرات المحيط ذات جانبين مرتفعين، وبطاريات مدافع جانبية، وتعرف باسم (كرافيل)، اقتضى مرور قرن من الزمن لتكسب

السيطرة على البحر المتوسط " (٢٥) فبقي الأتراك والبنادقة، والإسبان، قبل تقدمهم التقني ــ يستعملون السفينة الثلاثية، ذات المجاديف، في حروبهم في القرن السادس عشر على المتوسط. وكانت السفن التي تسير على الشراع وحده، تستعمل على الأغلب، إن لم يكن كلية في النقل (٢٦) قبل أن يتقدم استعمالها في الحرب. وسيجري التنافس بين هذين الصنفين من السفن: الشوان، أي السفينة التقليدية ذات الثلاثة صفوف Galere، وبين السفينة الشراعية (الكرافيل) التي تستعين بالشراع فقط للإبحار، وكان لها عدة صوار، وحافتها تعلو جدا على سطح الماء، وسعتها كبيرة ٢٠٠ ــ ٥٠٠ برميل. تقضي الشتاء في المرافئ، ولها أنواع مختلفة، منها سفينة Hapques الصالحة للركوب في جميع الفصول، وسفينة Galions وهي سفينة ضخمة، استعملها الإسبان في النقل في ماوراء الأطلسي (٢٧). وفي هذا القرن انتقلت نقطة الثقل في المواصلات البحرية من المتوسط إلى المحيط أو الأقيانوس، واشتدت المنافسة بين السفينة الثلاثية، أداة الملاحة في المتوسط، والسفينة الشراعية أو المركب (الكرافيل) وما إن مالت شمس القرن للمغيب حتى كانت الأفضلية لكرافيل (٢٨). سيؤكد هذه الحقيقة الفشل الذريع الذي أصاب الارمادا الإسبانية والتي أعدها فيليب لغزو انجلترا من جراء نواقص الثلاثية، ونجاح أساطيل الدول المسيحية في معركة (ليبانتو) حيث عرف المسيحيون كيف يعبئون سفنهم ضد الأسطول العثماني بوضع مراكبهم في الطليعة، فبدت خطوطهم الأمامية لاتقهر على أيدي الثلاثية العثمانية (٢٩).

وحتى يتصدى العثمانيون لهذا التفوق التقني، ولهذه السفن المتطورة، بدأوا ببناء سفن مشابهة، إلا أن نقص البحارة وعدد المدربين واصطدام النظم الجديدة بالأطر القديمة، أفقد تلك التجديدات قيمتها. إذ إن استعمال السفن

الشراعية قد حتم تنظيم هيئة منفصلة في الأميرالية، فأوجد هذا معارضة من الطاقم القيادي القديم، ولهذا أُهمل بناء السفن الشراعية في استنبول بعد إقرار السلام مع البندقية، على الرغم من استمراره في (بايات) المغرب العربي، وفي مصر. ولم يعاودوا العمل في استنبول، حتى لاح خطر الحرب مع البنادقة من جديد عام ١٦٨١، فجاء بعد فوات الأوان، من هنا أصبح الأسطول العثماني لايكاد يزيد ـ كما يشير جب ـ على ربع الأسطول الذي كان عليه منذ قرن مضى، وأصبح العدد الكلي لسفنه أقل مما كان عليه منذ قرن (٣٠) بل إن بروكلمان يشير إلى أن الأسطول العثماني اقتصر نشاطه، بعد (ليبانتو) شيئاً فشيئاً على خفر السواحل..حتى إذا دخلت سنة ١٥٧٦ لم يكن قد بقي عند الدولة غير أربعين قارباً كاملة التسليح، من أصل الثلاثمائة التي كانت تمتلكها سابقاً (٣١)، وبقيت مسألة تأمين العنصر البشري المناسب للأسطول مشكلة قائمة، ولم تجد الحلول المناسبة لها، بل ستتفاقم على مر الأيام، إذ لم يحرز العثمانيون سمعة بارزة باعتبارهم بحارة، فاعتمدوا في ركوبهم للبحر ـ ولانقول على الحرب في البحر ـ على اليونانيين من سكان جزر وسواحل إيجه، وعلى المسلمين الذين يتكلمون العربية من سكان نيابات شمال إفريقيا (٣٢).

إذا كانت القرصنة ـ في هذه الفترة ـ قد طبعت أحداث المتوسط، فلأن هذا البحر كاد يكون أكثر المناطق عرضة للتنازع بين المسلمين والمسيحيين، وكل منهما يعتبر نفسه في حالة حرب مع الآخر، ويجيز لنفسه الغارة على تجارة خصمه.

في غرب المتوسط، ومع بداية القرن السادس عشر، حين التجأ الأندلسيون بعد طردهم من (غرناطة)، صارت شواطئ المغرب العربي

الكبير مصدر نزاع وتهديد دائمين للملاحة الإسبانية والفرنسية، ولسفن جنوه والبندقية، والانجليزية. هذه هي الفترة التي تميزت بالنشاط الجبار لهؤلاء القراصنة المغاربة بما كان لهم من سفن محكمة الصنع والإعداد وموارد ضخمة، وجرأة على المغامرات، ودراية بحرية كاملة، وقواعد بحرية على الشواطئ أُحكمت حمايتها، "وظل هؤلاء يمارسون القرصنة التي بلغت من العنف مبلغاً استلزم حشد جهود الدول البحرية الكبرى في أوربا حتى الربع الأول من القرن التاسع عشر " (٣٣).

فحين قام بعض رجال الجهاد البحري، من أصل عثماني، بتدعيم مركزهم في الجزائر عام ١٥١٦ التجأ إليهم الكثير من البحارة، فنشأت دولة جديدة قوية بإمكاناتها البحرية وأنشأت أسطولاً جعل منها دولة بحرية عظمى، في المتوسط، وغدت في الصف الأول لخط نار الدولة العثمانية في الحوض الغربي للبحر المتوسط (٣٤).

كانت أوربا لاتزال تملك ذراع الادرياتيكي الطويلة، وفي الغرب يقع الممر الضيق بين رأس بون ورأس القدم الإيطالية، وخلف هذا الحاجز، يرقد النصف الغربي من البحر المتوسط، وبه سردينيه الصخرية، وكورسيكه، وسلسلة جزر البليار.. وكان هذا القسم، من جميع الوجوه، بحراً إسبانياً، حتى الصخرة الجبارة في جبل طارق، ولكنه، الآن، سيصبح مهدداً من القوة العربية ــ الإسلامية في المغرب العربي، التي اتخذت نقطة هجومية لها في الجزائر.

سيُنصّب (سليمان القانوني) زعيم القراصنة في غرب المتوسط، خير الدين بربروسا، قائداً عاماً للأسطول العثماني في عام ١٥٣٣، في وقت " كان فيه الأسطول التركي عاجزاً عن الخروج لمواجهة (دوريا)، ودوريا (قائد الأسطول الإسباني ــ الامبراطوري) عاجزا عن التوصل إلى نتيجة إزاء بربروسا " (٣٥).

قرَّر (بربروسا) فور تعيينه، إعداد مايلزم لتجهيز أسطول جديد جبار، والقيام بأربعة أشياء: استعادة الموانئ الإفريقية التي احتلها الإسبان، وقد تحقق له ذلك، والاستيلاء على الجزر التي تؤمن (لدوريا) قواعد، وإقامة حصار بحري على طول الساحل الإسباني الخطير، والانقضاض في النهاية على إسبانيا نفسها بالتعاون مع المسلمين الباقين هناك.

هزم بربروسا (العصبة المقدسة) مجتمعة أمام الشواطئ الإيطالية، وكادت تنجح خططه لغزو إيطاليا من الجنوب، لولا تراجع حليفه الفرنسي المتذبذب، فبلغت قوة الأسطول العثماني ذروتها زمن بربروسا، إلى درجة لم تعد فيها أية نقطة في المتوسط خارج نطاق حملاته. إلى حد بدا فيه العثمانيون وكانهم سادة الموقف في المتوسط. وخاصة بعد أن رتبوا البيت الإسلامي، وأصبحت " سواحل المتوسط عثمانية في ثلثيها " (٣٦).

ظل دور الأسطول العثماني في تصاعد مستمر حتى معركة (ليبانتو) ١٥٧٢، حيث شكلت معلماً فارقاً، أسس لمرحلة انحدار دور هذا الأسطول في المتوسط والبحار الأخرى، على المدى الطويل، بالمقابل ستواجه الارمادا الإسبانية ضربة موجعة على يد الانجليز في نهاية القرن السادس عشر، وفي نفس هذه الفترة سيتوجه العثمانيون والإسبان " بأنظارهم نحو المحيطات، وأصبح البحر المتوسط، بمنأى عن الطرق البحرية الكبرى، وأصبح في المرتبة الثانية من النشاط التجاري، بعد أن كان من قبل، قطب الحركة ومحورها الرئيسي " (٣٧) إلاَّ أن هذا لايعني انتهاء الأساطيل الإسلامية في المتوسط، ففي الحوض الغربي للمتوسط، بقي من الصعوبة بمكان حماية التجارة الأوربية بدون دفعهم الأتاوة اللازمة، أو الضريبة المقررة إلى البايات، الذين أمسكوا بزمام السلطة في المغرب العربي نيابة عن السلطان،

مما أجبر ملوك أوربا على اتباع الطرق الدبلوماسية للإفراج عن السفن المحتجزة، وتأمين سلامة التجارة، وهذا ماسلكته الملكة اليصابات (اليزابيت) الانجليزية(٣٨). واضطر (كروموبل) لأن يرسل الأميرال بلاك ـــ أعظم قواده ـــ في مهمة ضد تونس ١٦٥٥، ولكن تلك الحملات الفردية لم تؤد إلى نتيجة تذكر.

بعد عشر سنوات من حملة بلاك، أُرسل (توماس ألن) على رأس أسطول إلى الجزائر، واضطرت فرنسا لدفع (دوكيه) على رأس عمارة بحرية إلى بحر إيجه، حيث الخطر يهدد التجارة الفرنسية من القرصان المغربي، وعاد (دوكيه) عام ١٦٨٢ لضرب الجزائر، لكن كان من العسير عليه الاستيلاء عليها، كان للباب العالي فيها خمسمائة مدفع، وكان قراصنة الجزائر لايزالون يحتفظون بمدمراتهم وسفنهم الحربية (٣٩).

لكن مع نهاية القرن الثامن عشر، ستتغير أحوال غرب المتوسط، فبعد أن كانت دول المغرب العربي قادرة في القرن السادس عشر والسابع عشر على إحداث الاضطراب في التجارة الدولية الأوربية، ونشر الذعر في شواطئ إسبانيا وإيطاليا، حدث العكس "فربما كان نشاط القرصان الأوربي أحد أسباب الركود الاقتصادي، بل وأفول بعض مناطق العالم العربي – التركي في ذلك العصر"(٤٠).

وفي شرق المتوسط، كان لا يزال في مقدور الأسطول العثماني، في منتصف القرن السابع عشر، هزيمة العمارة البحرية للبندقية، ـــ التي غدت بكل الأحوال دولة صغيرة من حيث مقدرتها العسكرية ـــ بمناسبة الصراع على كريت. إلا أنهم سينهزمون عام ١٧٧٠ في معركة (تشسمه) في بحر إيجه أمام روسيا التي تحتل المرتبة الرابعة بين الدول من حيث الوزن العسكري البحري، فكان " لهذه الموقعة أهميتها، إذ برهنت على التأخر التكنولوجي الذي راكمه الأتراك " (٤١).

٣ ـ التبادلات التجارية على أطراف المتوسط:

إلا أن المتوسط ليس مسرحاً للحرب فحسب، بل كان أيضاً جسراً قامت عليه التبادلات التجارية، مقايضة المنافع والاقتباسات. وقد ورث العثمانيون دور العرب كوسيط للتجارة الشرقية، كما ورثوا وزنهم ووضعهم وإمكاناتهم الاقتصادية التي جعلت منهم مقصداً للتجارة الأوربية.

وكانت أوربا بحاجة لمحاصيل الشرق، وفي مقدمتها التوابل والأفاوية التي دخلت أنواع كثيرة منها في صناعة (الأقرباذين)، وتركيب العلاج، أو في الاستهلاك المطبخي، كمقبلات ومشهيات. فالفلفل الأسود من الملابار في الهند، وجزيرة سرنديب، وزنجبيل الجزيرة العربية والهند، والمحمودية من بلاد الشام، والفوه من جزيرة العرب وسكر الشام ومصر والهند، والأفيون من وادي النطرون، والقرفة من الصين، وكبش القرنفل، والأهليلج، والراوند من الصين، وتوتياء الهند والصين للكحل وللقطرة، والأزرق والنيل من بغداد أو البنغال، والصفراء من بلاد الشام، والعنبر من عمان، والنباتات النسيجية كالقطن، والحرير من العجم والعراق والشام، والأقمشة والمصنوعات الزجاجية والأسلحة الدمشقية، والياقوت من الخليج العربي، والماس من الهند. كل هذه الاحتياجات تصل أوربا عبر طريق المتوسط، والتي لن تغير من اتجاهاتها الفتوحات العثمانية وضمها البلاد العربية (٤٢).

فمن أقدم العصور عبرت تجارة الشرق الأقصى الأرض العربية، وعلى موانئها في المتوسط متجهة إلى أوربا، كما كانت المنتوجات العربية الإسلامية هدفاً للتجارة الأوربية ليس لها غنى عنها، وإذا كان العرب ـ المسلمون، قد سيطروا على التجارة الشرقية: إدارة ونقلاً وتسويقاً، فإنهم في المتوسط تركوها لغيرهم، لينقلها ويسوقها. وحتى عندما كان العرب ـ المسلمون مهيمنين على

المتوسط في القرن التاسع والعاشر، لم يتحكموا ويسيطروا على التجارة المتوسطية وانتقلت إلى أيدي الإيطاليين: بيزا وجنوه، البندقية، فلورنسا..مع بداية القرن الحادي عشر، تعززها سيطرة الأساطيل المسيحية في هذا القرن (٤٣).

ولعل هيمنة العثمانيين، في فترات مختلفة من القرن السادس عشر، على المتوسط، لم يغير من هذه الحقيقة بشيء، فقد لاحظ (لوتسكي): "إن التجارة العثمانية كانت بيد الأجانب، على الضد من الخلافة الإسلامية، مثلاً، حيث لعبوا دوراً رئيسياً في هذه التجارة الدولية"(٤٤).

فأبناء جنوه وكتالونيا هم من سيطر على الطرق التجارية لحوض المتوسط الغربي، أما الفرنسيون فإنهم لم يكونوا، حتى ذلك الوقت، يقومون بدور له أهمية إلاّ مع مصر (٤٥) ومرسيليا بالكاد قد انضمت إلى فرنسا، ولعبت البندقية دور (الملك) في تجارة الحوض الشرقي، وشبه محتكرة لها، فكانت سفنها تذهب لإحضار التوابل من الاسكندرية، والحرير والمنسوجات القطنية، ومنسوجات الوبر وشعر الماعز من موانئ الشام وآسيا الصغرى، وتحمل إليها المنتجات الأوربية: منسوجات الفلاندر، وفلورنسا، والمعادن والأدوات المصنوعة من ألمانيا، وإذا كان موقعها في الشرق (الاسكندرية) وسواحل الشام، قد تأثر بضم العثمانيين للبلاد العربية، إلا إنها ما لبثت أن استأنفت دورها المعهود (٤٦). لكن، ومع منح الامتيازات السلطانية لفرنسا ١٥٣٦، ستأخذ فرنسا المكانة التجارية الأولى بعد البندقية (٤٧).

وابتاع الإقطاعيون العرب والأتراك الأقمشة الصوفية الانجليزية والهولندية، والحرير والنبيذ الفرنسي، والفراء الروسي، والزجاج البندقي، والبللور البوهيمي، كما صدروا إلى أوربا الحبوب والحرير والمنسوجات والجلود والصوف الخام، والفواكه والجوز، وزيت الزيتون(٤٨).

وحوّل العثمانيون البلقان ومصر، وبعض الممتلكات الأخرى إلى مواطن للسلع والحبوب التي استخدموها في التجارة، وحولوا المحاصيل الزراعية من الإقطاعات إلى سلع للتجارة المربحة، ودفع احتكارهم لتجارة الحبوب إلى رفع أسعاره إلى الضعفين بين عامي ١٥٦٧ و ١٥٨٩ " فكان العثمانيون يملكون مواداً أولية وسلعاً طبيعية وصناعية، يتجرون بها، ويجنون أرباحاً هائلة، في ظل حماية أساطيلهم لتجارتهم ولتجارة حلفائهم، كانوا يتجرون بالحبوب في منطقة الجزيرة ــ الساحل، وبالحرير في منطقة الأناضول ــ الشام، وبالنحاس، والتوابل في شرق البحر المتوسط والمحيط الهندي. أما التجارة نفسها فكانت خاصة أو من جانب الدولة، أو بالمشاركة بين الطرفين. ولاشك أن الطبقة العسكرية الحاكمة كانت تمتلك الحظوظ والوعي " (٤٩).

لكن إيفانوف يلاحظ، أن السياسة الاقتصادية العثمانية لم تشجع التجارة، إذ كانت في إحدى جوانبها تستخف بمصالح التجار وتعاملهم كمضاربين، وقد أدى تطبيق النظم العثمانية إلى الحد من إمكانات تراكم الرأسمال التجاري وتنميته. فأفلس معظم التجار وزادت شكايتهم من كساد أعمالهم، ومن الالتزامات المالية المفروضة عليهم (٥٠).

ولم يشدّد العثمانيون على حماية الإنتاج المحلي، أو يفرضوا الرسوم الواجبة لهذه الحماية، وفتحوا السوق الداخلية بسهولة لاختراقات البضائع الأجنبية التي استفادت من (الامتيازات) المعطاة لها، بالإضافة إلى ما احتله الأجانب من موقع السيادة على التجارة المتوسطية: مثل الأرمن واليونانيين، وقاموا بالنسبة للتجار الأوربيين بدور الوكيل، ومارسوا تجارة الوساطة والترانزيت التي كانت أكبر مراكزها: القاهرة، وحلب، ودمشق، وبغداد، وطرابزون والقسطنطينية، التي تدفق إليها السجاد الفارسي والموسلين الهندي واللؤلؤ البحريني. وجلب التجار المحليون

القهوة اليمنية، والعبيد والذهب والعاج والمسك وريش النعام من سنار ودارفور، وصدّروا بضائع المنتجات المحلية بواسطة هذه المدن نفسها، إلى المرافئ البحرية، حيث يبتاعها التجار الأوربيون(٥١).

وما من مجال للشك بأن تجارة المتوسط قد عانت كثيراً من يقظة التجارة عبر الأطلسي.. ولكن التقهقر النهائي لم يحصل ــ كما يقول لوفران ــ إلا في بداية القرن السابع عشر (٥٢).

فمع بداية القرن السابع عشر سيتزحزح الموقع السيد للمتوسط في التجارة العالمية. وهذا التهديد لدور المتوسط، لايرتبط بنشوء الدول الكبرى على أطرافه. فلاجبروت العثمانيين، ولا قوة نيران الإسبان، أو ثقل فرنسا، من قَلَب الأسس الاقتصادية لتفوق المتوسط، بل " إن التطور الذي هدَّد البحر المتوسط وانتصر في النهاية عليه، لم يكن إلاَّ انتقال مركز العالم من هذا البحر الداخلي إلى المحيط الأطلسي. وفي مطلع هذا التطور يقع اكتشاف أميركا ١٤٩٢ ــ ورحلة رأس الرجاء الصالح ١٤٩٧ ــ ١٤٩٨ " (٥٣)، ومع ذلك فإن هذه الأحداث لم تأخذ أهميتها كلها بين عشية وضحاها. فطالما أن من يملك الفضة والمعدن الأبيض يستطيع التوصل إلى منتجي الفلفل والبهارات، وأن هذه المعادن الثمينة، التي بدأت ترد بكاملها من أمريكا، منذ عام ١٥٣٠، إلى إسبانيا، بدأت تتسرب منذ عام ١٥٥٠ إلى إيطاليا، بعد أن شارك الصيارفة والتجار الطليان في إقراض شارل الخامس لتمويل حروبه، بالإضافة إلى ماساهم به الحصار الانجليزي ثم الهولندي منذ عام ١٥٦٨ للطريق الأطلسي نحو بحر الشمال والبلاد المنخفضة الثائرة، في إجبار إرساليات الفضة على أن تتبع، حصراً طريق المتوسط ُبين برشلونة وجنوه (٥٤). وما إن عادت إيطاليا تزود نفسها، بالمعدن الأبيض، حتى جددت حوالي عام ١٥٦٠ تزويد نفسها بالفلفل والبهارات عن طريق السُبل الشرقية القديمة "وكان

معدل هذا الطريق يوازي في جملته معدل طريق رأس الرجاء الصالح، وبما أن الاستهلاك الأوربي قد ازداد زيادة هامة، حتى وصل إلى مايقارب الضعف، فإن البندقية أعادت، بوجه عام، بناء أسس تجارتها القديمة " (٥٥).

وقد تم بنجاح فتح الطريق القديمة للتجارة الشرقية المارة بفارس عبر العراق إلى حلب ثم بيروت، ليتم تجاوز الدور السلبي الذي لعبه البرتغاليون على التجارة الشرقية.

وخلال القرن السادس عشر ـــ كما تشير (سيميليا نسكايا) ـــ بدأت تظهر تجارة متواضعة الحجم في مراكز قديمة مهملة: كاللانقية، طرطوس وبانياس، وجُبيل وبيروت، وصيدا وصور وعكا، وأكبرهامدينة طرابلس، التي كانت مركزاً للولاية، والتي عبر مرفئها كانت تتاجر دمشق وحلب. ويقيم فيها القناصل الأوربيون. "وكانت تصل إلى المدينة (= طرابلس) الأقمشة والحرير والتوابل، وغيرها من البضائع المستوردة من الشرق، إلى جانب المنتجات السورية والأقمشة المحلية والحرير الخام اللبناني، وغزل القطن، الوارد من شمال سوريا، وغيرها، وكانت تستورد إليها الأجواخ الأوربية والمعادن والبضائع الكيماوية " (٥٦).

وبقيت حلب، حتى نهاية القرن الثامن عشر مركزاً هاماً لتجارة الترانزيت وأضخم المراكز التجارية الحرفية " ولاسيما في مجال إنتاج الأقمشة المعدة للتصدير إلى الأسواق الخارجية: وضمت المدينة عشرات الأسواق المتخصصة، قدّرها (باربي دوبوكاج) بخمسة وأربعين سوقاً كبيرة، وأكثر من خمسمائة فندق ـــ خان، وحوالي مائتي قيسارية حيث السوق التجارية، ومنشآت كبيرة لمشاغل الحرفيين " (٥٧). وكما هو معروف، فقد اشتهر الحرفيون العرب بإنتاج الأقمشة والسجاد والسختيان والأسلحة والمصنوعات النحاسية وغير ذلك... وكان العديد من هذه المصنوعات يُصدّر

إلى أوربا حتى القرن الثامن عشر، قبل أن يزيحها الانقلاب الصناعي الأوربي (٥٨) واستمر النسيج، ومنتوجاته، بأنواعها الثلاث: الكتانية، والحريرية، والقطنية، من أهم صادرات المجال العربي ـ العثماني، إلى أوربا بالإضافة إلى الزجاج، والسكر، واللؤلؤ، والبن.

وعلى الرغم من طول باع القرصان، فإن سبل التجارة لم تنقطع في الحوض الغربي للمتوسط، ستدخل فرنسا، بعد بروز دور مرسيليا ـ إلى جانب جنوه في التجارة المتوسطية، مستفيدة من الامتيازات السلطانية، فنجحت (مرسيليا) في الحصول على امتيازات صيد الأصداف عام ١٥٥٢، التي كانت تعتبر عنصراً هاماً للتبادل التجاري مع توابل الشرق الأقصى. واستطاع الفرنسيون تصدير حبوب شمال إفريقيا العربية.. وأنشأوا عدة مراكز تجارية لهم هناك، إلاَّ أننا مع بداية القرن السابع عشر سنشهد تصفية وجود تلك المراكز، كرد فعل على اضطهاد الإسبان وطردهم للمسلمين هناك، ولكنها لاتلبث، تلك المراكز، أن تعود(٥٩).

لكن لم يبلغ النشاط التجاري في (الجزائر) الدرجة التي بلغها في موانئ الشام. ربما بسبب القرصنة، وكان الأوربيون يستوردون من الجزائر المصنوعات الجلدية والصوفية، وقايض الانجليز والهولنديون الأسلحة بالمنتجات الغذائية.. وفي تونس نشط التجار الفرنسيون، تحت رعاية القنصل الفرنسي، وتنافس معهم الانجليز. وشملت صاردات تونس: الجلود والأصواف والاسفنج والبلح وريش النعام، واستوردت: الأصواف والخمور، والأسلحة، وبلغت تجارتها ضعف تجارة الجزائر، وأحياناً ثلاثة أضعاف (٦٠).

انتهز الانجليز نزاع البنادقة والعثمانيين حول قبرص، وغيابهم المؤقت عن المجال العثماني بعد معركة (ليبانتو)، ليحصلوا من السلطان أحمد الأول

على امتيازات مشابهة لمثيلتها الفرنسية مستثمرين عداوتهم المشتركة للإسبان أيضاً. ثم " تمتع أهل البندقية عام ١٥٨٠ وانكلترا عام ١٥٩٩ وكذلك الهولنديون بامتيازات مشابهة لمزايا الامتيازات الفرنسية " (٦١).

ودخلت السفن الانجليزية ١٥٨٠، والهولندية ١٥٩٠ البحر المتوسط فالنزاع الذي شهده المحيط (بين انكلترا وإسبانيا ــ وضم البرتغال إلى إسبانيا) سنة ١٥٨٠ حتى ١٦٠٠ أدى إلى إحياء التجارة المتوسطية (٦٢).

وأخذت سفن البلاد البروتستانتية تفرض نفسها في المتوسط مستغلة الوضع العثماني ــ الإسباني ــ البندقي بعد معركة ليبانتو ١٥٧٢ " وكانت مراكبهم أحسن تسليحاً، وأحسن تجهيزاً بالرجال، وأقدر على الحمل، وأكثر انتظاماً، وتقبل بأجور أكثر تواضعاً.. فأمسكوا شيئاً فشيئاً بتجارات هامة " (٦٣).

عندما تمكن الهولنديون في البحار الشرقية، وحلوا محل البرتغاليين في جزر الصوند وفي المحيط الهندي، نصبوا أنفسهم حراساً مرهوبين ــ إن لم يكن على الحرير الذي كان يصل دائماً إلى الشرق ــ فعلى الفلفل والبهارات على أقل تقدير. وتضاءل مرور الفلفل والبهار عن طريق البحر الأحمر "ولم يعد البحر المتوسط في مركز العالم، بعد عام ١٦٢٠ أو عام ١٦٥٠، بل أصبحت تخترقه تجارة الآخرين وحروب الآخرين، حتى هذه المبادلات وتلك الحروب كان للمتوسطيين أدواراً صغيرة فيها " (٦٤).

وعلى الرغم من تقلص تدفق التجارة الآسيوية عبر البحر الأحمر عن الشكل الذي كانت عليه سابقاً، فقد استمر خط البصرة ــ بغداد ــ حلب ناشطاً، وفوق هذا، بقي المجال العثماني ــ العربي، شبه القاري، بسوقه الداخلية الواسعة النطاق، يجتذب إليه التجار، وبقيت واردات أوربا، من هذه السوق ــ كما في السابق ــ تفوق صادراتها، وتضطر لسد عجزها التجاري

مع العثمانيين بالاستعانة بالذهب(٦٥). بالإضافة لذلك، فإن البحر الأحمر ذاته، انتعش ثانية بتجارة القهوة، وعادت الاسكندرية مرفأ مطروقاً كما كانت *أيام الفلفل والبهارات* (٦٦).

واستمر تدفق النسيج ومنتوجاته إلى أوربا، كما في السابق: الحرير، والصوف الخام، وازداد تدفق المنتوجات القطنية والكتانية. كما استمر تصدير بعض الصناعات الزجاجية، وبعض المواد الكيماوية المستعملة في الصناعة، كحجر الشب من مصر، والفوه ونبات العفصة والبلوط المستخدمين في الدباغة، بالإضافة للحبوب والسكر، والبن (٦٧). إلا أننا بدأنا نلحظ ــ منذ القرن السادس عشر ــ بروز ظواهر جديدة على العلاقة التبادلية بين الطرفين: فالعرب الذين اعتادوا تصدير الورق إلى أوربا بدأوا يستوردونه منها، مع النصف الثاني للقرن الخامس عشر، وبعد أن اعتمدت أوربا طويلاً على سكر الشام ومصر، استزرعت قصب السكر في جزر الآزور، والرأس الأخضر، واخيراً في البرازيل عام ١٥٥٠، وسوف يستغنون تدريجياً عن (حجر الشب) المصري بعد اكتشافه في (شيفيتافيكيا) فتنبأ المفوض البابوي على أثره " بأن هذا الاكتشاف سوف يقود إلى تحرير أوربا من اعتمادها القوي على الشرق الأدنى"(٦٨) وبدأت الصادرات العثمانية ــ وهي المجال الإسلامي الأوسع ــ تتسم بتزايد المواد الخام، والسلع نصف المصنعة (٦٩).

وعلى الرغم من كل هذه المظاهر السلبية على التجارة الخارجية للمجال العربي ــ العثماني، وبروز بعض مظاهر الركود الصناعي، التي يعزوها البعض إلى استبدال المشروعات الحرة التي كانت مُعتمدة أيام العباسيين بمشروعات احتكارية اعتمدها العثمانيون بعد المماليك، نقول: على الرغم من هذا، ظل الميزان التجاري الأوربي/الإسلامي يميل لصالح الأخير،

حتى نهاية القرن السادس عشر، بل استمر هذا الحال حتى القرن الثامن عشر، قبل أن تستخدم أوربا الطاقة البخارية في صناعتها على نطاق واسع ويصبح تقدمها التقني حقيقة واقعة.

لقد حافظ الميزان التجاري العثماني / الأوربي على ميلانه لصالح العثمانيين حتى القرن الثامن عشر. وبقيت الصادرات العثمانية تفوق وارداتها من حيث الرقم المطلق لأسعارها. فميشيل دوفيز لايتردد في الاعتراف " بأن الميزان التجاري التركي (= العثماني) كان رابحاً " في القرن الثامن عشر (٧٠). إذ أن فرنسا ــ أكبر المتعاملين مع الدولة العثمانية ــ بلغت مستورداتها من السوق العربية ــ العثمانية عام ١٧٨٩، عشية الثورة، ٢٧,٧ مليون ليرة، بينما كانت صادراتها ٢٥,٦ مليون ليرة، بواقع خسارة مايقارب المليوني ليرة، وكانت البندقية بنفس الوقت تبيع أقل مما تشتري للعثمانيين (٧١).

هوامش الخطط الكبرى (القسم الأول):

١ ـ برنارد لويس، الحرب والسياسة، تراث الإسلام، الجزء الأول، بإشراف شاخت، ترجمة السمهوري، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ص٢٩٢.

٢ ـ برتولد شبولر، العالم الإسلامي في العصر المغولي، خالد أسعد عيسى، دار حسان، دمشق ١٩٨٢، ص١٤٩.

٣ ـ ول ديورانت، قصة الحضارة، علي أدهم، الادارة الثقافية في جامعة الدول العربية، الجزء الخامس من المجلد السادس، ص ١٦.

٤ ـ برنارد لويس، الحرب والسلام.. مصدر سابق، ص٢٩٣. راجع أيضاً: د.جلال يحيى، تاريخ العلاقات الدولية في العصور الحديثة، دار المعارف، مصر ١٩٨٢، ص٢٤٠.

٥ ـ برتولد شبولر، العالم الإسلامي في العصر المغولي، مصدر سابق، ص١٥٤.

٦ ـ هارولد لامب، سليمان القانوني، شكري محمود نديم، شركة النبراس، بغداد ١٩٦١، ص ٣٧٧.

٧ ـ المصدر السابق، ص٣٨٠.

٨ ـ أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، دار الشروق، القاهرة، ط٢، ١٩٩٣، ص١٤٤.

٩ ـ د.جلال يحيى، تاريخ العلاقات الدولية في العصور الحديثة، مصدر سابق، ص٢٤١. راجع أيضا: أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، مصدر سابق، ص١٤٤ ـ ١٤٥.

١٠ ـ هارولد لامب، سليمان القانوني، مصدر سابق، ص٣٨١.

١١ ـ محمد فريد بك المحامي. الدولة العلية العثمانية، مطبعة التقدم بشارع محمد علي، مصر، ط٣، ١٩١٢، ص١٤٣ /١٤٤.

١٢ ـ أرنولد توينبي، تاريخ البشرية، الجزء الثاني، نقولا زيادة، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت ١٩٨٦، ص٢٤٠.

١٣ ـ محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، مصدر سابق، ص١٦٠.

١٤ ـ د. ماتيو أندرسون، تاريخ القرن الثامن عشر في أوربا، د.نور الدين حاطوم، دار الفكر، دمشق ١٩٧٧، ط١، ص٢٧٠.

١٥ ــ محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، مصدر سابق، ص١٧٩.

١٦ ــ برتولد شبولر، العالم الإسلامي في العصر المغولي، مصدر سابق، ص١٦٩.

١٧ ــ ج.ف.ف.هيجل، محاضرات في فلسفة التاريخ، ج١، عبد الفتاح إمام، التنوير، بيروت ١٩٨١، ص١٥٥ / ١٥٦.

١٨ ــ أرشيبالد.ر.لويس، القوى البحرية والتجارية في حوض المتوسط، أحمد محمد عيسى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، بدون تاريخ، ص٤٠٠ / ٤٠١.

١٩ ــ فرنان بروديل، البحر المتوسط، المجال والتاريخ، يوسف شلب الشام، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٩٠، ص١٢٤.

٢٠ ــ المصدر السابق، ص١٣٤.

٢١ ــ هاملتون جب، المجتمع الإسلامي والغرب، ج١، د.أحمد عبد الرحيم مصطفى، دار المعارف، القاهرة، ص١٣٠.

٢٢ ــ د.رضوان السيد، القوى البحرية العثمانية والصراع على المحيط الهندي، بالمر أبروميت، العددان السادس والعشرون والسابع والعشرون، السنة السابعة، ١٩٩٥، ص٣٦٦ / ٣٦٧.

٢٣ ــ المصدر السابق، ص٣٦٨.

٢٤ ــ هارولد لامب، سليمان القانوني، شكري محمود نديم، شركة النبراس، بغداد ١٩٦١، ص ١٤٩.

٢٥ ــ المصدر السابق، ص١٨٢.

٢٦ ــ هاملتون جب، المجتمع الإسلامي والغرب، مصدر سابق، ص١٣٩.

٢٧ ــ روسلان موسينيه، بإشراف: موريس كروزيه، تاريخ الحضارات العام، مجلد رابع، ترجمة: أسعد داغر، عويدات، بيروت ١٩٦٦، ص١٣٣.

٢٨ ــ المصدر السابق، ص١٨٤.

٢٩ ــ المصدر السابق، ص١٨٧.

٣٠ ــ هاملتون جب، مصدر سابق، ص١٤٠.

٣١ ــ كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، نبيه فارس، منير بعلبكي، ط٤، ١٩٦٥، دار العلم للملايين، بيروت، ص٤٧١.

٣٢ ــ أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، مصدر سابق، ص٩.

٣٣ ــ كميل تشاترتون، تاريخ العالم، نشره السير جون.أ.هامرتون، الفصل السادس والأربعون بعد المائة، المجلد السادس، إدارة الثقافة بوزارة التعليم العالي، مكتبة النهضة المصرية، مصر، بدون تاريخ، ص٦١٨.

٣٤ ــ د. جلال يحيى، تاريخ العلاقات الدولية، مصدر سابق، ص٨٧.

٣٥ ــ هارولد لامب، سليمان القانوني، مصدر سابق، ص١٨٤.

٣٦ ــ د.جلال يحيى، تاريخ العلاقات الدولية، مصدر سابق، ص٩٠.

٣٧ ــ روسلان موسينيه، تاريخ الحضارات العام، مجلد رابع، مصدر سابق، ص١٩٩.

٣٨ ــ كميل تشاترتون، تاريخ العالم، مجلد سادس، مصدر سابق، ص٦١٩.

٣٩ ــ المصدر السابق، ص٦٢٠.

٤٠ ــ د. ماثيو اندرسون، تاريخ القرن الثامن عشر في أوربا، د. نور الدين حاطوم، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٧٧، ص٣٠٩.

٤١ ــ ميشال دوفير، أوربا والعالم في نهاية القرن الثامن عشر، جزء أول، الياس مرقص، دار الحقيقة، بيروت ١٩٨٠، ص٣٣.

٤٢ ــ روسلان موسينيه، تاريخ الحضارات العام، مجلد رابع، مصدر سابق، ص١٢٠ ــ ١٢١.

٤٣ ــ شارل عيساوي، تأملات في التاريخ العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٩١، ص٢٠.

٤٤ ــ لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، دار التقدم، موسكو، ١٩٧٠، ص١٩.

٤٥ ــ د.جلال يحيى، تاريخ العلاقات الدولية، مصدر سابق، ص١٠٢.

٤٦ ــ المصدر السابق، ص١٠٢.

٤٧ ــ جورج كيرك، موجز ناريخ الشرق الأوسط، عمر الاسكندري، سلسلة الف كتاب ١١٤، مركز كتب الشرق الأوسط، القاهرة، دار الطباعة الحديثة، ص١٢٠.

٤٨ ــ لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، مصدر سابق، ص١٩.

٤٩ ــ رضوان السيد، القوى البحرية العثمانية والصراع على المحيط الهندي (بالميرا بروميت)، مصدر سابق، ص٣٧١.

٥٠ ــ إيفانوف، الفتح العثماني للبلاد العربية، مصدر سابق، ص٢٧١.

٥١ ــ لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، مصدر سابق، ص٢٠.

٥٢ ـــ جورج لوفران، تاريخ التجارة، هاشم الحسيني، دار مكتبة الحياة، بيروت، بدون تاريخ، ص٧٨.
٥٣ ـــ فرنان بروديل، البحر المتوسط، المجال والتاريخ، مصدر سابق، ص١٣٥ ـــ ١٣٦.
٥٤ ـــ المصدر السابق، ص١٣٦.
٥٥ ـــ د.جلال يحيى، تاريخ العلاقات الدولية، مصدر سابق، ص١٠٦.
٥٦ ـــ ايرينا سميليا نسكايا، البنى الاقتصادية والاجتماعية في المشرق العربي على مشارف العصر الحديث، يوسف عطا الله، الفارابي ١٩٨٩، ص١٧٣.
٥٧ ـــ المصدر السابق، ص١٦٩.
٥٨ ـــ لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية، مصدر سابق، ص٢٢.
٥٩ ـــ د.جلال يحيى، تاريخ العلاقات الدولية، مصدر سابق، ص١٠٥.
٦٠ ـــ رافق، العرب والترك، مصدر سابق، ص١٨٨.
٦١ ـــ ميشال دوفيز، أوربا والعالم في نهاية القرن الثامن عشر، الجزء الأول، ترجمة الياس مرقص، دار الحقيقة ١٩٨٠، ص١٨.
٦٢ ـــ جورج لوفران، تاريخ التجارة، مصدر سابق، ص٧٩.
٦٣ ـــ فرنان بروديل، البحر المتوسط، مصدر سابق، ص١٣٧.
٦٤ ـــ المصدر السابق، ص١٣٨.
٦٥ ـــ شارل عيساوي، تأملات في التاريخ العربي، مصدر سابق، ص٧٢.
٦٦ ـــ فرنان بروديل، البحر المتوسط..، مصدر سابق، ص١٤٠.
٦٧ ـــ شارل عيساوي، تأملات في التاريخ العربي، مصدر سابق، ص٩١ ـــ ٩٨.
٦٨ ـــ المصدر السابق، ص ٩٣.
٦٩ ـــ المصدر السابق، ص٦٩.
٧٠ ـــ ميشيل دوفيز، أوربا والعالم...، مصدر سابق، ص٦٨.
٧١ ـــ المصدر السابق، ص٦٢.

القسم الثاني

« البحار الشرقية »

الخطط الكبرى لتطويق ديار الإسلام

(= الاكتشافات)

١ ـ المقاصد المادية:

من الممكن القول، أن الأغراض الدينية والاقتصادية والسياسية، قد اندمجت في سلسلة سببية واحدة، فأعطت حافزاً لإسبانيا والبرتغال للتدافع المحموم بلاكلل للوصول إلى المياه الآسيوية الجنوبية ــ الشرقية للقبض على خيرات الشرق وتوجيه ضربة نجلاء إلى ديار الإسلام، بل " تقاسمت جميع شعوب أوربا التجارية في المتوسط.. عدا البندقية، حلم الوصول إلى كالكوتا ــ الذي دام مئتي عام ــ هذا الحلم الذي اختلطت فيه دواعي الاقتصاد والسياسة والدين. فمنذ صلاح الدين الذي استرد بيت المقدس من الصليبيين ١١٨٧ تنظم الإسلام جاعلاً من مصر قاعدة له، بحيث أصبح حاجزاً هائل القوة يصل بين آسيا وأوربا " (١).

فانتصار صلاح الدين الحاسم، أدى إلى إقرار سلطان المسلمين على منطقة حيوية جداً لعبور التجارة الشرقية إلى أوربا: الشام ومصر. لذا، توجهت الحملة الصليبية الخامسة (١٢١٨ ــ ١٢٢١) إلى مصر ثم (الحملة السابعة) ولكن بدون جدوى، وظلت مصر والشام في حوزة المسلمين.

وبقيت تجارة الشرق الأقصى، بعد مئتي عام من الجهود الصليبية المستمرة، لايمكن الحصول عليها إلا عن طريق الأراضي العربية ــ الإسلامية، تلك التجارة التي كانت تدر أعظم الأرباح " وهي من أعظم العوامل الدافعة للتاريخ (...) كما كانت أقوى عامل بمفرده في استثارة التوسع الأوربي أثناء القرن الخامس عشر " (٣) ومصدراً لحسد دول أوربا لأرباحها الطائلة، التي لاينقطع تدفقها على جيوب البنادقة والمصريين " (٤) إذ إن جميع البضائع التي تمر إلى أوربا من الهند أو تصدر منها إلى الأخيرة " لابد من مرورها بالبحر المتوسط، ومصر، والبحر الأحمر.. وكان عبور هذا الطريق ممنوعاً في ذلك الوقت إلاَّ على أهل البندقية " (٥).

وانضم إلى تلك البواعث، التنافس بين البندقية وجنوه، فرجحان نفوذ البندقية، عند القاهرة، أوجد لدى الجنويين الدافع القوي الذي لايهدأ أواره، والذي يحفزهم للخروج من المتوسط وضرب الاحتكار العربي ــ البندقي (٦).

انطلاقاً من هذا التنافس، اقترح الجنويون، في العقد الأخير من القرن الثالث عشر على الخان (أرغون) صاحب فارس خطة تحويل تجارة الأفاوية إلى الخليج العربي، بأن يبنوا أسطولاً يغلق البحر الأحمر أمام تجارة الهند. إلا أن هذا الاقتراح فشل. ولكن جنوه لم تيأس، فلم يكن ثمة وسيلة للرد على قوة الإسلام، واحتكار البندقية، سوى إيجاد طريق بحري آخر (٧).

سيتصاعد حماس الجنويين بعد ضرب مستعمراتهم على يد محمد الثاني، في البحر الأسود، ولن يكف الجنويون عن العمل حتى تمكنوا، بفضل تأييد إسبانيا والبرتغال لهم من اختراق نطاق احتكار البندقية، وحصار الإسلام بحرياً، وذلك بالوصول إلى المحيط الهندي بالدوران حول رأس الرجاء الصالح، والوصول إلى المحيط الهادي عبر القارة الأمريكية (٨).

يضاف إلى تلك البواعث المادية التي حفزت أوربا للخروج من المتوسط والالتفاف حول ديار الإسلام نحو الهند، افتقاد أوربا في القرن الخامس عشر إلى المعدن الثمين " ولم تكن النقود كافية.. وتكلمت روايات أسطورية عن كنوز خيالية موجودة في إفريقيا وآسيا (٩) بالإضافة إلى محاولة التخلص من الرسوم الجمركية الفادحة التي تفرضها السلطة المملوكية على السلع الشرقية (١٠).

ثم إن مجيء العثمانيين، وسيطرتهم على بلاد البلقان، وضمهم البلاد العربية، حيث ورثوا سلطة المماليك، جعل طريق التجارة الشرقية بيد قوة إسلامية قادرة وفاعلة (١١)، هذا الوضع، سيضع أوربا والمسلمين بقيادة العثمانيين في

سباق مع الزمن لامتلاك القوة للفوز في المجابهة الكبرى التي ملأت القرن السادس عشر، علماً أن أوربا قد ازداد اهتمامها بآسيا منذ زمن بعيد، فبعد الحروب الصليبية الأولى كانت لدى كل من البندقية وجنوه معلومات تفصيلية عن أحوال الهند وتجارتها، وقد زار الهند في القرن الثالث عشر كثير من الرحالة والوفود الأوربية كماركو بولو، وأودريك، ومونتي كورفينو (١٢).

٢ ـ المقاصد الدينية ـ السياسية: تطويق ديار الإسلام أو الفصل الأخير من الحروب الصليبية:

إلا إن كل ما سبق ذكره لايغطي البواعث الأشد إثارة للوجدان والانفعال التي قادت أوربا لركوب مخاطر المحيطات الغامضة، ولاتكشف عن العواطف الأكثر جرأة وإثارة، والأكثر تضحية حتى بالحياة نفسها، التي صاحبت الإبحار الطويل نحو الشرق، إنها الروح المتجددة للحروب الصليبية، إنه العراك الدامي، والرهان الذي يستحق كل بذل: تصفية الحساب، وبشكل نهائي، مع الإسلام بتوجيه ضربة قاتلة إليه من الخلف واستحواذ خيراته. من هنا، كما يقول روسينيه: " صار هدف أوربا خلال قرنين كاملين بلوغ آسيا، فالوصول إلى الهند والصين واليابان، واستثمار مافيها من موارد طائلة، وحمل سكانها على اعتناق المسيحية، والقيام بحركة التفاف على الإسلام، من ورائه، والعمل على سحقه بحيث لايبقى على الأرض سوى إيمان واحد، وحضارة واحدة، تلك كانت الغاية الأولى، والحلم الأسمى البعيد الذي راود خواطر الأوربيين بكثير من الإغراء " (١٣).

فالأغراض المعرفية (= الكشفية) تتضاءل أمام جبروت المشاعر العدوانية التي تستهدف المسلمين، وأمام السياسات والخطط القتالية ذات النزعات الصليبية الواضحة،على الرغم من أن "بعض المؤرخين غفل عن بواعث (هنري الملاح)..

فادعوا أنه كان يعنى (بحركة الكشوف) لذاتها، ولكن الواقع الصحيح يدل على أنه اتجه لهذا العمل برغبة إضعاف المسلمين بكل الوسائل التي يستطيعها، وكان أول شيء في نظره، القضاء على نفوذهم في البحار الشرقية " (١٤).

ففي الفاتيكان ــ كما يشير فيشر ــ كانت مشروعات البرتغال وإسبانيا تثير أكبر قسط من الاهتمام، لأنها تعطي الأمل بشن هجوم حاسم على المسلمين من ناحية الشرق، في الوقت الذي تتلقى فيه مؤازرة الملوك الشرقيين (الذين كان يحسبهم الأوربيون أنهم مسيحيون) في حرب صليبية. تلك هي (خطة الهند) كما رسمها نقولا الخامس، منذ وقت مبكر، يرجع إلى عام ١٤٥٤ في مرسوم بابوي مرسل إلى الملك هنري، تتضمن هذه الخطة، إعداد حملة صليبية تشنها أوربا الكاثوليكية للقضاء نهائياً على الإسلام، بعد أن يتم تطويقه (١٥).

ويلاحظ (كيرك) أن جُل مأرب (هنري الملاح) كان مواصلة عمل الصليبيين، بمحاولة الالتفاف حول ديار الإسلام، وحصرها من الوجهتين الحربية والتجارية، مع انتزاع تجارة الذهب، وغيرها من حاصلات إفريقيا الغربية من يد المسلمين، ثم الاتصال بما وراء الصحراء الكبرى جنوباً بنجاشي إثيوبيا، والاشتراك معه في مهاجمة المسلمين من الجنوب، والاستيلاء على تجارة الهند، التي كانت، إذ ذاك، أكبر مورد لثراء العالم الإسلامي (١٦).

فالتوسع الأوربي في آسيا الإسلامية عبر الاكتشافات، كان محاولة للالتفاف حول قوة الإسلام البحرية، فضلاً عن الخروج من إسار المتوسط، وتطويق ديار الإسلام، وكسب المواجهة مع المسلمين، وحسب رأي لوفران، أن الرحلات الاستكشافية لم تبلغ الأهمية نفسها، التي بلغتها الرغبة في محاربة الإسلام، تلك الرغبة التي قامت عليها شبه الجزيرة الأيبيرية (١٧) واستند هذا، على انتشار

مشاعر صارمة للعداء تجاه المسلمين، أعقبت الحروب الصليبية، وحروب (الاسترداد) التي قادها البرتغاليون والإسبان ضد الأندلسيين لاقتلاعهم من هناك، وأصبح القضاء على المسلمين هدفاً مقدساً لهم (١٨).

ولعله ليس بالمصادفة، أن ارتبطت حركة (الاكتشافات) بأشد الدول عداء للمسلمين والعرب: البرتغاليين والإسبان، الذين أصبحوا ورثة التقاليد الجنويه، وتناولوا منهم رسالة اكتشاف طريق آخر بديل للقديم " وكانت الروح الصليبية، لم تبق فيها جذوة الحياة متقدة فحسب، بل ازدهرت أيضاً مكتسبة قوة على قوتها... ولأن (الإسلام) لدى الشعوب الايبيرية كان يمثل قوة على الأبواب إبان القرن الخامس عشر والسادس عشر، فصار الايبيري محارباً صليبياً بحكم الضرورة " (١٩).

تجمعت في شخصية هنري الملاح (١٣٩٤ ــ ١٤٨١) كل المقومات الممكنة لاستنفار صليبي جديد، فهو الابن الثالث للملك يوحنا الذي استرجع قشتالة من العرب، وتمتلئ نفسه حقداً على الإسلام، ويتلبسه طوال حياته هاجس وضع خطة استراتيجية كبرى للالتفاف حول ديار الإسلام، وتحمل العالم المسيحي إلى المحيط الهندي، ويداخله يقين مطلق بأنه تلقى أمراً قدسياً من الله لأداء هذه المهمة المقدسة (٢٠).

بدأ هنري مهمته باكتشاف شاطئ إفريقيا إلى الجنوب من مراكش بغية الاهتداء إلى مملكة مسيحية أسطورية، هي مملكة الخوري يوحنا، والتعاون معها لضرب مسلمي مراكش من الوراء، فأسس مدرسة ملاحة، وبلغ الرأس الأخضر ١٤٤٥، وخط الاستواء ١٤٧١، ورأس الرجاء الصالح ١٤٨٨ "فكان عمله امتداداً فعلياً للحروب الصليبية... ولم تكن فكرة مهاجمة ديار الإسلام من الوراء غريبة كذلك عن نزول الإسبان إلى الحلبة، بعد سقوط غرناطة،

وقد حركتهم كلهم أخيراً: ضرورة الرسالة والرغبة في هداية كافة الشعوب المجهولة إلى الدين الحقيقي " (٢١).

فقد كان الإسلام، هو العدو اللدود للايبيري، ولابد من قتاله في كل مكان " وسيظل الشيء الكثير من تصرفات البرتغاليين في آسيا غامضاً، لاسبيل إلى تفسيره، مالم نتذكر هذه الحقيقة على الدوام " (٢٢).

هكذا، تدافع الإسبان والبرتغاليون، يحدوهم نفس الهدف: الوصول إلى المحيط الهندي، سالكين سبيلين مختلفين، الإسبان اتجهوا غرباً، والبرتغاليون اتجهوا جنوباً ثم شرقاً، تُوحد ما بينهم خططهم المُعلنة ضد المسلمين.

وأثناء تقدمهم وتوغلهم في مغامرتهم البحرية، اختلطت المسائل في ذهن ممثلي أبطال اللعبة الرئيسيين، في مسرحية (الاكتشافات) إلى الدرجة التي بدت فيها الثروة، أو الذهب ليس هدفاً بحد ذاته، إنما وسيلة لإعداد الحرب (المقدسة) ضد الإسلام. فــ (البوكرك) أشهر قادة المغامرة البرتغالية في البحار الشرقية، يقول في خطابه إلى جنده، بعد وصوله (ملقا): " إن خدمة جليلة سنقدمها لله بطردنا العرب من هذه البلاد، وبإطفائنا شعلة شيعة محمد، بحيث لايندلع لها بعد ذلك لهيب.. وإنني على يقين أننا لو انتزعنا تجارة (ملقا) من أيديهم لأصبحت كل من القاهرة ومكة أثراً بعد عين " (٢٣).

سنسمع أقوالاً مماثلة على لسان أبطال الرحلة الإسبانية، فهذا (كولمبس) الذي يقول عنه تيدوروف: "هو دون كيخوت من نوع مختلف عن زمنه بعدة قرون، يطمح إلى تجهيز حملة صليبية لتحرير القدس"(٢٤) لايكل عن التأكيد، في يومياته، على أن الحصول على الذهب ليس له هدف سوى المساعدة في تحرير بيت المقدس... ويكشف في يومياته لعام ١٤٩٢، عن أمله في العثور على الذهب "وبكميات كبيرة حتى يتسنى للملكين، خلال ثلاث سنوات،

الاستعداد والاتجاه إلى فتح الديار المقدسة " ويقول في مكان آخر" عندما بدأت الاستعدادات لاكتشاف جزر الهند الغربية، كان ذلك بقصد مناشدة الملك والملكة، عاهلينا، اتخاذ قرار بإنفاق الموارد التي يمكن أن ترد إليهما من جزر الهند الغربية على فتح القدس "(٢٥).

وفي رسالة من كولومبس إلى البابا يوضح بكل جلاء الطابع الصليبي لأهداف رحلاته: "لقد جرى الاضطلاع بهذه المهمة بقصد استخدام ماسوف يتم كسبه منها في رد الديار المقدسة إلى الكنيسة المقدسة" ويتابع دون أن ينسى أن يتوجه بكلامه إلى الله " أتمنى من ربنا أن يهبني المقدرة على نشر اسمه المقدس، وإنجيله في أرجاء الكون " (٢٧). فانتصار المسيحية العالمي، ذلك هو الدافع الذي يحرك كولومبس، كما يقول تيودورف. وظل يُمني نفسه حتى وفاته بأن ما اكتشفه ماهو إلا الهند " وبقي مقتنعاً حتى وفاته وبعد رحلاته الثلاث بأنه وصل إلى الهند " (٢٧).

من هنا يأتي تقدير الشناوي في مكانه، حيث تثبته الأقوال، وأيضاً الأفعال البرتغالية في البحار الشرقية " إذ كان البرتغاليون يعتزمون تنفيذ مخطط صليبي مسرف في وحشيته، وهو دخول البحر الأحمر واقتحام المسجد الحرام، حيث الكعبة الشريفة، ثم مواصلة الزحف منها إلى المدينة المنورة لنبش قبر الرسول، ثم الزحف إلى تبوك، ومنها إلى بيت المقدس " (٢٨).

٣ ـ فاتحة محاولة تطويق ديار الإسلام (= الاكتشافات):

من الممكن القول أن البرتغاليين والإسبان استفادوا من كتب الرحالة والجغرافيين العرب أمثال الإدريسي والمقدسي والمسعودي وابن بطوطة... ومن الإضافات (التقنية) التي حققها المسلمون على الإبرة المغناطيسية، مايعرف باسم وردة الرياح لمعرفة اتجاه الرياح ومصدر هبوبها.. حيث

انتقلت إلى أوربا أثناء الحروب الصليبية، كما اقتبسوا ربع الدائرة الكوادرنت، والخرائط والجداول الفلكية، وخطوط العرض والانزياح (٢٩).

ويبدو أن القول بنظرية كروية الأرض، وهي نظرية عرفها الجغرافيون العرب عن الإغريق، بطليموس وغيره (راجع المسعودي، مروج الذهب، الجزء الأول، ص٨٦/٩١). كانت حافزاً على قيام بعض المغامرين من أهل الأندلس برحلات عبر المحيط دون أن يتزودوا بخرائط ملاحية أو بآلات تعين الاتجاه.. فمن المعروف أن آلة البوصلة لم يعرفها العرب إلاَّ في القرن الحادي عشر الميلادي (٣٠).

وكان لليهود دور كبير في نقل المعلومات الجغرافية العربية ــ الإسلامية إلى المسيحيين في الأندلس، وأكثر من مصدر يؤكد أن البرتغاليين استعانوا بابن ماجد للإبحار شرقاً (٣١).

بعد أن تم لهم تصفية الوجود العربي ــ الإسلامي في شبه الجزيرة الايبيرية، اندفع كل منهما، من موقعه: البرتغال، الإسبان، مباشرة نحو شواطئ شمال إفريقيا العربية بقصد الغزو والتوسع، كاستمرار لمعركتهم مع العرب ــ المسلمين في الأندلس.

احتل الإسبان عدة نقاط مركزية على شاطئ المغرب العربي الكبير: مليله ١٤٩٧، وهران ١٥٠٩، والجزائر، ثم طرابلس ١٥١٠. واقام البرتغاليون في مطلع القرن السادس عشر بين طنجة وأغادير مجموعة من المراكز التجارية للمتاجرة مع الداخل، ولحماية تموين الخطوط البحرية من جهة ثانية.

وفي الوقت الذي اتجهت جهود الإسبان غرباً للوصول إلى المحيط الهندي، استمر الملاحون البرتغاليون باندفاعهم جنوباً على الشواطئ الإفريقية. وقبل رحلة (فاسكو دي غاما) البرتغالية بخمس سنوات، توصل كولومبس ــ الذي يعمل

لصالح إسبانيا ــ إلى جزر الأنتيل بادئاً سلسلة (الاكتشافات) التي أدت إلى معرفة العالم الجديد، أي أمريكا (٣٢) ولكن مغامرة البرتغاليين، بدأت قبل الإسبان بزمن طويل، فمنذ احتلالهم سبتة ١٤١٥، توالت فتوحات البرتغاليين، حتى وصلوا نهر السنغال، والرأس الأخضر، ثم وصلوا إلى ماوراء الصحراء إلى غينيا، التي كانت وقتئذ سوقاً عظيمة للذهب الوارد من (تمبكتو)، وهناك افتتحوا تجارة الرقيق، التي كان من نتائجها اعتناق هؤلاء للمسيحية (٣٣).

ويشير (ديورانت) إلى أن هناك فكرة ملحة، كانت تراود هنري الملاح، هي انه ربما يقود نهر السنغال شرقاً إلى منابع النيل، وإلى بلاد إثيوبيا المسيحية، فيستطيع أن يفتح طريقاً مائياً عبر إفريقيا من المحيط الأطلسي إلى البحر الأحمر، ومن ثم إلى الهند، فيحطم الاحتكار الإسلامي لتجارة الشرق، ويحصر مصر من شمال إفريقيا، ومن الجنوب بدول مسيحية (٣٤).

قدم البابا نقولا الخامس نفوذه الأدبي لإغراء البحارة للانخراط في سلك بحارة (الكشوف) بوعدهم بالعفو في (يوم الحساب)، كما منح (هنري الملاح) الحق في أن يحتل ويُخضع مايشاء من الشعوب التي لايسودها حكم المسيح، وأن يمخر البحار اللازمة للقضاء على انتشار (طاعون الإسلام) (٣٥).

وفي عام ١٤٥٤، تلقى هنري من البابا نيقولا الخامس، تفويضاً على شكل مرسوم جاء فيه " إن سرورنا لعظيم أن نعلم أن ولدنا هنري أمير البرتغال، إذ يترسم خطا والده العظيم الذكر يوحنا.. قد اندفع باسم الله إلى أقصى البلاد وأبعدها عن مجال علمنا، كما أدخل بين أحضان الكاثوليك الغادرين من أعداء الله وأعداء المسيح مثل العرب الكفرة (!!)* (...) فإذا تم على يديه اختراق المحيط ملاحة

---

* إشارة التعجب مني.

حتى بلاد الهند.. فإنه سيتمكن من حملهم على النهضة لبذل العون لمسيحيي الغرب على أعداء الدين وستصبح جميع الفتوح تحت سيادة الملك ألفونسو"(٣٦).

بتمكن هنري من الحصول على هذا (المرسوم) فإنه يمتلك ما يُعد في القرن الخامس عشر حقاً قانونياً مطلقاً، والشيء الوحيد الذي يبرز بوضوح من هذا المرسوم، والذي سيكون له أثر قوي في السياسة الدولية خلال المائة سنة اللاحقة " هو المزج بين الدافع الروحي (= الصليبي) إلى فتح الأراضي (الوثنية) من أجل المسيح، وبين الحمية المتعصبة بالدعوة إلى توجيه الضربات إلى جذور الإسلام بمهاجمته من الخلف " (٣٧).

واصل جون الثاني (١٤٨١ ــ ١٤٩٥) جهود هنري الملاح للإبحار نحو الهند، فاكتشف في عهد (بارتلميو دياز) رأس الرجاء الصالح ١٤٨٧، بعدها، من ميناء (رستلو) أبحرت السفن، مسلحة بالمدافع، وتحمل على ساريتها علماً رُسم عليه صليب، وهما الرمزان اللذان اتخذتهما القوة الجديدة الزاحفة نحو الشرق " (٣٨).

في هذه الأثناء، عام ١٤٩٢ أبحر كرستوف كولومبس غرباً بأمل الوصول إلى الهند، مستنداً على اعتقاده بكروية الأرض فوصل إلى إحدى جزر الهند الغربية عام ١٤٩٢، فتوقفت (الاكتشافات) البرتغالية، بانتظار أن يتضح لهم أن طريق كولومبس ليس أقصر من طريق الدوران حول إفريقيا (٣٩). بعدها، وصل (فاسكو دي غاما) رأس الرجاء الصالح عام ١٤٩٧ ومن هناك تابع طريقه ليصل إلى ساحل ملبار ١٤٩٨ في المحيط الهندي، مفتتحاً عهداً جديداً في التجارة الشرقية، وفي علاقة أوربا مع الإسلام والعالم.

ولأن كل شيء صار، حسب ظنهم، في متناول اليد، أُبرمت معاهدة ترود يسيسلهاس (يسيسلاس) في عام ١٤٩٤، حدد فيها كل من البرتغال

وإسبانيا خطأً وهمياً يقع على الغرب من جزر الرأس الأخضر جعلاه الحد الفاصل بين ممتلكاتهما. وحظيت بمباركة البابا اسكندر السادس، وستضيق بها الحكومات البروتستانتية لاحقاً، وخاصة الانجليزية والهولندية (٤٠).

ساعة وصول (دي غاما) إلى المحيط الهندي،غدت الخطة الاستراتيجية المُعدة لإخماد قوة المسلمين، ومصادرة تجارتهم، المنهل الأكبر للسياسة البرتغالية في الشرق لمدة تقرب المئة عام (٤١) وكانت نتائج (المغامرة) البرتغالية أكثر نجاعة وحيوة لأوربا، على امتداد قرن كامل، من تلك التي نجمت عن اكتشاف الإسبان لأمريكا (٤٢).

٤ ـ الوضع قبل وصول البرتغاليين:

استمرت سيطرة الهند على سواحلها، بدون منازع، حتى نهوض البحرية العربية ـ الإسلامية في عهودها الأولى، على أن العلاقة الهندية ـ العربية اتسمت بطابع تنافسي صريح، ولم يحدث أن تجابهت القوتان في البحر من أجل التجارة. فقبل مجيء الأوربيين وتلويثهم تجارة البحر السلمية، كانت " فكرة السيادة على البحر " شيئاً غير معروف في مفاهيم الآسيويين "ولم يحدث قط في أي عصر من العصور، أن مارست دولة آسيوية السيطرة على حركة مرور السفن، ولم يحدث أن شابت نشاطات العرب التجارية أي شائبة سياسية، وكان العرب يتجرون بمنتهى الحرية بجميع الموانئ الهندية... وعندما وصل (فونسو البوكرك) إلى ساحل الملايو لاحظ أن التجار العرب والهنود والصينيين كانوا يتنافسون في أسواق تلك المنطقة تنافساً صريحاً لالبس فيه " (٤٣) وكانت سفنهم الصغيرة والكبيرة خاصة بالتجارة، ولاتعرف الحروب ولاتستعد لها، لذلك كان وصول المراكب البرتغالية الكبيرة، حادثاً جديداً عليهم(٤٤).

وكانت التجارة الشرقية تسلك ثلاثة معابر إلى أوربا، شطر ضئيل منها يعبر براً بالقوافل من أواسط آسيا إلى القسطنطينية ومن هناك إلى أوربا، وطريق يمر عبر الخليج العربي إلى البصرة ثم إلى بغداد، حيث تعبر دجلة والفرات غرباً نحو حلب، ثم الثغور الشامية، وأخيراً طريق البحر الأحمر تجتازه السفن حتى السويس، ثم تنتقل المتاجر عبر الصحراء إلى القاهرة، ومنها إلى الاسكندرية، أو دمياط (٤٥).

ويقوم العرب بالدور الرئيسي في خدمة هذه التجارة، يعاونهم بذلك المسلمون الآخرون. فالمسلمون عموماً يملكون ويديرون معظم السفن العاملة في البحار الشرقية، ويؤمنون الجانب الأكبر من هذه الحركة التجارية الناشطة في المحيط الهندي عبر البحار العربية ثم عبر البر المصري إلى المتوسط ثم أوربا أو إلى الخليج العربي إلى (بغداد) ثم المرافئ الشامية.

وهذه الحركة التجارية الناشطة في المحيط الهندي ارتكزت على محطتين رئيسيتين: سواحل الملابار حيث كانت مدينة (كاليكوت) تؤلف المرفأ الرئيسي، وهو ميناء واقع في إمارة (زامورين) (كاليكوت) أما الثانية فكانت (ملقا)، التي هي من الإنشاءات التي أوجدها المسلمون فشكلت نقطة التقاء بين الحركة التجارية في المحيط الهندي وبحار الصين، ويقع فيها مقايضة وتبادل محاصيل الصين والسيام وجزر التوابل، وجزر الصوند مع البضائع والسلع والمحاصيل من الهند والجزيرة العربية وإفريقيا وأوربا.

وكانت محاصيل الشرق الأقصى ترد إلى كاليكوت والمرافئ المجاورة لها، ويأتيها فلفل مقاطعة الملابار، والمحاصيل الهندية الأخرى، كالقرفة، والحجارة الكريمة من سيلان، والنيلة من غوجارات (كوجرات) والمنسوجات القطنية والجوت من البنغال وكوجرات، بالإضافة إلى الأفيون والعقاقير، ثم

يتم العبور بهذه البضائع في البحر الأحمر، والخليج العربي، وعبر الأراضي العربية: الشام ومصر إلى أوربا بعد إبحارها في المتوسط، مقابل الذهب، والفضة، وخيل العجم، وجياد الجزيرة العربية، والحرير الخام واللآلئ من فارس، والبن والعطور من البلاد العربية، والنحاس والقصدير والزنك والرصاص والزئبق والمخمل والديباج من أوربا، حيث تصل الشرق الأقصى عن طريق البلاد العربية، والعاج والعنبر والمرجان والعبيد من إفريقيا لسد حاجات الجيوش والبلاطات الملكية (٤٦).

ولم يكن يُسمح ببقاء السفن طويلاً في موانئ آسيا خشية أن يفتك بها السوس، فكلّف التجار وكلاء لهم من الأهالي لشراء التوابل مباشرة من منتجيها يحفظونها في مستودعات لحين وصول السفن في مواسمها لشحنها " وكان نيسان أفضل الشهور لاجتياز باب المندب، أما الوقت المناسب لمغادرة (ملقا) فكانت بين أيلول ونيسان، وكثيراً ما عوّل التجار على التحاويل والسفاتج المالية في معاملاتهم " (٤٧).

وفوجئ الناس بوصول السفن الشراعية البرتغالية ذات الصواري الأربعة مياه المحيط الهندي، ويذكر الشيخ نور الدين أنهم وصلوا الهند عام ١٤٩٨، في ثلاث مسماريات (=مثبتة ألواحها بالمسامير وليس بالخيوط) في الوقت الذي كانت فيه السفن الإسلامية، حتى القرن السادس عشر، في البحار الشرقية تُثبت بالخيوط. التي يغرزونها خلال ثقوب على الأطراف المتجاورة لألواح الخشب (٤٨).

٥ ــ الواقع السياسي الهندي عند قدومهم:

حين حط البرتغاليون في المحيط الهندي، كانت الهند موزعة بين عدة دول إسلامية أقواها سلطنة دلهي، ويليها كوجرات، ودول هندوسية كانت

(فيجاياناجار) أقواها وأشدها عداء وكرهاً للإسلام، وهي من بسط يديه إلى البرتغاليين نكاية بالمسلمين، وارتكز عليها البرتغاليون لإضعاف الوجود الإسلامي هناك.

فدولة الغوريين في (دلهي) ١٢٠٦ ــ ١٥٥٥، التي وضعت يدها على الجزء الأكبر من الهند، ومارست نهجاً إسلامياً تسامحياً في علاقتها مع الهندوس، زعزع أركانها غزو (تيمورلنك) لبلاد الهند (٨٠٦هـ ــ ١٣٩٨م)، وكان من نتائج هذا الغزو التيموري، وماأثاره من خراب ودمار في أرجاء الامبراطورية الغورية المسلمة، أن اجتاحت الفوضى والاضطرابات كافة الأقاليم التي دخلها الغزاة، ثم مالبثت أن أعلنت ولاياتها الكبرى انفصالها: مالوه، وجونيور، والدكن، والبنغال التي استقلت قبل غيرها، وسلطنة كجرات البحرية المسلمة (١٣٩١ ــ ١٥٨٣) التي كانت مستعدة للقتال إلى جانب المسلمين الآخرين: المماليك ثم العثمانيين ضد الخطر البرتغالي (٤٩).

وتعد (كجرات) ثاني إمارات الهند بعد دلهي، فمن شاطئها، عند صورات، وخليجها كمباي، كانت تبحر السفن بمنتجات الهند من توابل وثمار، وعطور، وسيوف ومنسوجات حريرية وقطنية وأحجار كريمة إلى بلاد العرب، وإلى البحر الأحمر، تنتقل بعد ذلك إلى البحر المتوسط لتحملها فلك أخرى من هناك إلى ثغور أوربا، وقد ذاع صيت سلطانها (محمود بيكر) لعقده العزم على طرد البنغاليين، من سواحل الهند الغربية، حيث نزلوا على مقربة من بمباي وأخذوا يقطعون الطريق على سفن الحج والتجارة، وقد تعاون مع (الغوري) و (سليمان القانوني) لمحاربتهم (٥٠).

وقد تأسست امبراطورية مغولية مسلمة على يد (بابر) في عام ١٥٢٦، مثلت هذه الامبراطورية أعلى ما وصلت إليه الهند الإسلامية من روعة وازدهار

ثقافي وسياسي، على يد (بابر) وحفيده أكبر (١٥٥٦ ــ ١٦٠٥) (٥١) ومن عاصمتهم دلهي توسع (أكبر) وضم شمال الهند، واستخدم الراجبوت والهندوس، ومارس سياسة التسامح الديني، وبسط سلطانه على كشمير، والبنغال، وعلى الجنوب صوب هضبة الدكن، وغرباً على حساب (راجبوتانا) وكاد استيلائه القصير الأمد على كوجيرات (كجرات) في عام ١٥٧٢، أن يعطي امبراطوريته نافذة على البحر، ويجعله يتصل بالبرتغاليين في صورات. ولكن طموحات أكبر كانت قارية فحسب، فلم يفكر بمواجهة البرتغاليين، وإن بقيت (صورات) هامة بالنسبة له ولخلفائه، فإنما لأنها الميناء الرئيسي لسفر المسلمين للحج (٥٢) فقَبِلَ أكبر، كما يقول موسينيه، بطلب الترخيص له، وبدفع الرسوم المتوجبة على السفن المعدة لنقل الحجاج من صورات إلى مكة(٥٣) على الرغم من أن (أكْبر) أعاد إنشاء الامبراطورية الهندية السابقة، من الهمالايا إلى الدكن الشمالية، ومن أفغانستان إلى البنغال إلا أنه مارس سياسة سلبية تجاه مايجري في المحيط الهندي ستُفقد فيه عناصر المقاومة للغزو البرتغالي احتياطاً جباراً للقوة هي بأمس الحاجة إليه، مما سهل الأمر للبرتغاليين.

وفي مقابل القوى، والدول الإسلامية الهندية، فقد برزت منذ القرن الخامس عشر دولة (فيجايانا جار) الهندوسية، التي ناصبت العداء للمسلمين، وللامبراطورية المغولية المسلمة "والمهم أن نلاحظ أن أباطرة (فيجايانا جار) كان يجمعهم مع البرتغاليين نزعة القتال ضد المسلمين، فكان الإسلام هو العدو المشترك لكل من البرتغال والفيجايانا جار، وذلك عامل له أهميته الضخمة في توطيد قدم سلطان البرتغال بمدينة (جوا)"(٥٤).

في الوقت الذي وصل فيه البرتغاليون إلى الهند، كانت تقوم في شمالها ووسطها عدة دول إسلامية قوية، بجانب حكومة (دلهي) فكان في كجرات

دولة إسلامية قوية، وفي مالوا، وفي الدكن أربع ممالك إسلامية، عدا عن الممالك الإسلامية في شرق الهند، وكان يجاور الممالك الإسلامية في الدكن بعض الممالك الهندوسية. وأهمها (فيجايانا جار) وكانت الحروب والعداوات بين المسلمين والهندوس لاتتوقف في هذه المنطقة(٥٥).

وكانت الشقة الساحلية الواقعة على النهاية القصوى لشبه جزيرة الهند، والتي يفصلها جبال الغات الغربية، التي لايمكن اختراقها، عن دولة (الفيجايانا جار)، وهي المنطقة الوحيدة التي قامت بها بعض الإمارات الصغيرة المستقلة، والتي تعرف باسم مالبار أو كيرالا، المعروفة بمنطقة الفلفل، ومن أهم حكامها (الزامورين) صاحب كاليكوت الهندوسي ولكنه صديق للمسلمين، والذي تعاون معهم دائماً ضد البرتغاليين، وهو الذي وصل إلى عاصمته (كاليكوت) فاسكو دي غاما (٥٦) وكان الزامورين ملكاً عظيماً، حيث كانت عاصمته المركز الرئيسي لتجارة الأفاوية. ولم يكن ذلك مقصوراً على الفلفل وحب الهال ومنتجات أخرى من ساحل ملبار، بل إن توابل منقولة من جزر المحيط الهادي كانت تمر بكاليكوت في طريقها إلى أوربا (٥٧).

٦ ـ العراك، وسياسة القوة:

أثار وجود العرب الكثيف في المحيط الهندي، وسيطرة سفنهم مع المسلمين الآخرين، دهشة وامتعاض (فاسكو دي غاما)، فاكتفى بالحصول على إذن بالتجارة من الزامورين صاحب كاليكوت وصديق المسلمين، الذي لبى طلبه بعد تردد.

عمانويل ـ ملك البرتغال ـ لم يعجبه هذا، إن مايريده هو أن يصبح سيد البحار هناك، وأن يفرض مايريده بالقوة، ليس إلا. فجهز أسطولاً عظيماً بقيادة (كبرال)، خالعاً عليه البابا لقب (سيد الملاحة والفتح والتجارة في إثيوبيا، وبلاد العرب والهند وفارس).

أبحر كبرال عام ١٥٠٠، كان عليه السفر فوراً، إلى كاليكوت (= قاليقوط)، ومطالبة الزامورين، تحت التهديد بالحرب، بالإذن لإنشاء مركز تجاري، والسماح لخمسة من الفرنسيسكان بالتبشير في إمارته.

قادت غطرسة كبرال، واستفزازه إلى قيام ثورة شعبية قتلت الكثير من رجاله، فانسحب مضطراً، بعد أن أمطر الشاطئ بوابل من نيران مدفعيته " على الرغم من محاولته استغلال الخلاف بين الزامورين والأمراء المجاورين له في كتشن وكانانور الذين انضموا إليه وساعدوه،ولكنه اضطر أخيراً أمام قوة الزامورين البحرية إلى العودة إلى البرتغال محملاً بالبضائع والنفائس " (٥٨). إلا أن أساطيل البرتغال لن يقف تدفقها " عمارة تعقب عمارة "، (الدوم مناويل) سيعقب كبرال مباشرة، " محملاً بأوامر أن ينفذ بالقوة إدعاء السيادة على البحار الهندية " (٥٩).

وفي عام ١٥٠٢ سيقود فاسكو دي غاما عشرين سفينة، أقام مراكز للتوابل في كل من سفالة، وموزمبيق، وكلوة، في الطرف الشرقي من إفريقيا، وأشعل النيران بسفينة حجاج في المياه الهندية، وعندما رفض (الزامورين) طلباته، شنق ومثَّل بخمسين رهينة بوحشية نادرة، ليبرهن، وهو (المكتشف) على أنه، على مستوى (الضمير الأخلاقي)، ليس أكثر من إنسان متوحش. ثم توجه إلى كوتشين حيث وقع مع حاكمها الهندوسي (ترايمومبار) معاهدة صداقة وتجارة. وكذلك مع حاكم كانوري (٦٠).

على الرغم من أن أسطول (الزامورين) يفتقد لسرعة النيران التي تمتاز بها السفن البرتغالية المزودة بالمدفعية الثقيلة، إلا أن أمير الأسطول قاسم (العربي) أجبر السفن البرتغالية على الهرب. ولكنه عجز عن تعقب (دي غاما) ليجني ثمار نصره " ذلك لأن أسطول كاليكوط لم يكن معداً لأعالي البحار، ولايستطيع القتال إلا في المياه الساحلية " (٦١).

ولم يغادر (دي غاما) المياه الهندية حتى أقبلت عشرون سفينة بقيادة (سواريس) قامت بهجوم مفاجئ على عمارة كاليكوت البحرية فدمرتها، وأعقبتها بحملة على السفن التجارية، عندئذ أدرك (الزامورين) أن سفنه لاقِبل لها بمواجهة سفن (الكرافيل) الثقيلة التسليح، وإنها لن تفوز عليها أثناء العمليات البعيدة، فطلب مساعدة سلطان مصر (٦٢).

٧ ــ دور المماليك:

ويبدو أن صلة المماليك ببلاد الهند قد بدأت منذ عهد بعيد، ففي عهد (الناصر محمد بن قلاوون) أرسل أحد ملوك الهند يستمنح الخليفة العباسي بالقاهرة تفويضاً لملكه، ليكسب صفة الشرعية، واستجاب له الناصر محمد والخليفة. ونقش هذا الملك اسم الخليفة على سكة بلاده، وتكررت هذه الواقعة في عهد أشرف قايتباي، وأرسل ملك الهند الهدايا إلى ملك القاهرة وخليفتها، واستوردت مصر من الهند، الحنطة والحمص والسمسم وجوز الهند، وغير ذلك، واستوردت الهند منها الكتان وغيره(٦٣). وعندما أتت رسائل (الزامورين) إلى السلطان (الغوري) في القاهرة، كان المماليك، ومعهم عموم المشرق العربي، يعانون من انقطاع خط التجارة الشرقية عن أراضيهم، ومن خسارة المكوس المترتبة عليها، واستشعروا المخاطر الجدية الناجمة عن الاختراق البرتغالي، وما غابت تلك المخاطر عن بال ابن إياس، وابن طولون، كما بينا ذلك سابقاً، وهذا (النهرواني) المعاصر لتلك الأحداث ينبهنا قائلاً " وقع في القرن العاشر دخول البرتغاليين اللعين، من طوائف الفرنج الملاعين إلى ديار الهند "(٦٥).

ولكن المماليك، في ذلك الحين، كانوا في أسوأ أحوالهم، على صعيد البناء الاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي، فاكتفى السلطان الغوري عندما أتاه رُسل (الزامورين) بأن أرسل إلى البابا يتوعده بتخريب الأماكن المقدسة

المسيحية في بيت المقدس، إذا لم يستدع البرتغاليين من الهند، ويأمرهم بالكف عن عدوانهم على البحار الشرقية الإسلامية (٦٦).

لم يعبأ البرتغاليون بتلك التهديدات، واستمروا في عدوانهم، وأرسلوا حملة في عام ١٥٠٥، بقيادة (فرانسيسكو دي الميدا)، تلك الحملة التي أُريد بها أن تدشن مرحلة جديدة في الصراع البرتغالي ــ الإسلامي في المحيط الهندي، بأن تقضي على تفوق العرب التجاري عن طريق احتلال عدن وهرمز وملقا، مفاتيح البحر الأحمر، والخليج العربي، والمحيط الهندي، واحتلال نقاط ارتكاز على طول الخط التجاري، وتدعيمها بالقلاع اللازمة لحمايتها (٦٧) جعل (الميدا) كوشين ــ التي قدمها له الحاكم الهندوسي ــ مقراً له، ونقطة ارتكاز لتحركاته، وسيدعمه (الملك عمانويل) عام ١٥٠٦ بحملة بقيادة (ترستان) الذي وضع يده على (سوقطرة) ليتحكم في مداخل البحر الأحمر، وسيتكفل (البوكرك) بإلزام حاكم هرمز بالجزية.

إن عدم جدوى رسائل (الغوري) التهديدية، والجدب الذي أصاب تجارة المماليك، وإفقار ميناء السويس والاسكندرية، وظهور الخطر بكل جلائه، دفع الغوري إلى طلب مساعدة العثمانيين لبناء أسطولهم، الذين بادروا (= بايزيد الثاني) بإرسال الأخشاب والحبال، والحديد والنحاس والبارود، والمدافع أيضاً، على سبيل الهدية، وبدون أي ثمن مقابل (٦٨).

استجاب، أخيرا، قانصوه الغوري لطلب الزامورين، الذي انضم إليه ملك كجرات السلطان محمود بيكرو، ويحدثنا ابن إياس في حوادث سنة ٩١١ هــ على " خروج التجريدة المصرية إلى بلاد الهند، وكان لها يوم مشهود، وقد جهز لهم السلطان عدة مراكب مشحونة بالزاد والسلاح ". وكان الأسطول تحت قيادة المملوكي حسين الكردي والضابط العثماني الكبير سليمان رئيس.

وحين وصول الأسطول إلى المياه الهندية، انضم إليه أسطول الزامورين وأسطول سلطان الكجرات سنة ٩١٤ هـ ــ ١٥٠٨م (٦٩). وكانت خطة المير (حسن الكردي) ــ كما يصفها بانيكار ــ بسيطة وسليمة، كان هدفه الأول هو جزيرة (ديو) التي صمم أن يتخذ منها قاعدة له، وأن يُوجد اتصال مع بحرية الزامورين عندها يقوم الأسطول المشترك بمهاجمة البرتغاليين.

وصل حسين الكردي إلى (ديو) وانضمت إليه ــ حسب ماتوقع ــ سفن الزامورين، وسجل انتصاراً جلياً، في بداية المعارك ١٥٠٨، التي قُتل فيها قائد الأسطول البرتغالي (لونزوالميدا) (٧٠). ثم التقى الطرفان في معركة فاصلة، وبعد يومين من إطلاق المدافع عزم البرتغاليون على الفرار، لولارباطة جأش (فرنسيسكو الميدا) وخيانة مالك أياز حاكم (ديو) الذي حرم الأسطول المملوكي من المدد والمؤن، مما دفع (حسن الكردي) للانسحاب من المياه الهندية (٧١) تاركاً السيادة للسفن البرتغالية، وقد ارتكب (الميدا) بالأسرى فظائع مروعة، إذ ربط بعضهم على فوهات المدافع، ليرى تناثر أشلائهم، بعد القصف (٧٢).

ومع انسحاب الأسطول (المملوكي)، أو هزيمته، تأكد، فعلاً لا قولاً، ادعاء البرتغاليين بأنهم سادة الملاحة في البحار الشرقية لاينازعهم فيها أحد، وكان لتأخر التدخل المملوكي المباشر في الصراع، بعد عشر سنوات من الاختراق البرتغالي، دوره الأكيد في توطيد وجودهم، وبناء قوتهم، وتحالفاتهم، في المحيط الهندي، مما سهل لهم حسم المعركة لصالحهم.

سيُعيَّن (الفونسو البوكيرك) نائباً لملك البرتغال، إثر تراجع الأسطول المملوكي، بعد أن اختُبر تعصبه المحموم، ونزوعه الإجرامي الذي لامثيل له، منذ عام ١٥٠٦، على طول السواحل العربية: سوقطرة، ساحل عمان، حيث سيتوج

أعماله بإحراق مسجد مسقط بما فيه، ويُظهر تفننه في تعذيب وتشويه النساء والأطفال. أما عند احتلاله (جوا)، بعد رحيل المصريين، فقد عرض (البوكرك) للسيف كل عربي فيها، وأضرم النار بالمساجد الممتلئة بالناس. وقد وضع نصب عينيه الاستقواء بالهندوس على المسلمين، واستغلال عدائهم المرير للإسلام، فهو ما استطاع احتلال (جوا) وتحويلها قاعدة له، لولا مساعدة (تولاجي) رئيس المنطقة الهندوسي، الذي انحاز للبرتغاليين لكي يُضعف من قوة سلاطين (آل عادل شاه) في (كجرات)، ولولا مباركة سلاطين (فيجاياناجار) الهندوس الذين لم يقتصروا على إبداء الترحاب باحتلال البرتغاليين (لجوا)، بل أقاموا معهم أطيب العلاقات، وقبلوا طلب البوكرك بإنشاء مؤسسة في (بهاتال).. فقد وحّد بينهما عداؤهما المشترك للإسلام (٧٣).

التفت البوكرك بعد (جوا) إلى منطقة الملايو، والمحيط الهادي، المركز الرئيسي للتجارة الأفاوية، إذ كانت هذه التجارة تمر من خلال مضيق (ملقا) وينقلها العرب إلى البحر الأحمر، وبعد جهود مضنية سقطت (ملقا) بين يديه، فأعمل السيف بالمسلمين، وأثقل المدينة بالدمار. فأخذت تتجمع ــ كما يقول موداك ــ " مسارات مختلفة من تاريخ العالم، فهجوم البوكرك على دولة ملقا، لم يكن مجرد مغامرة تجارية، بل كان استمراراً للحروب الصليبية، فقد كان المسيحيون في الغرب يقاتلون العرب والأتراك.. ويؤدي الاستيلاء على (باب الضريبة) في ملقا إلى السيطرة على تجارة جزر التوابل والتجارة البحرية للشرق الأقصى مع الهند والشرق الأدنى"(٧٤).

مثلما استغلوا العداء الهندوسي، فإنهم لعبوا بورقة إثيوبيا في البحر الأحمر، وشرق إفريقيا، وبورقة العداء (الصفوي) للعثمانيين لتسهيل دخولهم الخليج العربي، وتحكمهم بمصير خط التجارة المار بالبصرة ــ بغداد ــ حلب إلى الموانئ الشامية.

وبالفعل، عقد البوكرك صفقة مع الصفويين، عند احتلاله هرمز ١٥١٥، تعهد البرتغاليون فيها بمعاونة الشاه اسماعيل على القضاء على الحركات الانفصالية في إقليم كمران، وعلى تعاضدهما العسكري ضد الدولة العثمانية (٧٥).

جدد البرتغاليون اتصالهم بإثيوبيا في عام ١٥٠٧م، الذي بدأوه عام ١٤٩٠م، لتنسيق الجهود ضد الإسلام، ولاختراق البحر الأحمر، والقضاء على التجارة العربية فيه، وربما للانقضاض على الأماكن المقدسة الإسلامية، ثم للوصول إلى بيت المقدس.

واقترح البوكرك ــ كما يشير إلى ذلك ديورانت ــ على ملك الحبشة المسيحي، أن يحولا مجرى النيل إلى البحر الأحمر. "ويجعلا مصر الإسلامية بأسرها صحراء قاحلة، ولكن المتاعب أرغمت البوكرك أن يقفل راجعاً إلى (جوا) حيث مات عام ١٥١٥ م " (٧٦).

خرج البوكرك عام ١٥١٣م بعشرين سفينة حربية وحاصر عدن أربعة أيام دون جدوى، اتجه بعدها، متوغلاً شمالاً في البحر الأحمر واستولى على جزيرة كمران، وقتل سكانها، لكنه ما استطاع الوصول إلى ميناء جده، ليتخذها قاعدة لهجومه المرتقب على مكة، والمدينة، وتبوك، ثم بيت المقدس، إذ كان يعتقد، كما ورد في رسالته إلى ملك البرتغال: "من السهل تجهيز ٥٠٠ فارس برتغالي بمعداتهم للنزول إلى جده، ومن هناك ينتقلون إلى مكة، وهي رحلة يوم ليجعلوها رماداً"(٧٧).

بدأ الخطر يحف قلب الأرض العربية وبحارها، واعتاد البرتغاليون الإغارة على المدن الساحلية العربية ــ الإسلامية على حافتي البحر الأحمر، وأمطروا سواكن، وزيلع، ومصوع بالنيران. في وقت كانت تجري فيه، ببطء، الاستعدادات المملوكية للحملة الثانية البحرية، بمساعدة عثمانية

ملموسة. وعندما خرجت الحملة، أخيراً، عام ١٥١٥م، كان العثمانيون فيها الأكثرية، بقيادة سلمان رئيس، الذي مكث بجدة حتى تسلّم العثمانيون زمام الأمور في مصر (٧٨).

٨ ــ الدور العثماني:

ما تهرب العثمانيون عن واجب مقاومة الاختراق البرتغالي، أو الاستعداد لمواجهته، فقدموا كل مساعدة ممكنة للماليك لتدارك الخطر القادم، في حين أثبت المماليك عجزهم، حتى، عن حماية طريق الحج من الأعراب "مما جعل الجميع ــ بما فيهم البنادقة ــ يتطلعون إلى العثمانيين كقوة قادرة على حماية الحرمين، وطرق الحج، ومواجهة البرتغاليين" (٧٩).

وقد استشعر البرتغاليون، دائماً، مخاطر التدخل العثماني في الأحداث وهذا مايظهر في رسالة البوكرك إلى مليكه عام ١٥١٢: " إن أكبر الشرور التي تهدد (جوا) هي الأنباء التي تذكر أن الروم (= العثمانيين) قادمون، إنهم مصدر خطر كبير على الهند، وإن مثل هذه الإشاعات تخلق الكثير من القلق " (٨٠).

تضاعفت المساعدة العثمانية للماليك بعد هزيمة الحملة الأولى في (ديو) عام ١٥٠٩، على الرغم من بطء رد فعلهم على الأحداث، وتذبذب مواقفهم أمام الصراع الصفوي / العثماني، الذي برز بكل قوة ووضوح.

إن ضلوع الصفويين المشبوه، وموقعهم التنافسي مذهبياً، وتردد الموقف المملوكي وضعفه، سيلعب ــ مع جملة من العوامل الأخرى ــ في أن يتدخل العثمانيون ليغيروا سيناريو الأحداث وموازين القوى. فحجّموا دور الصفويين بدفعهم إلى ماوراء تبريز، ثم، تقدموا ليضموا مصر والشام والحجاز، على حساب المماليك، ليصبحوا بذلك، قبالة البرتغاليين، وجهاً لوجه.

دخل السلطان سليم الأول القاهرة عشية مغادرة الحملة الثانية المملوكية ـــ العثمانية المشتركة، التي عطل جهودها الصراع بين القائد المملوكي حسن الكردي والضابط العثماني الكبير (سليمان رئيس) فأوكل السلطان العثماني إلى الأخير أمر القيادة في جدة، لحماية البحر الأحمر، والأماكن المقدسة، كمقدمة لمهام أخرى حاسمة.

صدّ سليمان رئيس حملة (سواريس) على جدة عام ١٥١٧، ودفع ضررهم عن سواحل اليمن والحجاز، وصدّ حملة أخرى عام ١٥٢٠م على (دهلك) وثالثة استهدفت (مصوع)(٨١). وذهبت عمارة بحرية عثمانية في هذه الأثناء، من اليمنيين والعثمانيين، لنجدة سلطان كوجرات (بهادور) حيث دخلوا في خدمته، مما أخر استيلاء البرتغاليين على (ديو)(٨٢).

ولم يضع حداً للعبث البرتغالي بسواحل الخليج العربي سوى دخول الدولة العثمانية الميدان هناك. بعد قدوم سليمان القانوني إلى بغداد، إثر انتفاضة الأهالي المؤيدة للعثمانيين عام ١٥٣٤، مما دفع بحكام البصرة وخوزستان والبحرين والقطيف والاحساء وغيرها من الإمارات، تحت ضغط الخطر البرتغالي، إلى الإقرار بالولاء للسلطان العثماني (٨٣).

فأنشأ العثمانيون ترسانة لهم في البصرة، ومدوا وجودهم، المؤيد من الأهالي، في قطيف، والاحساء، وحضر موت، وتداولوا السيطرة ـــ مع البرتغاليين ـــ على البحرين ومسقط. وتمكنوا مع ازدياد دورهم في الخليج، واستقرارهم في البصرة، من السيادة الفعلية على الطريق التجاري الذي يمر من تبريز إلى أرض الروم، وطوقان وبورصة، وطريق التوابل الذي يمتد من البصرة إلى بغداد، وحلب إلى موانئ الشام (٨٤).

يمكننا القول، إن سليمان القانوني (١٥٢٠ ــ ١٥٦٦) أظهر دراية تامة بالمشاكل التي تواجه الإسلام في الوقت الذي أصبحت فيه امبراطوريته العثمانية في موقع القلعة، أو السياج للعالم الإسلامي، وضع خططاً سياسية ذات طابع كوني، فهو يعرف أن عدوه الرئيسي، في التخوم الغربية، وعلى البحر المتوسط: الامبراطورية الرومانية المقدسة، وإسبانيا التي ظلت حتى عام ١٥٥٩ جزءاً من هذه الامبراطورية. وهو على دراية حقيقية بخطورة مايجري في البحار الشرقية، وفداحة الأضرار الناجمة عن إبعاد العرب عن أسواق تجارة الشرق الأقصى، لذلك فتح باب المفاوضات مع الزامورين صاحب كاليكوت، ومع ملك كامباي المسلم، وعقد اتفاقاً معهما يقضي بالعمل المشترك ضد الأعداء، كما يشير إلى ذلك بنيكار (٨٥). وأصدر السلطان أوامره إلى (سليمان باشا الخادم) والي مصر: " عليك يا بيك البكوات (بكاربك) بمصر سليمان باشا، أن تقوم فور تسلمك أوامرنا هذه بتجهيز حقيبتك وحاجاتك وإعداد العدة بالسويس للجهاد في سبيل الله... فعليك أن تخرج إلى الهند وتحافظ على تلك الأجزاء.." (٨٦).

صدع سليمان باشا الخادم وشيد عمارة بحرية هائلة مؤلفة من سبعين سفينة وسلحها بالمدفعية الضخمة، عام ١٥٣٨، يصاحبه عشرون ألف جندي، وفتح مدائن عدن ومسقط، وحاصر هرمز قاصداً سواحل كجرات، بعد أن رتَّب الأوضاع في السواحل اليمنية، وسيطر على عدن ليحمي خطوطه الخلفية وكنقطة ارتكاز استراتيجية له. وهناك في المياه الهندية فتح أغلب الحصون التي بناها البرتغاليون، لكنه أخفق أمام ثغر (ديو) (٨٧).

استغل البرتغاليون تأخر الحملة العثمانية، والأخبار المتناقلة عن قسوة (سليمان الخادم) غير المبررة في عدن، حيث أمر بشنق سلطانها وحاشيته بعد أن استقبلوه بالترحاب عند دخوله المدينة (٨٨). فاستولى البرتغاليون على

ميناء (ديو)، وقتلوا حاكم كجرات غدراً لعلاقته بالعثمانيين، واضطر أمير كاليكوت إلى مصالحة البرتغاليين، والسماح لهم بالتجارة، وبناء الحصن.

وحينما وصل (سليمان باشا الخادم) إلى مشارف ديو في ٤ سبتمبر ١٥٣٨، حاصر القلعة البرتغالية، كما حاصر (جوا) ثلاثة أشهر ولكنه لم يتمكن من الاتصال بأسطول الزامورين، وانفض الجميع عنه لتوجسهم الخيفة والغدر من قسوته (٨٩). فاضطر، أخيراً، للارتداد خائباً في (٩٤٦ هـ، ١٥٣٩م). ولكنه في عودته رتب الأوضاع في البحر الأحمر، وفي اليمن بشكل حاسم لصالح العثمانيين.

رداً على (سليمان باشا الخادم)، وتنفيذاً لخططهم البعيدة المدى في البحر الأحمر، واعتماداً على تحالفهم مع الحبشة، تحرك (دي غاما) نائب ملك البرتغال قاصداً السويس، القاعدة العثمانية الرئيسية فوصل البحر الأحمر عام ١٥٤١ م، وبعد أن ضرب مصوع، وسواكن، استقبلته المدافع العثمانية في السويس، فارتد معترفاً بفشله.

فشل الحملة البرتغالية هذه، عزّز من موقع العثمانيين كحماة للبحر الأحمر، وأطلقت يدهم لإغلاق هذا البحر أمام الملاحة الأجنبية، أي المسيحية، ولقطع الاتصال بين البرتغاليين والحبشة (٩٠). فعمل العثمانيون على منع المسيحيين من الإبحار في البحر الأحمر، أو أبعد من ميناء مخا، ورسخوا تدريجياً، تقليداً جديداً، هو تحديد نطاق توغل السفن الأوربية في البحر الأحمر، بحجة أن الحرمين الشريفين يطلان على هذا البحر (٩١). من هنا يأتي قول الشناوي:" كانت أعظم خدمة أسدتها الدولة العثمانية إلى الإسلام أنها وقفت في وجه الزحف الصليبي الاستعماري البرتغالي للبحر الأحمر، والأماكن المقدسة الإسلامية في أوائل القرن السادس عشر " (٩٢).

لعل إخفاق البرتغاليين في البحر الأحمر، وتوجسهم لمخاطر المواجهة الدائمة مع العثمانيين في الخليج، بعد أن صارت البصرة والعسير والقطيف نقاطاً متقدمة لجبهة المواجهة، هو مادفعهم إلى طلب الصلح من سليمان القانوني، الذي رفضه.. (٩٣).

استأنف العثمانيون هجومهم ضد مدينة (ديو) عام ١٥٤٦ وألحقوا بالبرتغاليين أضراراً كبيرة. وهو مايتواقت مع الهجوم المراكشي في المغرب الأقصى (٩٤). وأبحر (محي الدين بيري بك رئيس) عام ١٥٥٢ من السويس ـــ بعد أن فرض العثمانيون حمايتهم على البحر الأحمر ـــ بثلاثين سفينة حربية، عليها (١٦) ألف رجل إلى الخليج لطرد البرتغاليين من هرمز وضمها إلى البصرة، لكن (بيري رئيس) فرض الحصار على جزيرة هرمز قبل أن تأتيه النجدات المنتظرة من البصرة، مخالفاً بذلك تعاليم السلطان سليمان القانوني ـــ مما أفسد عليه خطط استيلائه على هرمز، دافعاً حياته ثمناً لهذا الخطأ الحربي الكبير (٩٥).

وفي تموز ١٥٥٤ خرج أسطول آخر بقيادة الأميرال والكاتب الشهير (سيدي بيري علي) الذي تمكن من الاستيلاء على البحرين ووضع حامية عثمانية عليها، إلا أن البرتغاليين تمكنوا من أسطوله بالقرب من مسقط، ونجا (بيري علي) مع بعض القطع من أسطوله، قاصداً الهند، حيث قرر بحارته الدخول في خدمة سلطان كجرات، وعاد هو براً إلى الآستانة (٩٦).

حاول العثمانيون تبديل الأوضاع والتوازنات، بعد ضم إسبانيا البرتغال إلى ملكها، فأبحر القائد العثماني (علي ميرال)، الذي استطاع إشعال الثورات على البرتغاليين في كل قواعدهم في ساحل إفريقيا الشرقي، واستقبل الأهالي المسلمون (علي ميرال) بحماسة من ميناء لآخر، وأعلنت كل من مقديشو،

وبراده، ولامو، وفازا، ولاءها للعثمانيين، لكن ما لبثت أن عادت إلى سيرتها الأولى، ماعدا (مقديشو) التي بقيت على ولائها للسلطان العثماني. فضاعت الفرصة من أيدي العثمانيين للإمساك بزمام المبادرة، تحت وطأة هزيمة معركة (ليبانتو) الشهيرة في المتوسط، ولضعف قوتهم البحرية بالمقارنة مع السفن الأوربية(٩٧) فهزمهم البرتغاليون عام ١٥٨٩ م، الذين أعادوا بسط سيطرتهم في مومباسا، وبعض المواقع الأخرى في شرق إفريقيا.

تأكدت السيطرة البرتغالية على أعالي البحار الشرقية، وأمسكوا بمفاتيح تجارة الشرق، إلا أنهم ظلوا عاجزين عن التوغل في البر الإسلامي، والسيطرة على مناطق اليابسة. فمنذ انتهت إلى كارثة حقيقية، محاولة البوكرك ــ أعلى قواد البرتغال كعباً ــ في عام ١٥٠١ م لاحتلال كاليكوت، فتمزقت القوات البرتغالية إرباً إرباً، لم يحاول، بعدها، أي أوربي أن يقوم بفتح عسكري على البر، أمد مائتين وثلاثين عاماً، و(جوا) نفسها لم يحتلوها إلا بمساعدة الحكام الهندوس (٩٨).

إن دخول الهولنديين، ثم الانكليز، المياه الشرقية في نهاية القرن السادس عشر لن يغير من هذه الحقيقة بشيء، فلن يجرؤ الأوربيون على بسط سيادتهم على البر الإسلامي في الهند، إلا مع نهاية القرن الثامن عشر.

٩ ــ التجارة الدولية:

لم تنجح السيطرة البرتغالية على أعالي البحار الشرقية من منع تدفق السلع عبر البرزخ العربي، فإن فتح العثمانيين لليمن، وعدن، وتمكنهم من السواحل العربية للبحر الأحمر، وعلى مناطق سواكن ومصوع على الساحل الإفريقي لهذا البحر، وبسطهم لسيادتهم على الخليج العربي، على البصرة والإحساء، ومحاولاتهم المتكررة لطرد البرتغاليين من هرمز، كل هذا أنزل

ضربة قاسية بمحاولة البرتغاليين لاحتكار التجارة الشرقية، والتفرد بها، إذ بقيت هذه التجارة ناشطة تمر بالخليج، والبحر الأحمر عبر الأراضي العربية، حتى الربع الأول من القرن السابع عشر حين بدأت تنافسها التجارة الهولندية والانجليزية التي اعتمدت على سفن كبيرة وقوية (٩٩).

وظل التجار العرب، طوال القرن السادس عشر ـ كما يشير كيرك ـ يقومون بجلب الحرير والأفاوية والأصباغ، والعقاقير من الشرق، والبن من اليمن، وينقلونها جميعاً في البحر الأحمر، ثم عبر الصحراء إلى القاهرة والاسكندرية، كما بقي جانب آخر من هذه التجارة يسلك الطريق الممتد من البصرة إلى الثغور الشامية للمتوسط (١٠٠).

فبعد ارتباك مؤقت في بداية القرن السادس عشر، يتواقت مع اختراق البرتغال للبحار الشرقية، تدفقت السلع التجارية من جديد ـ بعد أن تمكن العثمانيون من البحر الأحمر والخليج العربي، والحافة الجنوبية لشبه الجزيرة العربية ـ واستؤنف تصديرها عبر البحر الأحمر والخليج العربي. واستمر العرب في نقل التوابل بشكل مباشر من الهند وأندونيسيا، ولم تنقطع عمليات تبادل البضائع الهندية مع التجار الأوربيين في أسواق حلب والقاهرة واستنبول وبورصة.

ففي عام ١٥٥٤ على سبيل المثال، اشترى البنادقة ستة آلاف قنطار من التوابل من الاسكندرية، وبلغت مشترياتهم عام ١٥٦٠م اثنا عشر ألف قنطار، هي نفس الكمية التي كانوا يشترونها قبل الاختراق البرتغالي (١٠١).

وهكذا عاد النشاط التجاري إلى البحر الأحمر والخليج العربي، وراح مسلمو سومطرة يصدرون الفلفل إلى القاهرة ودمشق مباشرة، وأخذت البندقية ـ بعد أن تيسر لها الريال الإسباني ـ أن تواصل نقل التوابل من طرابلس الشام،

وبيروت، فاستوردت، بين (١٥٦٠ ــ ١٥٦٤م) من التوابل ما معدله ١١,٧٠٠ قنطار في السنة، إذ ارتفع استهلاك أوربا من التوابل من (١٧,٦٠٠) قنطار عام ١٥٠٠ إلى (٢٧,٠٠٠) قنطار في السنة من هذه الفترة (١٠٢). ويشير إيفانوف إلى أنه في الفترة مابين عامي (١٥٥٤ ــ ١٥٦٤م) كانت تُشحن إلى أوربا عبر سواكن وجدة، وغيرها من مرافئ البحر الأحمر، كميات من التوابل، يتراوح وزنها بين ٢٠ إلى ٤٠ ألف قنطار (= مائة كغ) كل عام (١٠٣).

وقد فرضت الوقائع حالها على البرتغاليين، فأقاموا علاقات تجارية مع التجار المسلمين، واستمر هؤلاء في أعمالهم، في كل أرجاء المحيط الهندي، بعد أن رخص لهم البرتغاليون بذلك، وقد مثل سكان الملايو، ذوي الحنكة التجارية، دوراً هاماً في كل أرجاء الهند الصينية (١٠٤).

ولعل فرنان بروديل قد أفاض في عرض الوثائق التي تثبت بشكل حاسم، أن طريق التوابل القديمة ــ المارة في البرزخ العربي ــ قد عادت إلى كامل نشاطها في الفترة مابين عامي (١٥٥٠ ــ ١٥٧٠م)، وعادت أوربا من جديد باستثناء البرتغال والإسبان، تتموّن بالبهارات المارة بالمشرق العربي.

ويذكر أحد الرحالة الانجليز الذين زاروا البصرة عام ١٥٨٣: " تصل شهرياً إلى ميناء البصرة سفن مختلفة من هرمز، محملة بجميع أنواع البضائع الهندية، كالتوابل والأدوية، وصبغة النيلة والمنسوجات " (١٠٥).

وفي مطلع القرن السابع عشر، أصبح استيراد التوابل عن طريق مسالك الشرق العربي ــ كما يشير روسينيه ــ أرخص وأقل كلفة من طريق رأس الرجاء الصالح (١٠٦). فبقي العثمانيون يحتفظون " بدورهم الأول في التجارة بين أوربا والشرق الأقصى، مزودين الغرب بكميات كبيرة من التوابل، والمخدرات والبلسم، إلى أن استولت هولندا على المحيط الهندي عام ١٦٢٥ " (١٠٧).

هوامش الخطط الكبرى (القسم الثاني):

١ ــ ك.م.بانيكار، آسيا والسيطرة الغربية، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، وزارة الثقافة، دار المعارف بمصر، ١٩٦٢، ص٢٠.

٢ ــ المصدر السابق، ص٢٠.

٣ ــ المصدر السابق، ص٢٠ / ٢١. وراجع: د.غوستاف لوبون، حضارة الهند، ترجمة عادل زعيتر، مطبعة دار الإحياء العربي، ط١، ١٩٤٨، ص٢٤٠.

٤ ــ عمر اسكندري وسليم حسن، تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبل الوقت الحاضر، مطبعة المعارف، القاهرة، ط٦، ١٩٢٤، ص٧٥.

٥ ــ محمد حمدي علي، كتاب الاكتشافات الجغرافية، ط١، المطبعة الجمالية، القاهرة ١٩١٣، ص١٠.

٦ ــ عبد العزيز محمود الشناوي، أوربا في مطلع العصور الحديثة، ج١، دار المعارف بمصر، ١٩٦٩، ص١٠٥ / ١٠٦. وراجع أيضاً: عبد المنعم النمر، تاريخ الإسلام في الهند، دار العهد الجديد، مصر، ط١، ١٩٥٩، ص٣٣٣.

٧ ــ ك.م.بانيكار، آسيا والسيطرة الغربية، مصدر سابق، ص٢٣.

٨ ــ المصدر السابق، ص٢٣.

٩ ــ تأليف روسلان موسينيه، تاريخ الحضارات العام، مجلد ٤، إشراف موريس كروزيه، ترجمة: يوسف أسعد داغر، فريد م. داغر، منشورات عويدات، بيروت ١٩٦٦، ص٤٢٢.

١٠ ــ د. عبد العزيز محمد الشناوي، أوربا في مطلع العصور الحديثة، مصدر سابق، ص٨٣. وراجع: عبد القادر أحمد اليوسف، العلاقات بين الشرق والغرب بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر، المكتبة العصرية، بيروت ١٩٦٩، ص٢٦٤.

١١ ــ د. محمد صالح، تاريخ أوربا من عصر النهضة وحتى الثورة الفرنسية، بغداد ١٩٨١، ص١٣٨.

١٢ ــ ك.م. بانيكار، آسيا والسيطرة الغربية، مصدر سابق، ص١٩.

١٣ ــ روسلان موسينيه، تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص٥٣٣

١٤ ــ عبد المنعم النمر، تاريخ الإسلام في الهند، مصدر سابق، ص٣٣٤.

١٥ ــ هربرت فيشر، أصول التاريخ الأوربي الحديث، د. زينب عصمت راشد، د. عبد الرحيم مصطفى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٠، ص٧٩. راجع أيضا: أحمد محمد عبيد بطي، الصراع البرتغالي العثماني في القرن السادس عشر، كتاب ندوة الثقافة والعلوم، ــ ٤ ــ ط ١ ــ، دبي ١٩٩١، ص٤٤.

١٦ ــ جورج كيرك، موجز تاريخ الشرق الأوسط، ترجمة عمر الاسكندري، مركز كتب الشرق الأوسط، القاهرة، دار الطباعة الحديثة، سلسلة ألف كتاب، ١١٤، ص٩٧.

١٧ ــ جورج لوفران، تاريخ التجارة، ترجمة هاشم الحسيني، مكتبة الحياة، بيروت بدون تاريخ، ص٦٦.

١٨ ــ عبد المنعم النمر، تاريخ الإسلام في الهند، مصدر سابق، ص٣٣٣.

١٩ ــ ك.م.بانيكار، آسيا والسيطرة الغربية، مصدر سابق، ص٢٤.

٢٠ ــ المصدر السابق، ص٢٥.

٢١ ــ روسلان موسينيه، تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص٤٢٢.

٢٢ ــ ك.م.بانيكار، آسيا والسيطرة الغربية، مصدر سابق، ص٢٥.

٢٣ ــ المصدر السابق، ص٤٨.

٢٤ ــ تزفيات تودوروف، فتح أمريكا، مسألة الآخر، ترجمة بشير السباعي، سينا للنشر، القاهرة، ط١، ١٩٩٢، ص١٧.

٢٥ ــ المصدر السابق، ص١٧.

٢٦ ــ المصدر السابق، ص١٨.

٢٧ ــ جورج لوفران، تاريخ التجارة، مصدر سابق، ص٦٧.

٢٨ ــ د. عبد العزيز محمود الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج٢، القاهرة ١٩٨٠، ص٨٦٢.

٢٩ ــ أحمد محمد عبيد بطي، الصراع البرتغالي العثماني، مصدر سابق، ص٤٨ /٤٩. راجع أيضاً: جورج حداد، بسام كرد علي، مختصر تاريخ الحضارة الغربية في الأزمنة الحديثة،

ط٢، الآداب هاشمي أخوان، دمشق بدون تاريخ، ص١٧. حيث يقولان: " إن اختراع البوصلة الذي نقله العرب إلى بلاد الغرب، والاعتقاد بكروية الأرض ساهم في حركة الاكتشافات ".

٣٠ ــ د. عبد العزيز السالم، د. أحمد مختار العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية في حوض المتوسط، مؤسسة شباب الجامعة، ج٢، ١٩٩٣، ص١٨٩.

٣١ ــ د. عبد العزيز محمد الشناوي،أوربا في مطلع العصور الحديثة، مصدر سابق، ص١٠١.

٣٢ ــ جورج حداد، بسام كرد علي، مختصر تاريخ الحضارة الغربية، مصدر سابق، ص١٩.

٣٣ ــ أحمد محمد عبيد بطي، الصراع البرتغالي العثماني، مصدر سابق، ص٥٥. راجع أيضا: ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الثاني من المجلد السادس، ترجمة عبد الحميد يونس، ص٥٤. حيث يقول: " كانت أول نتيجة جهود هنري، هي افتتاح تجارة الرقيق... وأبحرت سفنه لتنصّر الأهلين في الظاهر، ولتحصل على الذهب والعاج والعبيد في الواقع ".

٣٤ ــ ول ديورانت، قصة الحضارة، مصدر سابق، ص٩٧.

٣٥ ــ د. عبد العزيز محمود الشناوي،أوربا في مطلع العصور الحديثة، مصدر سابق، ص٩٤.

٣٦ ــ ك.م.بانيكار، آسيا والسيطرة الغربية، مصدر سابق، ص٢٨/٢٧. راجع أيضا: أحمد محمد عبيد بطي، الصراع البرتغالي العثماني، مصدر سابق، ص٥٣.

٣٧ ــ ك.م.بانيكار، آسيا والسيطرة الغربية، مصدر سابق، ص٢٩.

٣٨ ــ أحمد محمد عبيد بطي، الصراع البرتغالي العثماني، مصدر سابق، ص٦٠. وراجع: بانيكار، آسيا والسيطرة الغربية، مصدر سابق، ص٢٩.

٣٩ ــ عمر اسكندري، وسليم حسن، تاريخ مصر من الفتح العثماني...، مصدر سابق، ص٧٦. وراجع: محمد حمدي علي، كتاب الاكتشافات الجغرافية، ط١، مصدر سابق، ص١٤. راجع أيضا: هـ. جـ. ويلز، معالم تاريخ الإنسانية، الكتاب السابع، ص٨٢٨.

٤٠ ــ د. عبد العزيز محمود الشناوي، أوربا في مطلع العصور الحديثة، مصدر سابق، ص ١٠٧. وراجع: بانيكار، آسيا والسيطرة الغربية، مصدر سابق، ص٣٠.

٤١ ــ المصدر السابق، ص٣٠ / ٣١.

٤٢ ــ ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الثاني من المجلد السادس، مصدر سابق، ص٥٦.

٤٣ ــ ك.م.بانيكار، آسيا والسيطرة الغربية، مصدر سابق، ص٣٣.

٤٤ ــ عبد المنعم النمر، تاريخ الإسلام في الهند، مصدر سابق، ص٣٣٥.

٤٥ ــ د. عبد العزيز محمود الشناوي،أوربا في مطلع العصور الحديثة، مصدر سابق، ص٨٥. وراجع: د. غوستاف لوبون، حضارة الهند، ترجمة عادل زعيتر، مطبعة دار إحياء الكتاب العربي، ط١، ١٩٤٨، ص٢٣٧.

٤٦ ــ روسلان موسينيه،تاريخ الحضارات العام، المجلد الرابع، مصدر سابق، ص٦٠٠/ ٦٠١.

٤٧ ــ المصدر السابق، ص٦٠٢.

٤٨ ــ جورج فضلو، العرب والملاحة في المحيط الهندي، ترجمة السيد يعقوب بكر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، بدون تاريخ، ص٢٤٨.

٤٩ ــ أحمد محمود الساداتي، تاريخ المسلمين في شبه الجزيرة الهندية وحضارتها، ج١، الإدارة الثقافية في وزارة التربية، مكتبة دار الآداب، مصر، بدون تاريخ، سلسلة ألف كتاب ــ ١٥٨ ــ ص٢٠٩. راجع أيضا: عزيز أحمد، الهند، تراث الإصلام، القسم الأول، تصنيف شاخت وبوزورث، ترجمة محمد زهير السمنهوري، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٧٨ ، ص٢٠٠. راجع أيضا: د. غوستاف لوبون، حضارة الهند، مصدر سابق، ص٢٢٢.

٥٠ ــ أحمد محمود الساداتي، تاريخ المسلمين...، مصدر سابق، ص٢١٠ ــ ٢١١.

٥١ ــ ستانلي لين بول، الدول الإسلامية، محمد صبحي فرزات، مكتبة الملاح، دمشق ١٩٨٤، ص٦٨٨. راجع أيضا: عزيز أحمد، الهند، تراث الإصلام، مصدر سابق، ص٢٠٣. راجع: غوستاف لوبون، حضارة الهند، مصدر سابق، ص٢٢٣.

٥٢ ــ د. جلال يحيى، تاريخ العلاقات الدولية..، مصدر سابق، ص٢٦١ / ٢٦٢.

٥٣ ــ روسلان موسينيه، تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص٦٠٥.

٥٤ ــ ك.م.بانيكار، آسيا والسيطرة الغربية، مصدر سابق، ص٣٥.

٥٥ ــ عبد المنعم النمر، تاريخ الإسلام في الهند، مصدر سابق، ص٣٣٦.

٥٦ ــ ك.م.بانيكار، آسيا والسيطرة الغربية، مصدر سابق، ص٣٦.

٥٧ ــ المصدر السابق، ص٣٦ / ٣٧.

٥٨ ــ عبد المنعم النمر، تاريخ الإسلام في الهند، مصدر سابق، ص٣٣٧.

٥٩ ــ ك.م.بانيكار، آسيا والسيطرة الغربية، مصدر سابق، ص٤٠.

٦٠ ــ أحمد محمد عبيد بطي، الصراع البرتغالي العثماني، مصدر سابق، ص٧٧.

٦١ ــ ك.م.بانيكار، آسيا والسيطرة الغربية، مصدر سابق، ص٤٢.

٦٢ ــ المصدر السابق، ص٤٢.

٦٣ ــ د. محمد رزق سليم، قانصوه الغوري، سلسلة أعلام العرب ــ ٥٢ ــ الدار المصرية للتأليف والنشر، القاهرة، بدون تاريخ، ص١١٣.

٦٥ ــ قطب الدين النهرواني، البرق اليماني في الفتح العثماني، دار اليمامة، الرياض، ١٩٦٧، ص١٨.

٦٦ ــ صبحي وحيدة، المسألة المصرية، مكتبة مدبولي، القاهرة، بدون تاريخ، ص١٢٨. وراجع: أحمد محمد عبيد بطي، الصراع البرتغالي العثماني، مصدر سابق، ص٩٥. حيث يقول: "أرسل الغوري رسالة شديدة اللهجة، إلى كل من البابا والملك عمانويل، يطلب منهما منع المسيحيين من الملاحة في البحر العربي، ويهدد بقتل جميع المسيحيين في مصر ".

٦٧ ــ عبد المنعم النمر، تاريخ الإسلام في الهند، مصدر سابق، ص٣٣٧.

٦٨ ــ عبد الكريم محمود غرايبه، مقدمة تاريخ العرب الحديث، جامعة دمشق ١٩٦٠، ص١٢. راجع أيضا: رضوان السيد، القوى البحرية العثمانية والصراع على المحيط الهندي، بالمير أبروميت، الاجتهاد، العددان السادس والعشرون والسابع والعشرون سنة سابعة ١٩٩٥.

٦٩ ــ عبد المنعم النمر، تاريخ الإسلام في الهند، مصدر سابق، ص٣٣٨.

٧٠ ــ عبد القادر أحمد يوسف، العلاقات بين الشرق والغرب من القرن الحادي عشر إلى الخامس عشر، المكتبة العصرية، بيروت ١٩٦٩، ط١، ص٢٥٨.

٧١ ــ هناك من يعزي التراجع المملوكي لخيانة حاكم ديو فقط، راجع في هذا: ك.م.بانيكار، آسيا والسيطرة الغربية، مصدر سابق، ص٤٣ / ٤٤. ومنهم من يعزيها للخيانة والهزيمة معاً، راجع: عبد المنعم النمر، تاريخ الإسلام في الهند، مصدر سابق، ج١، ص٣٣٨. راجع

أيضا: أحمد محمد عبيد بطي، الصراع البرتغالي العثماني، مصدر سابق، حيث يؤكد مع ابن إياس: " تمكن الأسطول البرتغالي من إنزال هزيمة ساحقة بالمماليك وحلفائهم عام ١٥٠٩ " ص١٠٤.

٧٢ ــ أحمد محمد عبيد بطي، الصراع البرتغالي العثماني، مصدر سابق، ص١٠٥.

٧٣ ــ ك.م.بانيكار، آسيا والسيطرة الغربية، مصدر سابق، ص٤٧. وراجع: عبد المنعم النمر، تاريخ الإسلام في الهند، مصدر سابق، ص٣٣٩. حيث يقول: " وكان البرتغاليون قد استطاعوا بمساعدة الهندوس (المراهتا)، وفي مملكة (فيجايانكر) أن يستولوا على (جوا) سنة ١٥١٠، وكانت في آخر أملاك عادل شاه ".

٧٤ ــ مانوراما موداك، الهند شعبها وأرضها، ترجمة العميد محمد عبد الفتاح ابراهيم، مؤسسة فرانكلن، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٤، ص٥٨.

٧٥ ــ د. مصطفى سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ط٢، ص٤٠٦.

٧٦ ــ ول ديورانت، قصة الحضارة، د. عبد الحميد يونس، الجزء الثاني من المجلد السادس، مصدر سابق، ص٥٧.

٧٧ ــ عن: أحمد محمد عبيد بطي، الصراع البرتغالي العثماني، مصدر سابق، ص٨٩.

٧٨ ــ د. رضوان السيد، القوى البحرية العثمانية والصراع على المحيط الهندي، بامير، أبروميت، مصدر سابق، ص٣٧٠.

٧٩ ــ المصدر السابق، ص٣٦٤.

٨٠ ــ عن: عبد الكريم محمود غرايبه، مقدمة تاريخ العرب الحديث، مصدر سابق، ص١٩. راجع: أحمد محمد عبيد بطي، الصراع البرتغالي العثماني، مصدر سابق، ص١١١.

٨١ ــ قطب الدين النهرواني، البرق اليماني في الفتح العثماني، مصدر سابق، ص٣٨ / ٣٩. حيث يقول: "كانت الفرنجة تكمن في جبل كمران، ويتخطفون المسلمين من السواحل، وينهبون مايقدرون على نهبه، فلما وصل الريس دفع ضررهم... ونظف سواحل اليمن منهم".

٨٢ ــ أحمد محمد عبيد بطي، الصراع البرتغالي العثماني، مصدر سابق، ص٢٥٧.
٨٣ ــ نيقولا إيفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية، يوسف عطا الله، الفارابي،بيروت ١٩٨٨، ص٩٠.
٨٤ ــ أحمد محمد عبيد بطي، الصراع البرتغالي العثماني، مصدر سابق، ص١٩٠.
٨٥ ــ محمد بن أبي السرور البكري الصديقي، المنح الرحمانية في الدولة العثمانية، تقديم وتحقيق وتعليق د. ليلى الصباغ، دار البشائر، دمشق، ط١، ١٩٩٥، ص١٤٦ ــ ١٤٨. إذ يعرض الأمر كالتالي: " لما بلغ المرحوم السلطان سليمان استيلاء الفرنج على بلاد الهند، وعجز أهل الهند عن مقاومتهم، بحيث أنهم غدروا بالسلطان السعيد صاحب كجرات، وهو السلطان بهادر شاه، فقتلوه فتحركت عند ذلك حميته على الإسلام، وأمر بترتيب عمارة من مصر ".
٨٦ ــ ك.م.بانيكار، آسيا والسيطرة الغربية، مصدر سابق، ص٥٠ / ٥١.
٨٧ ــ محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، مطبعة التقدم بشارع محمد علي، مصر، ط٣، ١٩١٢، ص١٠٠ / ١٠١.
٨٨ ــ محمد بن أبي السرور البكري الصديقي، المنح الرحمانية في الدولة العثمانية، مصدر سابق، ص١٤٩. حيث ينعت (سليمان باشا الخادم) حرفياً: " كان سفاحاً ".
٨٩ ــ أحمد محمد عبيد بطي، الصراع البرتغالي العثماني، مصدر سابق، ص١٦١.
٩٠ ــ نيقولا إيفانوف، الفتح العثماني...، مصدر سابق، ص١١٦.
٩١ ــ مصطفى السالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مصدر سابق، ص٤٣٥.
٩٢ ــ د. عبد العزيز محمود الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج٢، مصدر سابق، ص٨٦٢.
٩٣ ــ أحمد محمد عبيد بطي، الصراع البرتغالي العثماني، مصدر سابق، ص١٨١.
٩٤ ــ روسلان موسينيه، تاريخ الحضارات العام، مجلد رابع، مصدر سابق، ص٦٠٨.
٩٥ ــ أحمد محمد عبيد بطي، الصراع البرتغالي العثماني، مصدر سابق، ص١٩٥. وراجع: نيقولا إيفانوف، الفتح العثماني...، مصدر سابق، ص١٩٢.

٩٦ ـ نيقولا ايفانوف، الفتح العثماني..، مصدر سابق، ص١٩٤

٩٧ ـ د. مصطفى السالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مصدر سابق، ص٤٣٥.

٩٨ ـ ك.م.بانيكار، آسيا والسيطرة الغربية، مصدر سابق، ص٤٦.

٩٩ ـ د. عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون، ط١، مكتبة طلس، دمشق ١٩٧٤، ص١١٨.

١٠٠ ـ جورج كيرك، موجز تاريخ الشرق الأوسط، مصدر سابق، ص٩٩. راجع ايضا: جورج لوفران، تاريخ التجارة، مصدر سابق، ص٧٨. حيث يقول: " وقد دلت بعض الأعمال، إنه بقي طيلة القرن السادس عشر طريق برية للأفاوية من هرمز (= الخليج) إلى حلب، كما إن صناعة الجوخ بقيت مستمرة ".

١٠١ ـ راجع: أحمد محمد عبيد بطي، الصراع البرتغالي العثماني، مصدر سابق، ص٢٣١ / ٢٣٢. وراجع أيضا: نيقولا ايفانوف، الفتح العثماني...، مصدر سابق، ص١٧٤.

١٠٢ ـ روسلان موسينيه، تاريخ الحضارات العام، مجلد رابع، مصدر سابق، ص٦٠٩.

١٠٣ ـ نيقولا ايفانوف، الفتح العثماني...، مصدر سابق، ص١٧٤.

١٠٤ ـ روسلان موسينيه، تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص٥٤٣.

١٠٥ ـ أحمد محمد عبيد بطي، الصراع البرتغالي العثماني، مصدر سابق، ص٢٣٢.

١٠٦ ـ روسلان موسينيه، تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص٦١٠.

١٠٧ ـ نيقولا ايفانوف، الفتح العثماني...، مصدر سابق، ص١٧٤.

الفصل السادس

تبادل الصور

١ ـ الصورة العربية ـ الإسلامية عن أوربا المسيحية:

ظل التصور الإسلامي أكثر وضوحاً للمسيحية، بحكم إقراره بأن المسيحية دين كتاب، وبحكم الجوار مع بيزنطة، وتداخل العلاقات، على تفاوت تطورها مع الزمن: الاقتصادية، والسياسية والحربية أيضاً. أكثر من الصورة التي كونها الأوربيون (الفرنجة)، الذين كانت خبراتهم مجزأة، ومعلوماتهم عن المسلمين ـ حسب تعبير أندريه ميكل ـ إرباً، إرباً (١).

ويمكن القول، إنه بقي يحكم نظرة المسلمين، علماء وعامة، إلى أوربا، حتى القرن السابع عشر، مانجده عند المسعودي (٣٤٦هـ) في (مروج الذهب) و (التنبيه والإشراف) حيث ينطلق، بخلاصته العامة تجاه أوربا، من التصور الكلاسيكي لجغرافية العالم، والمتأثرة بنظرية بطليموس، الذي يقسم الأرض إلى أقاليم.

فبالإضافة إلى تقسيمه السباعي للأرض، فالمسعودي يرجع ويقسم المعمورة إلى أربعة أرباع، حسب جهاتها: شرق وغرب، شمال وجنوب. وهو يعتبر الأقليم الأوسط (الرابع) الذي تقع عليه الديار العربية ـ الإسلامية خير الأقاليم وأكثرها اعتدالاً ومدنية، فهو يتوسط العالم وتتوزع حوله، جنوباً، المناطق الحارة، ثم الأكثر حرارة، وحوله، شمالاً، تتوضع الأقاليم الباردة، ثم الأكثر برودة، وعليها تعيش شعوب الفرنجة " وهم الذين بعدت الشمس عن سمتهم الواغلين في الشمال، كالصقالبة، والفرنجة، ومن جاورهم من الأمم، فإن سلطان الشمس ضعف عندهم لبعدهم عنها، فغلب على نواحيهم البرد، وتبلدت أفهامهم، وثقلت ألسنتهم وابيضّت ألوانهم، ومن كان أوغل في الشمال، فالغالب عليهم الغباوة، والجفاء والبهائمية، وتزايد ذلك في الأبعد والأبعد إلى الشمال " (٢).

ولم يكن لدى (المقدسي) (٣٩٥ هـ) ـ الذي لايختلف عن المسعودي في نظرته العامة للمعمورة ـ أي شغف بمعرفة أوربا، أو أي شعور بضرورة تلك المعرفة، فهو الذي يفيض بالحديث ـ في كتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) ـ عن الديار الإسلامية، التي يقسمها إلى أربعة عشر إقليماً، لايجد الكثيرليقوله عن حقيقة أوربا، أو مايحفزه لذلك " لم نتكلف [الحديث عن] ممالك الكفار لأننا لم ندخلها، ولم نر فائدة في ذكرها " (٣).

نفس النظرة التبخيسية الاستصغارية لأوربا، تحكمت بوجهة نظر (صاعد بن أحمد الأندلسي) قاضي طليطلة، فشعوب الفرنجة " شبيهة بالبهائم منهم بالناس... فشى فيهم العمى والغباوة، كالصقالبة، والبلغر، ومن اتصل بهم " (٤).

الإدريسي، الذي قبل ضيافة روجر الثاني ملك صقلية النورماندي، يعطينا تصوراً أكثر قرباً من الواقع عن فرنسا، وألمانيا، واسكتلندة (٥)، وإن بقيت الصورة التقليدية عن موقع أوربا تتحكم بتخيلاته العامة.

الاجتياح (الصليبي) للأرض العربية، وماترافقه من تدمير وقتل ومرارة، سيؤكد على جدية الخطر الفرنجي، وعلى تأكيد التعامل معهم كأعداء، وسيدفع بروح العداوة والبغضاء تجاههم إلى حدودها القصوى، والتي كان من نتائجها، دَفْعُ العرب ـ المسلمين إلى الانكفاء على الذات دون التطلّع نحو معرفة الآخر.

الحرب نفسها، وإقامة الفرنجة في مستعمراتهم، في المشرق، مع ماصاحب ذلك من اختلاطات هائلة، واحتكاك مباشر للرجال، والمحاربين، والأسرى، لن يزيد هذا في وضوح الرؤية، بل سيزيدها اختلاطاً وتحيزاً. اقتصرت صر الآراء والصور الملتقطة عن العدو، على وميض من المعرفة،

والآراء والتخيلات التجزيئية، إلا أنها تكفي لتعزيز الثقة بالذات واستصغار الآخر. وخير مثال على ذلك، تجربة الأمير العربي (ابن منقذ) الذي كان على تماس مباشر بهم، فهو لاينكر بعض الميزات الإيجابية في الفرنجة، كالشجاعة، إلا ليلح على تخلفهم وبؤسهم الثقافي والأخلاقي والعلمي: " انظروا في الاختلاف العظيم: مافيهم غيرة ولانخوة، وفيهم الشجاعة العظيمة " (٦). ويشير إلى تخلف سلوكهم المدني، خاصة الذين لم يتأثروا بمعاشرتهم المسلمين " من الإفرنج قوم تبلدوا [= تكيفوا ـــ مني] وعاشروا المسلمين، فهم أصلح من القريبي العهد ببلادهم، ولكنهم شاذ لايقاس عليه " (٧). ويحدثنا عن الطابع البدائي لمحاكماتهم، وبؤس طرائقهم الطبية المتخلفة (٨).

الصدمة الصليبية المدمرة، والنجاح العربي ـــ الإسلامي في استيعابها وهزيمتها عسكرياً، لن تترك في النهاية سوى المرارة، وشعور خفي بالتفوق عند المسلمين (٩).

ماتغير الموقف (الإدراكي) الإسلامي من أوربا، عقب الحروب الصليبية، وماتبدل، يغلفه الثقة بالذات، واستصغار الآخر. في كتابيّ أبي الفداء (٧٣٢ هـــ) (المختصر في تاريخ البشر، وتقويم البلدان) نجد معلومات لابأس بها عن بريطانيا، وعلاقتها بفرنسا، وألمانيا، وايرلندة. والعمري (٧٤٩ هـــ) أيضاً في (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) يخبرنا عن حقيقة العلاقات السياسية الأوربية، وعن إسبانيا وبروفنس وصقلية والبندقية وبيزا وفلورنسا، وعن تعاظم دور فرنسا الأوربي (١٠) إلا أن هذا لن يعدل من طريقة إدراكهما لأوربا المسيحية.

لخص ابن خلدون (١٣٣٢ ـــ ١٤٠٦م) الذي عاش حتى مشارف القرن الخامس عشر، وجهة النظر العربية ـــ الإسلامية تجاه أوربا، وأظهر عدم

اكتراثه بعالم الفرنجة، فهذا الرجل الذي " يعتبر أحد أكبر الشخصيات في الإسلام، بل في تاريخ البشرية، لم يكرس للأراضي الأجنبية شمال بلاده وجنوبها، أي أوربا المسيحية، وإفريقيا السوداء، إلا بضعة أسطر في تاريخه الكوني " (١١).

وبقي ابن خلدون محافظاً على النظرة التخيّلية نحو أوربا، التي تكرست عند الجغرافيين والمؤرخين المسلمين. والتي قسمت المعمورة إلى أقاليم سبعة، يقع العالم العربي ــ الإسلامي في موقع القلب منها، أي الإقليم الرابع، وكلما ابتعدنا عن هذا الإقليم جنوباً: الثالث، الثاني، الأول، ابتعدنا عن الحضارة، ومن الجهة الأخرى، كلما توغلنا شمالاً: الخامس، السادس، السابع، ابتعدنا عن هذه الحضارة أيضاً. فقط في الإقليم الثالث جنوباً، والإقليم الخامس شمالاً، وهو الإقليم الذي تقع فيه اليونان، وروما، وبلاد الأندلس، وصقلية، ولمحاذاته قلب العالم: الإقليم الرابع، نشاهد فيه معالم الحضارة. وابن خلدون يعتبر وجود المسيحية في هذا الإقليم وبلدانه أحد معالم هذه الحضارة والثقافة، متابعاً بذلك الموقف الإسلامي المتفهم للمسيحية كدين، ويختفي هذا المعلم الحضاري ــ حسب ابن خلدون ــ كلما توغلنا شمالاً.

ونحن سنبسط هنا نصاً مطولاً لابن خلدون، يكثف فيه وجهة نظره الإدراكية حول أوربا والعالم: " اعلم أن الحكماء قسموا هذه المعمورة.. على سبعة أقسام، من الشمال إلى الجنوب، يسمون كل قسم إقليماً " (١٢).

".... ولما كان الجانبان من الشمال والجنوب متضادين من الحر والبرد، وجب أن تتدرج الكيفية من كليهما إلى الوسط، فيكون معتدلاً، فالإقليم الرابع أعدل العمران من كليهما، والذي حافاته من الثالث والخامس أقرب إلى الاعتدال، والذي يليهما الثاني والسادس بعيدان عن الاعتدال، والأول والسابع أبعد بكثير. فلهذا

كانت العلوم والصنائع والمباني والملابس والأقوات والفواكه، بل والحيوانات، وجميع مايتكون في هذه الأقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال، وسكانها من البشر أعدل أجساماً وألواناً، وأخلاقاً وأدياناً، حتى النبؤات (= من النبوة) فإنما توجد في الأكثر فيها، ولم نقف على خبر بعثة (= نبوية) في الأقاليم الجنوبية ولا الشمالية. وذلك الأنبياء والرسل إنما يختص بهم أكمل نوع في خَلقِهم وأخلاقهم، قال تعالى: (كنتم خير أمة أُخرجت للناس) وذلك ليتم القبول بما يأتيهم به الأنبياء من عند الله. وأهل هذه الأقاليم أكمل لوجود الاعتدال لهم، فتجدهم على غاية التوسط في مساكنهم، وأقواتهم، وصنائعهم، يتخذون البيوت المنجدة بالحجارة المنمقة بالصناعة، ويتناغون في استجادة الآلات والمواعين، ويذهبون في ذلك إلى الغاية، وتوجد لديهم المعادن الطبيعية من الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص والقصدير.

ويتصرفون في معاملاتهم بالنقدين العزيزين، ويبعدون عن الانحراف في عامة أحوالهم، وهؤلاء أهل المغرب والشام والحجاز واليمن والعراقين والهند والسند والصين وكذلك الأندلس. ومن قرب منهما من الفرنجة والجلالقة والروم واليونانيين، ومن كان مع هؤلاء أو قريباً منهم في هذه الأقاليم المعتدلة، ولهذا كان العراق والشام أعدل هذه كلها لأنها وسط من جميع الجهات.

أما الأقاليم البعيدة عن الاعتدال مثل الأول والثاني والسادس والسابع، فأهلها أبعد من الاعتدال في جميع أحوالهم. فبناؤهم بالطين والقصب، وأقواتهم من الذرة والعشب، وملابسهم من أوراق الشجر يخصفونها عليهم، أو الجلود، وأكثرهم عرايا من اللباس، وفواكه بلادهم وأدمها غريبة التكوين مائلة إلى الانحراف، ومعاملاتهم بغير الحجرين الشريفين من نحاس أو حديد

أو جلود.. وأخلاقهم مع ذلك قريبة من خلق الحيوانات العجم، ويبعدون عن الإنسانية بمقدار ذلك، وكذلك أحوالهم في الديانة، فلايعرفون نبوة، ولايدينون بشريعة إلا من قرب منهم من جوانب الاعتدال، وهو في الأقل النادر مثل الحبشة المجاورين لليمن الدائنين بالنصرانية، فيما قبل الإسلام... مثل أهل مالي وكوكو والنكرور المجاورين لأرض المغرب الدائنين بالإسلام لهذا العهد (...) ومثل من دان بالنصرانية من أمم الصقالبة والإفرنجة والترك من الشمال... ومن سوى هؤلاء من أهل تلك الأقاليم المنحرفة جنوباً وشمالاً، فالدين مجهول عندهم، والعلم مفقود بينهم، وجميع أحوالهم بعيدة من أحوال الأناسي قريبة من أحوال البهائم* ويخلق مالاتعلمون " (١٣).

بالإضافة للأحكام العامة التي صاغها ابن خلدون عن الأقاليم الشمالية، فإنه يحدثنا بعبارة قصيرة، ولكنها معبرة جداً، عن نمو الحال الثقافي في بلاد الفرنجة: " وبلغنا لهذا العهد، أن هذه العلوم الفلسفية ببلاد الإفرنج من أرض رومه وما إليها من العُدوَةِ الشمالية نافقة الأسواق، وأن رسومها هناك متجددة، ومجالس تعليمها متعددة، ودواوينها جامعة ومتوفرة، وطلبتها مُتكثرة، والله أعلم بما هنالك، وهو يخلق مايشاء ويختار " (١٤).

في مطلع القرن السادس عشر، كان لايزال (ابن إياس) ينطلق في أحكامه عن أوربا، من مخزون معلومات القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري)... ففي الوقت الذي كانت فيه السفن البرتغالية، والإسبانية تخترق الأطلسي، طولاً وعرضاً، يؤكد ابن إياس أن المحيط الأطلسي لم يجرؤ أحد على القرب منه (١٥).

---

* خط التشديد من المؤلف.

ورغم تنبيه قطب الدين النهرواني (١٥١١ ــ ١٥٨٢) إلى خطورة الاختراق البرتغالي الذي " كثر في بحر الهند وبنوا... في بلاد الدكن قلعة يسمونها كوتا، ثم أخذوا هرمز... وصارت الإمدادات تترادف عليهم من البرتغال، فصاروا يقطعون الطريق على المسلمين، أسراً ونهباً، ويأخذون كل سفينة غصباً، إلى أن كثر ضررهم على المسلمين، وعمّ أذاهم على المسافرين"(١٦)، إلا أن هذا التنبيه لم يقربه من واقع التبدلات العالمية الكبرى، والميول المتصاعدة للأخطار، ولم يستحوذ على وعي كوني مناسب.

نفس الحال ينطبق على الكاتب والقبطان الكبير (سيد علي) صاحب كتاب (المحيط في علم الأفلاك والأبحر) فعلى الرغم من المعلومات الجديدة التي قدمها عن أوربا، وعن اكتشاف أمريكا، إلا أنه ظل أسير النظرة التقليدية للأقاليم.

وحده عمل (بيري رئيس) بعنوان (البحرية) الذي اعتمد على نسخة لخريطة كولومبس، وأهداه لسليمان القانوني، وحده هذا العمل أحدث انقلاباً في الرؤيا تواكب التطور الحاصل، لكنه ولد يتيماً، وانتهى في ذاكرة الأدراج المكتبية، ولم يعقبه عمل مماثل، وبقيت النظرة التقليدية سائدة يعززها شعور *بالثقة والتفوق يقابلها* استصغار الآخر. بل واستمرت هيمنة مفهوم (الأقاليم) حتى القرن السابع عشر، واستمر الاعتماد على معلومات الإدريسي، والمقدسي، وأبي الفداء، لرسم صورة تخيلية عن أوربا وعن العالم.

لعل مايقوي هذه الاعتقادات، الاطمئنان والثقة المطلقتان بقدرة الدولة المحروسة، وشعور العثمانيين العميق بالاكتفاء الذاتي " مما جعلهم بعيدين عن إدراك التطورات الحقيقية التي كان يتمخض عنها مجتمع جديد في أوربا. ولم تخرج الدولة العثمانية عن عزلتها وتنظر إلى الخارج إلا مع هزيمة ١٦٩٩ الخطيرة النتائج. فاكتشف العثمانيون على نحو يقيني تخلف أجهزتهم العسكرية " (١٧).

وإذا كان المسلمون قد أدركوا، من هزيمة ١٦٩٩، تقدم أوربا، وتميّزها عليهم على صعيد بناء القوة، فإنهم لن يدركوا الفجوة الثقافية الهائلة بينهم وأوربا ــ التي أصبح الآن يُعبر عنها بالغرب بعد الانضمام الأمريكي إلى العالم عبر أوربا ــ إلاً بعد الاختراق النابليوني لمصر في نهاية القرن الثامن عشر.

٢ ــ الصورة التخيلية لأوربا المسيحية عن الإسلام:

أوربا المسيحية المهددة من التوسع الإسلامي، بين القرنين الثامن والعاشر "ستستمد من هذه التجربة الأولى، للاندفاع العربي ــ الإسلامي القوي أسسها الانفعالية لتمثلها للإسلام، ذلك التمثّل المجبول أساساً بالعداوة " (١٨). وكما يقول ادوار سعيد: " ففي مواجهة هذا الاجتياح الفائق لم يكن بوسع أوربا أن تقدم استجابة سوى الخوف والشعور بالرهبة " (١٩). من هنا أصبح يُنظر إلى الإسلام على أنه "إلغاء للمسيحية" وأنه عدو لأوربا "وهكذا جابهت أوربا المسيحية الشرق الإسلامي مجابهة ثقافية ودينية وسياسية وعسكرية"(٢٠).

في هذا الجو من الريبة والعداء والخوف، تكونت رؤية أوربية ــ مسيحية عن الإسلام، تفتحت بذورها من القرن الثامن حتى القرن العاشر ــ تبعاً لرأي جعيط ــ ونضجت في القرن الثاني عشر، وتوسعت وتدفّقت في القرن الثالث عشر والرابع عشر، لتمتد حتى القرن الثامن عشر، وحتى العصر الاستعماري " هذه الرؤية تنطلق من عداء واسع للنبي محمد الذي بـــ " نبوة كاذبة "قد أوقف تطور الإنسانية باتجاه المسيحية"(٢١).

هذه الصورة النمطية عن الإسلام، ستُستعاد بقوة أكبر خلال الحقبة (الصليبية)، ومابعدها، فتنتشر رؤية شعبية تعتبر المسلمين وثنيين، والنبي محمد (ص) ساحراً، وزعيم شعب فاسد (٢٢). وإلى جانب الجنسية (التعلّق بالجنس) التي وصموا بها الإسلام، فهناك أيضاً حب العدوان والقوة، حيث

أقاموا موازنة بين الإسلامَ ودار الإسلام، وبين المسيحية التي تمّ اعتناقها عبر التضحية والفداء ومثالية الرسل (٢٣). وانتشر رأي متأثر بتناول يوحنا الدمشقي (٦٧٥ ـــ ٧٤٩) للإسلام، في معرض رده على الهرطقات المسيحية، حيث توصل إلى " إن الإسلام يؤمن بالله، ولكنه ينكر بعض الحقائق الأساسية في المسيحية " (٢٤) وجعل الرسول تلميذاً للرهبان النساطرة، وأتباع الكاهن آريوس " ليخلص إلى تمييز المسيحية الارثوذكسية عن الآريوسية والنسطورية، وعن هرطقة الإسلام أيضاً (٢٥).

ولعل أحد الضوابط التي أطَّرت آراء المفكرين المسيحيين انطلق من عملية قياسية " مادام المسيح هو أساس العقيدة المسيحية، فقد افترض ـــ بطريقة خاطئة تماماً ـــ أن محمداً كان للإسلام ماكان المسيح للمسيحية. ومن ثم أطلق التسمية التماحكية "المحمدية" على الإسلام. ونعت " المُنتحِل" على محمد. أصبح الإسلام صورة ـــ والكلمة لدانييل ـــ لم تكن وظيفتها أن تمثل الإسلام في ذاته بقدر ما كانت تمثل الإسلام للمسيحي القروسطي " (٢٦).

ولقد كُدست حول شخصية محمد (ص) في العصور الوسطى حزمة من الخصائص التي تطابقت مع "شخصيات أنبياء الروح الحرة، الذين ظهروا في أوربا، وجمعوا وراءهم أتباعاً" وبطريقة مشابهة، فما دام محمد قد اعتُبر ناشراً لوحي زائف، فقد أصبح هو كذلك تجسيداً للشبق، والفسق، والشذوذ الجنسي، وسلسلة كاملة من الخيانات المتنوعة التي اشتُقّت جميعاً بصورة (منطقية) من انتحالاته المذهبية " (٢٧).

في القرن الحادي عشر اتحدت التوليفة التخيلية الأوربية عن العالم العربي ـــ الإسلامي، الساراساني (كانوا ينسبون العرب إلى ساره) في وقت بدأت فيه حركة رهبنة (كلوني) المرتبطة بصعود الايديولوجيا البابوية على

حساب التجزؤ الأقصى للإمارات والدول الأوربية، تفتتح نشاطها لصيانة العقيدة المسيحية ولإعدادها لمرحلة الصعود هذه.

الوحدة المسيحية التي تقودها الكنيسة الكاثوليكية، تعززت بعمل مشترك يستهدف استرجاع العالم المتوسطي من العرب ـــ المسلمين، من هنا يذهب رودنسون إلى أنه " ليست الحروب الصليبية هي التي ولدت صورة الإسلام، بقدر ما إن الوحدة الايديولوجية للعالم المسيحي اللاتيني المصهور ببطء، هي التي تفضي، بآن معاً، إلى توضيح صورة العدو وإلى توجيه الطاقات نحو الصليبية " (٢٨).

هذا الاستقطاب للقوى، سهّل تحديد ملامح مناسبة للعدو المثير للسخط، والفضيحة، والدهشة، والنفور، والخوف، فإن كان هذا العدو المسلم بالنسبة للحجاج المسيحيين إلى بيت المقدس، كافراً غير مثير للاهتمام، فهو يتحول في (أغنية رولان) إلى رجال يلتفون حول عبادة محمد وترفاغان وابولون (٢٩).

المواجهة الدامية بين الطرفين، دعّمت هذا النظام في تمثيل الشرق وحولت الإسلام، كما اقترح هنري بيرن.. إلى التجسيد الخالص للذات خارجياً، بنيت نقيضاً له الحضارة الأوربية كلها منذ العصور الوسطى " (٣٠).

وسط المجابهة أثناء الحروب الصليبية، كان كل من الطرفين يرى نفسه صاحب الحق المطلق، ويرى في الطرف الآخر عدواً يتوجب قهره، وليس يجب أن يفهمه "إلا أن ذلك لم يحل بين الأوربيين وإدراكهم لتفوق العرب حضارياً، وقد تطور هذا الإدراك خلال اتصال الأوربيين بالعرب في إسبانيا وصقلية والمشرق في عصر الحملات الصليبية"(٣١).

فلقد كان هناك رجال سياسة وموظفوهم ومخبروهم، وكان هناك جواسيس، وتجار، لهم رأي مختلف، ويعرفون أموراً كثيرة، على سبيل المثال

(وليم الصوري) (٣٢). وكان هناك تماس في عدة نقاط، بيزنطة، طليطلة، صقلية، إلا أن الصورة التخيلية لن تبرح الأذهان، "وستظل معتلَّة لقرون، بالخصومة الايديولوجية التي ستفرض عليها تشويهاتها المعتادة " (٣٣).

فهناك الجمهور الشعبي الشديد الاتساع، يطلب الصورة الأكثر تبسيطاً، والأكثر غرابة " وهكذا فإن المؤلفين اللاتين شرعوا بين ١١٠٠ و ١١٤٠ في تلبية حاجة الجمهور الكبير، وركزوا جهودهم علىحياة محمد، بدون أن يبالوا كثيراً بالصواب أو الدقة... كان محمد ساحراً، دمر الكنيسة في إفريقيا، وفي الشرق بالسحر والخداع، وبإباحته الاختلاط الجنسي"(٣٤).

وإن المعلومات التي حصلوا عليها عن طريق الاحتكاك والتماس المباشر، لاتلبث أن يشوبها الاختلاط والتحيّز وينتهي الأمر إلى أن ينظروا " إلى المسلمين على أنهم قوم وثنيون، يعبدون محمد، أما محمد نفسه فكان الأوربيون يعتبرونه إما ساحراً، أو حتى شيطاناً، ويظنون أن الدين الإسلامي يدعو إلى الإباحة الجنسية " (٣٥).

لعل إدراك الأوربيين (وخاصة الذين يمسكون بزمام الأمر) أن تحطيم الدين الإسلامي بقوة السلاح أمر مستحيل، سيقود إلى محاولة الرجوع مباشرة إلى (النص) الإسلامي والتخلي عن طريقة (التخيل عن بعد) مع الاحتفاظ بجوهر الموقف العدائي، وكان هناك دافع آخر لاهتمام الأوربيين باللغة العربية، وهو الواقع الديني، فقد أرادت الكنيسة الكاثوليكية، التي وحدت غرب أوربا في خضم الحرب الصليبية، أن تحاول تحويل المسلمين إلى المسيحية عن طريق الإقناع، وأن تربط الكنائس الشرقية بروما. وقد توج هذا الاهتمام بالإسلام، سلسلة من الترجمات كان أهمها ترجمة القرآن الكريم إلى اللاتينية، بناء على أوامر (بطرس المبجل) رئيس دير كلوني. وقام بالترجمة الراهب

روبرت الكيتوني، الذي كان يدرس الفلك العربي والرياضيات في إسبانيا.. وكان أول المترجمين إلى اللاتينية للمؤلفات العربية قسطنطين الإفريقي، الذي بدأ ترجماته عام ١٠٧٠.. فأصبحت تلك الترجمات كما يقول (يونغ) بداية لنشاط واسع دام عدة قرون (٣٦).

كرّس (بيدرو دي ألفونسو) الذي كان يهودياً واعتنق المسيحية، إحدى محاولاته لمحاجة الإسلام، وبطلب من (بطرس المبجل) قدم (روبرت الكيتوني، وهرمن الدلماطي) عرضاً شاملاً للعقيدة الدينية الإسلامية، ليقوم هو بدحضها في كتاب آخر " فكان هذان المؤلفان بالإضافة إلى الترجمة التي أوصى بها بطرس المحترم (المبجل) والمعروف باسم ديوان (طليطلة) أو (خلاصة كلوني) أول الأعمال العلمية المحررة باللغة اللاتينية عن الإسلام " (٣٧).

لم تكن مقاصد (بطرس المبجل) دراسة الإسلام بشكل معمق، بل قام بهذا تحت ضغط مشاغل أخرى، فبالإضافة إلى محاولة التأثير على المسلمين، ومشاغل توحيد الكنيسة الشرقية " فقد كان منشغلاً في القرن الثاني عشر بمكافحة الهرطقات اليهودية والإسلامية وواعياً بالأخطار المحيطة بالكنيسة التي تصاعد اللغط حولها، مما سيدفعه إلى تطلب معرفة أكثر عن الإسلام " القصد منها "إعطاء المسيحيين أسباباً جيدة لتوطيد إيمانهم الخاص"(٣٨).

ولقد لعبت (خلاصة كلوني) دوراً هاماً في تكوين التصور الأوربي عن الإسلام، وقد تبنى (بطرس المبجل) بعض تفسيرات علماء اللاهوت البيزنطيين ــ والتي ربما، ترجع إلى تفسيرات يوحنا الدمشقي ــ التي زعمت أن الإسلام أسوأ من الهرطقة، وأن المسلمين يجب أن يصنفوا مع الوثنيين (٣٩).

ويلخص لنا مونتغمري واط المواقف الإدراكية المكونة عن الإسلام حينئذ، في أربع نقاط: الدين الإسلامي كذب وتشويه متعمد للحقيقة، الإسلام

دين العنف والسيف، الإسلام دين الانسياق وراء الملذات الجنسية، محمد هو المسيح الدجال (٤٠).

في خط موازٍ، إن استمرار أعمال الترجمة للمخطوطات العربية ــ الإسلامية، قاد بقوة الأشياء إلى تعلم بعض المعطيات عن الإسلام والمسلمين، واكتشفوا صورة أخرى، ووجهاً آخر للإسلام " مضادة بعنف للصورة التي صنعوها في الإطار الديني، هذا الميدان هو الفلسفة. في سنة ١١٨٠م أنجزت ووضعت قيد التداول في أوربا، أول مجموعة من أعمال ابن سينا الفلسفية، وكان تأثيرها هائلاً " روجيه بيكون ١٢١٤ ــ ١٢٩٢ م، يعلن: " تم تجديد الفلسفة بشكل رئيسي على يد أرسطو باللغة اليونانية، ثم بشكل رئيسي على يد ابن سينا باللغة العربية " إن صورة العالم الإسلامي كمهد لفلاسفة ذوي مدى عملاق، والتي كانت هكذا تتكون عند المفكرين تناقضت بعنف مع صورته كبنية سياسية تسيطر عليها ايديولوجية معادية وضالة.. كان من العسير التوفيق بين هاتين الصورتين.. عند أبيلار (المتوفى ١١٤٢م) كلمة فيلسوف تعني عملياً (مسلم) " (٤١).

في مناخ القرن الثالث عشر، برزت نزعة قوية لتمثُّل المكتسبات العربية في العلوم والفلسفة، وكان ميشيل سكوت وجهاً هاماً لتلك المرحلة. وفي فترة تلاقي القرنين الثالث عشر والرابع عشر، شارف عصر الترجمة العظيم من العربية إلى اللاتينية الى نهايته، كما يقول واط، رغم ظهور بعض الترجمات في القرنين السادس عشر والسابع عشر.. وإن الرياضيات والفلك لم يجدا حتى القرن الثاني عشر مناخهما الملائم... وكان والد دافنشي المقيم في الجزائر استطاع بفضل علاقاته مع العرب أن يعرف أفضلية نظام العدد العربي، فكان للترجمات من العربية والاحتكاكات الشخصية دافع أساسي

لتطور العلوم في أوربا (٤٢) حتى إن العلوم الطبية الأوربية، في القرنين الخامس عشر والسادس عشر كانت مجرد تطور بسيط للعلوم الطبية العربية(٤٣).

المفكرون الأوربيون واجهوا إشكالاً حقيقياً، فقد برزت عندهم مع عصر النهضة الإيطالية، منذ القرن الرابع عشر، علاقة اتسمت بالتناقض والازدواج مع الإسلام، فهناك موقف إيجابي من الفكر الفلسفي والعلمي الإسلاميين، وموقف سلبي وعدائي من الإسلام كدين ونظام اجتماعي وأخلاقي. فاعتبروا الإسلام ضمناً " من خلال فتوحاته العلمية والفلسفية عنصراً أساسياً في تاريخ الفكر، ولكن هذا الاعتراف يقابله من جهة ثانية الرفض باعتباره ديناً وأخلاقاً... ويفصل الغرب الفكر العربي من حكمه على قيمة الإسلام " (٤٤).

ولأنه كان من العسير عليهم التوفيق بين هذين الحكمين على وجهي الإسلام " جرى الانسحاب من هذا الإشكال بافتراض أن الفلاسفة كانوا، بشكل أو بآخر، على خلاف مع الدين الرسمي لبلادهم، وأكدوا أن الفلاسفة يهزؤون سراً بالقرآن، وأن السلطات تضطهدهم"(٤٥).

وليتغلبوا على إعجابهم المؤكد بشخصية صلاح الدين، افترضوا أن فارساً بهذا الكمال لابد أنه اهتدى إلى المسيحية، وإن هذا قد تم فعلاً وهو على فراش الموت، مثلما افترضوا،أصلاً مسيحياً لمسلمين عظام: الزنكي،وقلج أرسلان (٤٦). وقد كرس هذه العلاقة المزدوجة ذات الوجهين بالإسلام (دانتي اليغيري) في (الكوميديا الإلهية).. إذ عكس دانتي في الكوميديا الإلهية موقفاً إيجابياً من الفلسفة الإسلامية وأعلامها، وموقفاً يتسم بالعداء من الإسلام كدين، ومن نبيه محمد (ص) (٤٧). فهو يضع النبي محمد (ص) في الثامنة من دوائر الجحيم التسع، وبعده فقط يأتي المزيفون والخونة وبينهم (بروتس، كاسيس) قبل أن يبلغ الإنسان قعر الجحيم،

حيث يوجد الشيطان ذاته في الدائرة التاسعة. وفي الجهة الأخرى يضع ابن سينا وابن رشد وصلاح الدين، ومعهم هكتور واينياس وسقراط وأفلاطون في الدائرة الأولى من الجحيم، ليقاسوا أقل درجات ممكنة من العقاب، لأنهم لم يُمنحوا نعمة الوحي المسيحي (٤٨).

نواجه عند (توما الإكويني) الموقف المزدوج نفسه، فهو الذي جاء تتويجاً لمسيرة استمرت أكثر من مئة عام، أعطت فيها العلوم والفلسفة العربية ــ الإسلامية نظرة جديدة للعالم، يدرك خطورة وجود الإسلام على حدود المسيحية (٤٩) فكانت فلسفته محتدمة بالسجال ضد الإسلام. وفي الوقت الذي يورد فيه حشداً من الأدلة على صحة المعتقدات المسيحية، يؤكد بعدها " إن الأمر يختلف عن محمد وأضرابه من مؤسسي الشيع والنحل، فبالإضافة إلى الشهوات الجسدية في الإسلام، يشير توما إلى عدم كفاية الأدلة والحجج التي يسوقها محمد " (٥٠). وهو يؤكد لنا تفوق المسيحية على الإسلام، بل تفوقها على آراء الفلاسفة المسلمين: ابن سينا وابن رشد (٥١).

إن كبار المفكرين المسلمين جرى استيعابهم في الثقافة الأوربية، ابن سينا، وابن رشد، والغزالي، لكن مازالت القضية بالنسبة للمفكرين الأوربيين هي مكافحة الإسلام، الطرائق وحدها سوف تختلف، روجيه بيكون ١٢١٤ ــ ١٣٩٤ وريمول لول ١٢٣٥ ــ ١٣١٦، يتحدثان عن نبذ العمل العسكري ضد الإسلام، واعتماد الجهاد التبشيري، ومجمع (فيينا) عام ١٣١٢ م يصادق على أفكار بيكون ولول عن تعلم اللغات ولاسيما العربية (٥٢).

وفي الغرب المسيحي يؤرّخ لبداية تأسيس الاستشراق الرسمي بصدور قرار مجمع فيينا الكنسي عام ١٣١٢ بتأسيس عدد من كراسي الاستاذية في جامعة باريس واكسفورد وبولونيا، وأفينيون، وسلامانكا (٥٣).

شيئاً فشيئاً، ومع تنامي النهضة الأوربية، سيتصاعد معها الشعور الأوربي بالثقة بالذات، والرغبة في تأكيد وإدراك الهوية الثقافية المستقلة عن تأثيرات الثقافة العربية ــ الإسلامية، وسيزداد التأكيد على الموقف المزدوج من الإسلام: فلسفة وعلماً من جهة وديناً وأخلاقاً ونظاماً اجتماعياً من الجهة الأخرى. يقبلون الأول، وينبذون الثاني، إلى أن ينتهي الأمر إلى التقليل من قيمة هذين الوجهين للإسلام، بإبراز الذات الأوربية، بالرجوع إلى الأصول اليونانية دون المرور بالفلسفة والفكر الإسلاميين. ولقد نظر (واط) إلى ميل الأوربيين لإعطاء المذهب الأرسطي المقام الأول في الفلسفة والعلوم على أنه أحد جوانب الطموح الأوربي إلى مواجهة الإسلام (٥٤) وجاء التوجه الأوربي إلى الماضي الكلاسيكي اليوناني والروماني، بشكل عام، ضرباً من إثبات المساهمة الإيجابية الأوربية، أمام طغيان التأثيرات الفكرية والعلمية العربية. وفي قراءة (واط) للكوميديا الإلهية يرى أن دانتي قدَّم إحدى الحلقات في سعي أوربا الحثيث لعزل نفسها عن التأثير العربي ــ الإسلامي. فبالإضافة إلى أنه وضع النبي محمد (ص) في جهنم مع المارقين، فهو يذكر اثني عشر فيلسوفاً يونانياً ورومانياً على عتبة جهنم، ويكتفي فقط بذكر اثنين من المفكرين المسلمين: ابن رشد، وابن سينا (٥٥).

مع تقدم النهضة، وازدياد الثقة بالذات ثقافياً وعلمياً ــ وهذا يواقت المد السياسي العثماني ــ سيذهب بعض المفكرين الأوربيين أبعد، لن يكتفوا بتفضيل اليوناني على العربي، بل سينقلب الإعجاب السابق بكل ماهو عربي إلى نفور واشمئزاز ، من ذلك ماجـــاء في مستهل مؤلفات بيكوديلاميراندولا (١٤٦٣ ــ ١٤٩٤م)، الذي كان على معرفة جيدة بالعربية والآرامية والعبرية " بحق السماء اتركوا لنا فيثاغورث وأفلاطون وارسطو، وخذوا أصحابكم

عمر (= الخيام) وابن زهر وابن راجل..." (٥٦). وفي عام ١٥٣٢، شغر كرسي اللغة العربية في سالاتيك هولندا، وعندما أعرب أحد الأساتذة عن رغبته في شغر الكرسي، أجاب أحد العلماء الإسبان " دعك من هذه اللغة البربرية " (٥٧). ويفصح بترارك (١٣٠٤ ــ ١٣٧٤) بقوة عن قرفه من أسلوب الشعراء العرب الذين لم يكن على الأرجح يعرفهم (٥٨).

عندما سقطت القسطنطينية تحت ضربات العثمانيين ١٤٥٣ ظهرت في أوربا موجة معادية للإسلام وأصبحت صورة المسلم مندمجة بصورة التركي، الذي اعتُبر غازياً سفاكاً للدماء. اختفى العربي من الواجهة، بعد أن طغى على أوربا دغم الإسلام بالأتراك، فبرزت عند البعض صورة مركبة عن الإسلام تتراوح مابين " صورة الشرق المدهش الفتان والشرقي المتوحش للبربري الفظ العنيف، كل هذا مغطى برؤية للإسلام كدين متعصب وعدواني"(٥٩).

وبقيت أوربا ــ في غالبيتها ــ محافظة على عدائها للإسلام، وعلى تمسكها بالصورة التبسيطية، وإن نجاحات الإسلام، مهما تكن كبيرة " فهو ليس سوى قادم جديد سيء التسليح، بدائي، دون إعداد عقائدي، وإن نجاحاته في العالم ليست دليلاً على صحته، ولكنها تحدّ للحقيقة وفضيحة الهية مستمرة " (٦٠).

لكن هذا لايخفي اهتمام بعض النخب الثقافية بما يجري على الطرف الآخر، مع إعجاب مشوب بالخوف والعداوة، علماً أن (الاستشراق) في تلك الفترة (القرن السادس عشر) لم يكن قد تبلور بعد كحقل مستقل متميز، بل كان كفرع تطبيقي في ميدان الدراسات الانجيلية، أو تاريخ الكنيسة في ذروة الإنقسام الكنسي الأوربي (٦١).

بدأت عوامل جديدة من الجانب الأوربي تدخل الميدان: تمزق الوحدة الكنسية لأوربا الغربية، وبروز البروتستانت، الحروب الأهلية، ظهور الدولة

المركزية المشوبة باللون القومي على حساب وحدة المسيحية الكاثوليكية أحياناً. وعلى الرغم من التقدم العثماني، فرنسوا الأول يمد يده إلى سليمان القانوني، ولوثر يتشفى بهزيمة الامبراطور شارل الخامس الكاثوليكي أمام سليمان على جبهة المجر، " واليزابيت ملكة انجلترا تفضح للسلطان العثماني ملك إسبانيا بوصفه رئيساً لعبادة الأوثان " (٦٢) والجميع مستعد، عند اللزوم، لطلب قدوم العثمانيين " وشدة الأحقاد الدينية داخل المسيحية نفسها، كانت تُظهر الإسلام كحالة أقل غرابة وأقل تنفيراً.. وتصبح المنظومة السياسية والإدارية والعسكرية للامبراطورية العثمانية موضوعاً لتأملات، غالباً ماتكون نقدية، لكن أيضاً كثيراً ماتبدي إعجابها بفعالية المنظومة وجدواها"(٦٣).أمام الفوضى الأوربية المفتوحة على الحروب المذهبية.

وعلى الرغم من حذر أوربا من الخطر العثماني السياسي، وإعجاب بعض فئاتها بالأنظمة العثمانية، فإن الأوربيين أخذوا يحسون كيف أن السبق الثقافي أصبح يتحول إلى جانبهم، حتى أن (مارتن لوثر) تهكم على تصورات القرون الوسطى الأوربية حول الإسلام، ورفض فكرة الحروب الصليبية "ونادى بدلاً من ذلك بوجوب موقف صبور متسامح مع الأتراك، لأنه رأى فيهم عقوبة ربانية عادلة بسبب خطاياهم وذنوبهم " (٦٤).

وفي حمّى المجادلات المذهبية داخل المسيحية، استخدم كلا الطرفين، البروتستانت والكاثوليك، الإسلام كتهمة أو مسبة ضد الآخر، فلوثر نفسه كان أول من صاغ " نموذجاً " نمطياً جديداً للموقف من الإسلام، مستخدماً إياه كنموذج سلبي في جداله المذهبي مع الكاثوليك، وكانوا أحياناً، يرجعون إلى مبادئ الإسلام في مناظراتهم اللاهوتية ومن أجل استخدامها كوسيلة للتشنيع في الخصوم المذهبيين " ولقد رأى البروتستانت في الإسلام، وبالتالي في

الكاثوليكية " عملاً بدون إيمان" أما الكاثوليك بدورهم فقد اتهموا الإسلام في أثناء مجادلاتهم المضادة للبروتستانتية بأنه يجسد الإيمان بلا عمل " (٦٥).

وبالإضافة للانقسام الكنسي، فقد " أيقظ الزحف العثماني الاهتمام بالدين الإسلامي في الدوائر اللاهوتية. جان دي سينوفيا (١٤٠٠ ــ ١٤٥٨) نشر عام ١٤٥٤ مشروع سلسلة من المداولات مع الفقهاء المسلمين، وقام بترجمة القرآن يتجنب فيها خطيئة الترجمة الكلونية"(٦٦).

المبادرة الأكثر أهمية ــ حسب جورافسكي ــ في هذه المرحلة، في أواسط القرن السادس عشر، ستأتي عن طريق الفرنسي غليوم بوستيل الذي قام بتدريس اللغات الشرقية، بما فيها العربية في الكوليج دي فرانس (٦٧)، وأخذ الاهتمام بالدراسات الإسلامية يتبلور على يدي هذا العالم غليوم بوستيل (١٥١٠ ــ١٥٥٨) الذي أرسله ملك فرنسا فرنسوا الأول للبحث عن المخطوطات الشرقية، ثم نشر بوستيل عام ١٥٣٩ كتاب " القواعد العربية " وهو أول كتاب في قواعد اللغة العربية الفصحى ينشر في الغرب. شرح بوستيل في مقدمته الأسباب التي من أجلها على الأوربي أن يتعلم اللغة العربية:

"...١ ــ كتب الطب العربية هي أفضل المتوفر من الكتب.

٢ ــ صلاحية اللغة العربية لمجادلة أعداء الدين المسيحي.

٣ ــ اللغة العربية مفتاح أدب غني.

٤ ــ تتيح اللغة العربية لمن يتكلمها أن يتصل بأكبر عدد من الشعوب، من المغاربة حتى الأتراك " (٦٨).

إذا دققنا في الدواعي ــ التي وضعها بوستيل ــ لتعلم اللغة العربية فإننا نتأكد من بقاء ازدواجية النظرة إلى الإسلام، في القرن السادس عشر، فهناك مايثير التطلّع إلى الفائدة، وهناك مايبعث على الضغينة.

وعلى الرغم من تنامي الثقة بالذات الثقافية والدينية الأوربيتين، بقيت الازدواجية تحكم الوعي الأوربي من الإسلام، وإن أخذت شكلاً جديداً. فالمسيحي الأوربي ــ في القرن السادس عشر، تمثل المسلم أول ما تمثله " في هذا التركي الذي أصبح مفزعة الغرب، أليس الأتراك شراً من الذئاب في كل مايصنعونه، وهل من عجب إذا ما اتخذ الله من السلطان العثماني سوطاً لتأديب المسيحيين، أسوة بما فعله باليهود عندما أهملوا شريعة الله... ثم أوليس المسلم هو الشرقي الذي يقف مع الأوربيين على طرفي نقيض ؟ هذا المسلم الذي تميز بالختان، ولايأكل لحم الخنزير، ولحم أي حيوان آخر لم يذبح بيد مسلم، هذا الشرقي الذي يمضي في كتابته من اليمين إلى اليسار، والذي يضع في مقدمة كتابه والفصل الأول منه من حيث نهاية الكتاب عند الأوربيين، هذا الإنسان الذي يبول مقرفصاً كالنساء والذي يجلس القرفصاء، والذي لايشعر بأي حياء فيرسم عندما يجثو حركة يشمئز منها الأوربي لأنها تنم عن العبودية، والذي يخلع حذاءه عندما يدخل المنزل، والذي يزهو بثوبه الفضفاض... فالمسلم هو نقيض الأوربي، والإسلام نقيض أوربا، فالمسلم هو من خَرجَ على المسيحية وسبب للمسيحي الهلاك الأبدي " (٦٩).

ومن الجهة الأخرى، لايمكن إنكار الجاذبية التي مارسها الإسلام على قطاع من المسيحيين الأوربيين، خلال الأزمة الروحية التي عاشتها أوربا أثناء الإصلاح الديني وما أعقبه من انقسام وحروب مذهبية، وخلال حقبة نهوض الدولة العثمانية، وتوهج ألقها، حتى إن هناك من تحدث ــ أمثال إيفانوف، وبروديل ــ عن حركة ارتداد واسعة من المسيحية إلى الإسلام شهدها القرن السادس عشر. فقد رأى المسيحي في الإسلام عناصر كثيرة مألوفة لديه ــ كما يقول موسينيه ــ " الوحي المتوارث على ألسنة أنبياء

أوحى الله إليهم به، كتاب موحى هو القرآن الكريم، الذي كان في نظر النبي تتمة للتوراة والإنجيل، وتفسير لنشوء الكون، فيه قصة الخلق، والخطيئة، والسقوط، والملائكة.. ويوم الحساب والجنة والجحيم. كل هذه العناصر مألوفة لدى المسيحي.. وهو لايجد نفسه غريباً في محيط كهذا الواقع.. وقد ظهر الإسلام للمسيحي والزنجي والآسيوي بسمو متعالٍ، ولاسيما بنظرته إلى الله.. هو (الإسلام) يقول بوحدانية الله، بينما المسيحي يقول بالثالوث، وبوحدة الجوهر في ذات الله بثلاثة أقانيم.. وهي عقيدة يبقى العقل حائراً حيالها.. على عكس ذلك جاءت العقيدة الأساسية للإسلام التي أكدت على وحدانية الله (لاإله إلا الله) وكبرة الكبائر هي من يقول بأن لله شريكان، وهذه هي خطيئة المسيحية الكبرى في نظر الإسلام " (٧٠).

نتساءل عن السر الذي يكمن وراء هذا الانحراف في الوعي والإدراك الأوربيين، طوال هذه المدة الطويلة، الممتدة حتى نهاية القرن السادس عشر، فكان من نتيجتها هذه المجموعة التخيلية من الأفكار، والصور والأقاويل التي بقيت على مسافة من حقيقة الإسلام والمسلمين لم تقدر على اجتيازها !

هل يكفينا سرد الجوانب الموضوعية (البرانية) التي دفعت إلى التحيز والتزوير لنميط اللثام عن حقيقة ذلك السر ؟

لقد سردنا عدة عوامل (خارجية) تدعو إلى التحيز ضد الإسلام، فهناك صدمة الاجتياح الإسلامي منذ القرن الثامن وماتبعه من ردة فعل مسيحية ـــ أوربية ممزوجة بالخوف والرهبة والعداوة، واستمرار الحروب والتنافس الديني سيزيد الأمر مرارة وشعوراً بالعداوة، تجسيم فكرة العدو لتكون وقوداً للغزوات الصليبية، حروب (الاسترداد) الإسبانية والبرتغالية لاقتلاع العرب ـــ المسلمين من شبه الجزيرة الايبيرية، أجواء التنافس والصراع الذي أوقده

التوسع العثماني على حساب بيزنطة والبلقان، والتوسع الإسباني البرتغالي في شبه الجزيرة الايبيرية والمتوسط، والبحار الشرقية لتطويق ديار الإسلام، كل هذا يبعث على التحيز ويقود إلى وعي ايديولوجي مقلوب، ويفبرك صورة متخيلة عن العدو مطابقة لهذه الأجواء المحيطة بالطرفين.

ولكن أليس هناك وظيفة نفسية (داخلية) تقف وراء صياغة تلك الصور التخيلية عن الإسلام، تُستخدم كأوالية نفسية لإراحة الذات واطمئنانها، ولخلق نوع من التوازن النفسي والرضا الداخلي ؟.

أليست تلك النظرة المشوهة والمزورة انعكاساً لأشد الجوانب المظلمة للحياة الأوربية، يقذفها الوعي الأوربي، كأوالية دفاعية، على الخارج ويعطيها صورة الإسلام واسمه، بذلك تطمئن الجماعات المسيحية الأوربية، لأنها بهذه الطريقة الدفاعية تبرئ نفسها مما هي فيه، بإلباس تلك الصفات المشوهة إلى الإسلام. ويعطينا (مونتغمري واط) مثالاً على هذه الحالة: ففي حديثه عن الكنيسة الغربية يستخدم (وايكلف) عبارة " نحن المحمديين الغربيين، معبراً بذلك عن الجوانب السلبية التي يراها في واقع الكنيسة "... ويعلق واط قائلاً: " هذه الصورة المشوهة عن الإسلام كانت هامة إلى هذه الدرجة بالنسبة لحياة أوربا، لذا لم يكن من الغريب أنها بقيت قائمة في أذهان الأوربيين لقرون عديدة " (٧١).

ويكشف ادوار سعيد (وظيفة) نفسية أخرى لهذه الصورة التخيلية عن الإسلام التي حاكها الأوربيون " كان تمثيل الأوربيين للمسلمين، أو العثمانيين، أو العرب، كما كانت شخصيات والتر سكوت، دائماً طريقة للسيطرة على الشرق المهيب، ويصدق هذا إلى حد ما، على مناهج المستشرقين المعاصرين المتفقهين، الذين لم يكن موضوع دراستهم الشرق ذاته، بقدر ماكان الشرق وقد جُعل معروفاً، وبالتالي أقل إرهاباً لجمهور القراء الغربيين " (٧٢).

عندما نقف على حدود القرنين السادس عشر والسابع عشر يكون المجال الحضاري الإسلامي، والمجال الحضاري الأوربي متباعدان، بمعنى من المعاني. نعم، إنهما متجاوران ولايمكن أن ينسى أحدهما الآخر لافي الليل ولافي النهار، لكنهما لم يتداخلا بعد، لم تغدُ أوربا وتاريخها جزءاً منّا ومن تاريخنا، وما تلاحمت أوضاعنا بجميع مستوياتها، ولا اخترقت أوربا (حدودنا) الاجتماعية والسياسية والثقافية والاقتصادية، ولاتزال أوربا موضوعاً خارجياً لنا، ولانزال نحن موضوعاً خارجياً لها، وكل منّا مريب وملتبس للآخر. وماتحولت أوربا، بعد إلى كيان يطرح علينا أسئلة نتلعثم بالإجابة عليها، ولاوصلنا نحن إلى حالة الانبهار بأوربا: الآلة، والقوة، والحياة (الفاوستية) الممتلئة بالمتع والرفاه، والتطلع المستمر نحو المستحيل، فنصبح ماتشاء هي أن نصير، أو ماتشاء الوضعية المعقدة للزمن المركب الذي يجمعنا تحت سقف واحد إلى أن نصير.

نعم، إننا متجاوران إلى حد لا يمكن لأي منّا ألا يكترث بما يحدث في الجانب الآخر، وإننا مازلنا متباعدين إلى الدرجة التي يستطيع أي منّا العيش باستقلال عن الآخر، لم ينخرط العالم بعد في السوق العالمية الواحدة للرأسمالية، فلاتزال هذه الرأسمالية في بدايتها، أو في مرحلة التراكم الأولي البدائي للرأسمال.

هناك أشياء تستثير العداوة، وهناك مغريات، أشياء تشكل موضوعاً للرغبة، وللاستهلاك الفوري، أشياء للإفادة الذهنية، للاقتباسات وللمحاكاة، إلا أن الحياة الثقافية العالمية لم تتداخل بعد إلى الحد الذي غدت فيه أوربا ــ كما هي اليوم ــ تلاحقنا في عقر دارنا، في منازلنا، ومنتدياتنا، ومصنعنا، في غرف نومنا، ومطبخنا، وملبسنا، وغرف تسليتنا، وألعابنا وصحفنا اليومية،

وسوق الكتاب، وما نطمح أن نصير إليه. وقبل كل شيء في عقلنا حيث تطرح الأسئلة المصيرية، وفي ضميرنا الشقي الذي زرعت فيه الانقسام والانشطار وعدم الرضا.

في القرن السادس عشر، كان كل منّا ينظر إلى نفسه بامتلاء ذاتي، وثقة بالنفس، ورضى عن المصير والمقدّر. وماخالج أي منّا الشك والريبة فيما يعتقد، أو فيما يسلك، أو اعتاد، وما ارتاب أي منّا بثقافته الحية، ولا بمناخاته الروحية والعقدية، ولابتميزنا أو اختلافنا عن (الآخر) الذي هو بمثابة (عدو)، يثير الخوف أكثر مما يثير الشفقة، والازدراء أكثر من التعاطف، والنبذ والإنكار أكثر مما يثير التوادد والتراحم. ويعتبر أي منّا الآخر في ضلال مبين لاريب فيه.

صحيح، إنه حصلت اقتباسات، تأثيرات، نقل ثقافي خاصة إلى الجانب الأوربي، استزراع نباتات، نقل صناعات وخبرات حرفية، علوم، ذهنيات، إلاّ أن ذلك الاقتباس عُزل تماماً وبشكل صارم عن العقائد، وعن التربة الثقافية، وعن المسارات الروحية، والثقافية الأكثر اندماجاً وتعبيراً عن هوية الجماعة.

وكان كل شيء بالنسبة لمستقبل أوربا والعالم لايزال في المرحلة الأولية للولادة الطويلة المخاض للعالم الحديث الذي ستتبوأ فيه أوربا مركز السيادة. ولكننا نستطيع أن نؤكد منذ القرن السادس عشر [حقبة بداية (الفتح) الأوربي للعالم] على هذا الانقسام الكبير الذي أصاب ضمير وعقل الإنسان الأوربي تجاه قضايا الإنسانية: فما يصلح لأوربا لايصلح (للآخرين).

فمنذ استشعرت أوربا المقدرة على التأثير على الآخرين، ومنذ أن أدركت تفوقها وقدرتها على التحكم بمصير الآخرين، أكدت لنفسها وللعالم، بالأفعال والمشرعنة بالأقوال: " إن مبادئ القانون الدولي لاتطبق خارج أوربا، وإن ما يُعد

همجية في لندن أو باريس يكون سلوكاً متمديناً في بكين، وإن ليس على الشعوب الأوربية التزامات خلقية عند معاملة الشعوب الاسيوية " (٧٣).

كان (فاسكو دي غاما) يلقي القبض على السفن غير المسلحة العائدة من مكة، ثم يفرغها مما بها من بضائع، ويحظر على أي عربي الخروج منها، عندئذ يصدر أوامره بإشعال النيران فيها، يعلق بانيكار على حوادث إحراق هذه السفن بركابها العرب قائلاً: " لعلنا نحصل على تفسير لدوافع الاستيلاء على السفن من الملحوظة التي أدلى بها (بارو) حيث قال: " أجل انه يوجد بالفعل حق عام للناس جميعاً بأن يمخروا عباب البحار، ونحن في أوربا نعترف بالحقوق التي يمسكها الغير علينا، ولكن ذلك الحق لايتجاوز قارة أوربا، ومن ثم فمن حق البرتغاليين كسادة للبحر مصادرة جميع بضائع من يخوضون البحار دون إذن منهم " (٧٤).

هذا ادعاء غريب، ولكن الغرب بقي يمارسه حتى اليوم، فالقانون الذي يُطبق على الأرض الأوربية، وحدها شعوب أوربا من يستحقه، أما الآخرين فلا.

وإذا كانت قوانين (حقوق) الإنسان تحكم علاقة الأوربي بأخيه الأوربي، فاستباحة الحقوق هو مايحكم علاقة الأوربي بالآخرين، وإن كانت الأخوة الإنسانية مايربط الأوربي بجاره الأوربي، فإن علاقة السيد بالعبد هي مايحكم علاقة الأوربي بالآخر (غير الأوربي).

هوامش تبادل الصور:

١ ــ أندريه ميكل، أوربا في نظر العرب حتى عام ألف، ترجمة د. عادل عوا، منشورات عويدات، بيروت ١٩٨٣، ص٩٠.

٢ ــ المسعودي، التنبيه والإشراف، دار مكتبة الهلال، بيروت ١٩٨١، ص٣٨ ــ ٣٩.

٣ ــ د. خالد زيادة، تطور النظرة الإسلامية إلى أوربا، معهد الإنماء العربي، بيروت ١٩٨٣، ص١٥.

٤ ــ صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، المطبعة الجديدة، النجف ١٩٦٧، ص٨٦.

٥ ــ د. خالد زيادة، تطور النظرة الإسلامية إلى أوربا، مصدر سابق، ص٢٨.

٦ ــ أسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار، مكتبة الثقافة العربية، القاهرة، حرره فيليب حتى، بدون تاريخ، ص١٣٧.

٧ ــ المصدر السابق، ص٤٠.

٨ ــ المصدر السابق، ص١٣٢ ــ ١٤٠.

٩ ــ مونتغمري واط، أثر الحضارة العربية الإسلامية على أوربا، ترجمة: جابر أبي جابر، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨١، ص١٤٤. حيث يقول: " لم تتبدل نظرة المسلمين إلى المسيحية بعد الحروب الصليبية فحافظوا على تصورهم المشوه عن المسيحية وعلى شعورهم السابق بالتفوق ".

١٠ ــ د. نعمان محمود جبران، جوانب من صورة الآخر (الغرب) في التاريخ الإسلامي، دراسات تاريخية، العددان ٤٩ / ٥٠، السنة الخامسة عشر، دمشق، ص٥٠.

١١ ــ برنارد لويس، عن كتاب (الاستشراق بين دعاته ومعارضيه) عدد من المؤلفين، دار الساقي، بيروت ١٩٩٤، ط١، ص١٥٥.

١٢ ــ ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار القلم، بيروت ١٩٧٨، ط١، ص٥٢.

١٣ ــ المصدر السابق، ص٨٢، ٨٣.

١٤ ــ المصدر السابق، ص٤٨١.

١٥ ــ خالد زيادة، تطور النظرة الإسلامية إلى أوربا، مصدر سابق، ص٢٦.

١٦ ــ قطب الدين النهرواني، البرق اليماني في الفتح العثماني، دار اليمامة، الرياض ١٩٦٧، ص١٨/١٩.

١٧ ـــ د. خالد زيادة، اكتشاف التقدم الأوربي، دار الطليعة، بيروت ١٩٨١، ص١٦.

١٨ ـــ هشام جعيط، أوربا والإسلام، دار الحقيقة، بيروت ١٩٨٠، ص١٨.

١٩ ـــ ادوار سعيد، الاستشراق، كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت ١٩٨١، ط١، ص٨٩.

٢٠ ـــ رنا قباني، أساطير أوربا عن الشرق، د. صباح القباني، طلاس، دمشق ١٩٩٣، ط٣، ص١٩.

٢١ ـــ هشام جعيط، أوربا والإسلام، مصدر سابق، ص٢٠.

٢٢ ـــ المصدر السابق، ص١٩.

٢٣ ـــ المصدر السابق، ص٢٢. ويتساءل مونتغمري واط باستغراب، كيف استطاع الصليبيون الذاهبون للقتال تصديق هكذا ادعاء.

٢٤ ـــ البرت حوراني، الإسلام في الفكر الأوربي، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ص٢٠.

٢٥ ـــ دانييل ساهاس، الشخصية العربية في الجدل المسيحي مع الإسلام، الاجتهاد، العدد الثامن والعشرون، السنة السابعة، ١٩٩٥، ص١١٦.

٢٦ ـــ ادوار سعيد، الاستشراق، مصدر سابق، ص٩٠.

٢٧ ـــ المصدر السابق، ص٩٢.

٢٨ ـــ مكسيم رودنسون، جاذبية الإسلام، الياس مرقص، التنوير، بيروت ١٩٨٢، ص١٨/١٧.

٢٩ ـــ المصدر السابق، ص١٨. وراجع: ادوار سعيد، الاستشراق، مصدر سابق، ص٩٠.

٣٠ ـــ ادوار سعيد، الاستشراق، مصدر سابق، ص٩٨.

٣١ ـــ لويس يونغ، العرب وأوربا، ميشيل أزرق، دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٩، ص١١.

٣٢ ـــ رودنسون، جاذبية الإسلام، مصدر سابق، ص١٩.

٣٣ ـــ المصدر السابق، ص١٨.

٣٤ ـــ المصدر السابق، ص٢٠ / ٢١.

٣٥ ـــ مونتغمري واط، أثر الحضارة العربية الإسلامية على أوربا، ترجمة: جابر أبي جابر، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨١، ص١٤٤.

٣٦ ــ لويس يونغ، العرب وأوربا، مصدر سابق، ص١٢.

٣٧ ــ مونتغمري واط، أثر الحضارة العربية الإسلامية على أوربا، مصدر سابق، ص١٤٥.

٣٨ ــ مكسيم رودنسون، جاذبية الإسلام، مصدر سابق، ص٢٣.

٣٩ ــ ألبرت حوراني، الإسلام في الفكر الأوربي، مصدر سابق، ص٢٠.

٤٠ ــ مونتغمري واط، أثر الحضارة العربية الإسلامية على أوربا، مصدر سابق، ص١٤٦.

٤١ ــ مكسيم رودنسون، جاذبية الإسلام، مصدر سابق، ص٢٤ / ٢٥، وراجع: أمجد فخري، دراسات في الفكر العربي، دار النهار، ١٩٧٠، ص٩٩. حيث يذكر أن روجيه بيكون قال: " وقد طمست فلسفة أرسطوطاليس وانقطع خبرها في الغالب، إما لضياع مظانها أو ندرتها، أو لصعوبتها أو للغيرة منها، أو من جراء الحروب في الشرق، حتى عهد محمد حين كشف ابن سينا وابن رشد وسواهما عن فلسفة أرسطو... وقد ألف ابن سينا، إمام مقلدي أرسطو، ثلاث كتب فلسفية، وجاء بعده ابن رشد وهو أرسخ الناس قدماً في الحكمة فنقح أقوال الأوائل وأضاف إليها الكثير ".

٤٢ ــ مونتغمري واط، أثر الحضارة العربية الإسلامية على أوربا، مصدر سابق، ص ١٢٩ / ١٣١.

٤٣ ــ المصدر السابق، ص١٣٥.

٤٤ ــ هشام جعيط، أوربا والإسلام، مصدر سابق، ص٢٠.

٤٥ ــ مكسيم رودنسون، جاذبية الإسلام، مصدر سابق، ص٢٥.

٤٦ ــ المصدر السابق، ص٣٩.

٤٧ ــ د. زينات بيطار، الاستشراق في الفن الرومانسي الفرنسي، عالم المعرفة، ١٥٧ ــ الكويت، ١٩٩٢، ص٣٢ / ٣٣.

٤٨ ــ ادوار سعيد، الاستشراق، مصدر سابق، ص٩٧.

٤٩ ــ مونتغمري واط، أثر الحضارة العربية الإسلامية على أوربا، مصدر سابق، ص٥٢/٥٣.

٥٠ ــ المصدر السابق، ص١٤٦.

٥١ ــ المصدر السابق، ص١٥٤.

٥٢ ــ مكسيم رودنسون، جاذبية الإسلام، مصدر سابق، ص٣٣.

٥٣ ــ ادوار سعيد، الاستشراق، مصدر سابق، ص٨٠.
٥٤ ــ مونتغمري واط، أثر الحضارة...، مصدر سابق، ص١٥٤.
٥٥ ــ المصدر السابق، ص١٥٥.
٥٦ ــ المصدر السابق، ص١٥٦.
٥٧ ــ المصدر السابق، ص١٥٦.
٥٨ ــ مكسيم رودنسون، جاذبية الإسلام، مصدر سابق، ص٣٥.
٥٩ ــ هشام جعيط، أوربا والإسلام، مصدر سابق، ص٢٥.
٦٠ ــ المصدر السابق، ص٢١.
٦١ ــ د. ميشال جحا، الدراسات العربية الإسلامية في أوربا، معهد الانماء العربي، بيروت ١٩٨٢، ص٧٩. حيث يقول: " إن انتعاش الدراسات العربية يتطابق مع حركة الاصلاح الديني، وانقسام أوربا الغربية إلى دول بروتستنتية وكاثوليكية ".
٦٢ ــ مكسيم رودنسون، جاذبية الإسلام، مصدر سابق، ص٣٧.
٦٣ ــ المصدر السابق، ص٣٩.
٦٤ ــ اليكسي جورافسكي، الممهدات الفكرية للحوار الإسلامي المسيحي، الاجتهاد، العددان الواحد والثلاثون والثاني والثلاثون، السنة الثامنة، ١٩٩٦، ص١٤٧.
٦٥ ــ المصدر السابق، ص١٤٨.
٦٦ ــ مكسيم رودنسون، جاذبية الاسم، مصدر سابق، ص٣٥.
٦٧ ــ اليكسي جورافسكي، الممهدات الفكرية...، مصدر سابق، ص١٤٥.
٦٨ ــ مونتغمري واط، أثر الحضارة العربية....، مصدر سابق، ص١٥.
٦٩ ــ روسلان موسينيه، بإشراف موريس كروزيه، تاريخ الحضارات العام، المجلد الرابع، ترجمة يوسف أسعد داغر، فريد.م.داغر، منشورات عويدات، بيروت ١٩٦٦، ص٥٣٨.
٧٠ ــ المصدر السابق، ص٥٤٠.
٧١ ــ مونتغمري واط، أثر الحضارة العربية....، مصدر سابق، ص١٦١.
٧٢ ــ ادوار سعيد، الاستشراق، مصدر سابق، ص٨٩.
٧٣ ــ ك.م.بانيكار، آسيا والسيطرة الغربية، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، وزارة الثقافة، دار المعارف بمصر ١٩٦٢، ص٤١.
٧٤ ــ المصدر السابق، ص٤٠.

الفهرس

الطبعة الأولى / ٢٠٠٧

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة

كان البحر المتوسط جسراً، و.. حداً بين طرفي المتوسط.

كان كذلك قبل الشرائع السماوية، وظل كذلك معها.

جاءت الهلنستية والسيطرة المقدونية بشقيها البطلمي والسلوقي ثم الرومانية وما سمي حينذاك بالسلام الروماني - سلام المنتصرين. ثم جاءت المسيحية وعرف الشرق الذي سيعرف بالعربي المسيحية بشقيها البيزنطي، ثم جاء الإسلام لينتزع من البيزنطية جواهر تاجها الشام ومصر وشمال أفريقيا، ثم وصل الانتزاع إلى الأناضول، فاستنجدت القسطنطينية البيزنطية بضرتها الكاثوليكية روما والتي رأت أن الإسلام قد انتزع منها أحلى جواهرها، وبدأ الصراع الجديد.

الحروب الصليبية، والحروب الجارية، صراع في ظاهره ديني، وفي حقيقته صراع على المتوسط وعلى الهوية، وعلى التاريخ، وعلى المستقبل.

كتاب (الإسلام وأوربا المسيحية) كتاب يحاول فيه مؤلفنا شمس الدين الكيلاني متابعة ودراسة هذا الصراع...

كتاب هام وجدير بالقراءة.

مطبعة الهيئة العامة السورية للكتاب
٢٠٠٧
سعر النسخة داخل القطر ١٨٥ ل.س في الأقطار العربية مايعادل ٣٧٠ ل.س